***بن سعود***

مؤسس مملكة

لزلي مكلوغلن

ترجمة

د . محمد شيا

الطبعة الأولى 1995 م

عندما كتبت هذه السيرة كان العالم يتابع ، في التلفزيون والاذاعة والصحافة ، تطورات الحرب بين العراق وقوات الأمم المتحدة ، في المنطقة نفسها التي شهدت الكثير من فصول قصة ابن سعود

وكان حكام الكويت والبحرين وقطر قد منحوا ، جميعهم ، ابن سعود وعائلته حق اللجوء بعيد تركهم الرياض ، إثر هزيمتهم في إحدى المعارك ، قبل مئة عام تماما .

وكانت البصرة هي التي دعي ابن سعود اليها سنة 1916 ليشاهد فيها استعدادات الجيش البريطاني للتقدم نحو بغداد وليشاهد فيها أيضا ، وللمرة الأولى ، سربا من الطائرات . وحدود العربية السعودية مع الكويت والعراق كان قد رسمها ممثل الحكومة البريطانية سنة 1922 ، في الحجير ، أي تماما في قلب التحضيرات التي اعدتها القوات المتحالفة سنة 1991 . ومن المؤكد انه سيكون للقارئ استنتاجاته العائدة إلى التلازم او الارتباط بين قصة ابن سعود واحداث منطقة الخليج .

من المألوف ، في باب آخر من أبواب الكتب التي تتناول الجزيرة العربية وابن سعود والقبائل العربية والموضوعات المشابهة ، أن تكون البداية مع عدد من الايضاحات او الملاحظات التمهيدية في كيفية إحالة الاسماء العربية إلى الانجليزية ، وما شابه . ولا يستطيع المؤلف إلا اتباع هذا النهج ، مع محاولة الاختصار الممكن .

الاسماء العربية *

سيجد القارئ العادي ، الذي لا يجيد العربية ، بعض الإرباك والضيق في نقل الأسماء كما تلفظ عبر استخدام اشارات مد أو وقف غير موجودة في الانجليزية ، مثل المدات غير الصوتية المرسلة . إما المختص الذي يعرف العربية فلن يكون في حاجة إلى مثل هذه المساعدة وإن أزعجته بعض جوانب هذه المحاولة وما فيها من عسف وقصور

ويسعى المؤلف إلى ما هو بسيط وعادي ، ككتابة اسم شقيق ابن سعود ، سعد "saad" كاصطلاح مقبول ، وإن شابه قصور صوتي قياسا بالأصل . واسم جده ، وابنه والملك الهاشمي

على العراق سوف يبقى في كل الحالات فيصل feisal . مع أن بعض المؤلفين يميزون بين اللفظتين السعودي والهاشمي المختلفين للإسم .

أما أسماء الأماكن الواردة فسيعتمد لفظها ، في حدود الممكن ، على خرائط بارتولوميو bartholomews . ويبقى أن الفاظا عربية معينة كلفظ " قرآن " " مسلم " وغيرهما ، باتت ، مع سنة 1991 ، بغير حاجة إلى تفسير ، وستلفظ هذه المفردات وفق ما هو شائع في الكتب والصحافة ، وإن اختلف عن الأصل العربي الدقيق اختلافا يسيرا .

وسيلي ثبت بالكلمات العربية في آخر النص .

**السعوديون وابن سعود**

قبل الدخول إلى النص ، مع ما فيه من إرباك ، من الضروري إيضاح مسألة الأسماء _ المفاتيح وفق متطلبات الصوتيات من جهة ، ووفق الأصل القبلي الانثروبولوجي من جهة ثانية . والملاحق ب ، وج ، و د ، التي سترد لاحقا ، ستزيد المسألة وضوحا ، وما اختص منها بموقع ابن سعود في النص . 1 _ سعود SAUD ستكون اللفظة المعيار . وهي للجد الاول للعائلة الحاكمة في المملكة . والعائلة كلها هي آل سعود . AL SAUD . 2 _ AL ، آل ، من دون ربط هي للكلمة العربية بمعني " عائلة ... " 3 _ AL ، آل ، مع الربط هي المقابل لأل التعريف في العربية مثل : الرحمن وعبد الرحمن . والمؤلف هنا يتبع استخدام فيلبي .

4 _ ابن سعود ، المرجع الأساس لموضوعات هذه السيرة ، اسمه الكامل هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركي آل سعود 5 _ بن أو ابن هما مفردتان مختلفتان تقابلان مفردة " SON OF " في الانجليزية . 6 _ ابن سعود هو مرجعية لإطار أوسع من الاسم صاحب هذه السيرة لكننا لم نستخدمه في النص كذلك . 7 _ ما تزال بعض القبائل لروالى ، تستخدم لفظة " ابن سعود " لتعني بها العرش السعودي ، بمعزل عن اسم العاهل تخصيصا .

عرفان بالجميل

يسعد الكاتب أن يتوجه بشكره إلى من حفزه ، منذ زيارته الأولى للمملكة سنة 1963 ، على الاهتمام بشؤون العربية كاهتمامه بقضايا شبه الجزيرة العربية . لقد لقي على الدوام تشجيعا مطلقا من السعوديين ، على اختلاف مسؤولياتهم ، كما يزداد تعرفا على بلادهم ( وليزداد فهما بالإسلام ) . والكاتب يعترف أنه مدين لكتاب عديدين بحثوا في جوانب من حياة ابن سعود ، وهو يثق أن قراءه سيجدون دافعا آخر للنظر في تلك الأعمال وسيجدون متعة في ذلك ، حتى عند ذلك الكاتب الذي صرف النظر عن مؤلفاته واعتبرت في يوم من الأيام غير ذات قيمة . ويتوجه الكاتب بالشكر

إلى موظفي مكتبات ومراكز دراسات الخليج العربي في جامعة الشرق الأوسط في كلية سانت انطوني بأكسفورد ، وموظفي مكتبتي الصور والخرائط في الجمعية الجغرافية الملكية في لندن . ويسعد الكاتب أن يتوجه بالتقدير إلى كلية سانت انطوني باوكسفورد ، وإلى ماكميلان لاقتراحهما ضم هذه السيرة المختصرة لابن سعود في اصداراتهما . والكاتب يتحمل ، وحده ، مسؤولية الآراء الواردة في الكتاب .

إن دراسة اللقاءات ، والعلاقات العامة ، وأوجه الشبه والاختلاف هي الطريق الوحيد نحو تأسيس رؤية شاملة ، ومن دون هذه الرؤية فعبثا نبحث في الدراسات التاريخية عن الفائدة أو المتعة .

**مقدمة**

لا تقرأ التاريخ : لا تقرأ السيرة تلك هي الحياة بلا نظريات .

بنيامين دزرائيلي

كل السير أكاذيب

أنورين بيغن

كتاب السيرة هم اكثر الكذبة غرورا ، فهم يريدوننا أن نعتقد انهم ، بالاستناد إلى بضعة صناديق من الرسائل والمذكورات وإشعارات المصارف والصور ، قادرون على ترجمة حياة إنسان آخر كما هي ، لا زيادة ولا نقصان .

ا. ن ويلسون ، عن الصانداي تايمز ماغازين ، 5 أيار 1991

ابن سعود وجوزيف ستالين معاصران، واحدهما للآخر ، تقريبا ، يمكننا ، وإن لم يكن الأمر مستحبا ، أن نضع ابن سعود في مجرى الزمن نفسه مع من اعتبره ظلا للشيطان . كلاهما أسهم علي نحو حاسم في تاريخ القرن العشرين . وكلاهما كان رغم مشاكله ، ولنحو ثلاثين سنة ، قائدا وزعيما لبلاد شاسعة ذات ثروات ضخمة ، ظاهرة أو دفينة ، وعلى قدر عال من الأهمية الاستراتيجية . وكلاهما كان له ، سنة 1945 ، مؤتمر أو لقاء مع الرئيس روزفلت ورئيس الوزراء ونستون تشرشل . وفي سنة 1953 ، وافتهما المنية كليهما كذلك ، ليخلفهما زعيمان ثبت ، في ما بعد ، أنهما دون متطلبات المرحلة وليجري ، من ثمة ، الاستبدال بهما .

ربما كان في وسع الباحث المنقب أن يعثر علي أوجه تشابه أخرى ، إلا أن المعنى في المقارنة برمتها انما يكمن في انه يشير إلى ضآلة ما نعرفه عن ابن سعود إذا قيس على ما نعرفه عن الآخر . نستطيع في حالة ستالين ، أن نعرف التفصيل الأدق من حياته ، ونحيط حتى بتلك الاكثر سرية وتآمرا ، من خلال الوثائق الرسمية والمذكرات وتقارير الصحافة والصور والأفلام والتسجيلات الصوتية وأكوام من المواد غير المنشورة بعد .

أما في حالة ابن سعود ، فالأمر مختلف عن ذلك تماما . إننا لا نعرف حتى تاريخ مولده ، ولا في أي سنة تحديدا : فالسلطات المعنية تجعل مولده بين سنة 1867 وسنة 1887. واذا كانت وفاته قد حدثت في أقصى درجات العلنية ، فان كاتب سيرته قد نسي ، مع ذلك ، تاريخ الوفاة الدقيق. وكذا في أحداث حياته ، حيث تتضارب التواريخ حتى في سجلات السلطات . وتاريخ استعادته للرياض من آل رشيد هو واحد من أمثلة كثيرة . ففيلبي ، الكاتب الاكثر تمرسا بحياة ابن سعود ، يجعل الحدث سنة 1901 ، تماما كما فعل امين الريحاني الاميركي ، اللبناني الأصل ، الذي قضى شطرا كبيرا من العشرينات مع ابن سعود ، وكتب عنه بالانجليزية والعربية . إن أخطاء مثل هذه هي ، كما سنرى ، أخطاء تاريخية شائعة وكثيرة العدد .

غير أن ما هو اكثر خطرا من ذلك كله ، انما هو الغياب شبه الكامل لذكر ابن سعود في كتب المراجع الرئيسية . على سبيل المثال فإن " كتاب كاميرتيرج الجديد في التاريخ الحديث _ الجزء السابع _ يتناول الفترة الممتدة بين 1898 و1945 ، مع فصل خاص بالشرق الأوسط يتضمن ، مما يتضمن ، ما يعني شبه الجزيرة العربية والخليج . ومع ذلك فقد فات كتاب هذا المرجع لا ذكر ابن سعود فحسب ، بل العربية السعودية بأسرها ( 4 ) .

وبعض اسباب النقص في معرفتنا لابن سعود : ضآلة الادلة الموثقة والموثوق بها وبخاصة في العربية ( 5 ) ، وفي وسعنا ، بالاستناد إلى الوثائق البريطانية الرسمية ، تتبع قصة حياة ابن سعود منذ سنة 1910 وما بعدها ، رغم انه يجب توخي الحذر حيال بعض النقاط . ويمكننا ان نضيف إلى الملفات البريطانية بعض المذكرات الغنية لمسؤولين أو مندوبين بريطانيين كانوا على صلة مباشرة بابن سعود ، ومنذ ما بعد سنة 1930 على الأخص . وبدءا من العام 1945 تغدو السجلات الرسمية الأميركية مرجعا آخر اساسيا لمعرفة صورة ابن سعود ، في حين أن السجلات الأوربية لهذه الحقبة ، الرسمية وغير الرسمية ، تغطي جوانب أخرى من الموضوع . ومع هذا ، فان حجم ذلك كله لا يبدو كافيا إذا قيس بما هو مطلوب لانجاز صورة تامة وشاملة ( 6 ) .

لخمسين سنة خلت ، كان ابن سعود الشخصية الرئيسية والحاسمة في شبه الجزيرة العربية . كما أنه ظل ، ولأكثر من اربعين عاما ، شخصية لا يمكن تجاهلها في التطورات الدولية . وكان له عائلة كبيرة جدا : فعند وفاته سنة 1953 كان لديه أربعة وثلاثون ابنا علي قيد الحياة ، فضلا عن عدد آخر من البنات ، كما ان جيلا من الأحفاد كان قد بدأ يرى النور بالاضافة إلى اقارب وأنسباء كثيرين ، مع الملاحظة ان احفاد اليوم في زمن كتابتنا هذه السطور ، إنما ينتمون إلى الجيل الرابع .

لا تشكل معلومات العائلة ، على مستوي الوثائق والتسجيلات الصوتية ، إلا النزر اليسير مما تراكم فعلا في الخارج ، كما أنه لا يمكن العثور بالاستناد إلى السجلات الرسمية والمطبوعة التي تعود لأربعين سنة خلت ، إلا على مقدار ضئيل نسبيا من المعطيات الدقيقة والموثقة .

وعلى ذلك ، فليس هذا الكتاب سوى محاولة متواضعة لتقديم الصورة الحقيقية لحياة ابن سعود . بالرجوع إلى مصادر انجليزية ، والمانية ، وفرنسية ،وايطالية وعربية . ومع وعي المؤلف للأهمية التي تنطوي عليها الوثائق الفارسية والتركية ، فانه يميل إلى الاعتقاد أنها لا تضيف الكثير ، خارج الاطار الدبلوماسي ، إلى سياق السيرة الأساسي .

يهدف الكتاب بشكل اساسي ، إلى تزويد القارئ العادي بسيرة ابن سعود الشخصية والسياسية . اما القارئ المخصص فيمكنه متابعة ما شاء من نقاط تفصيلية ، أو زوايا أخرى من خلال إضاءات أو أبحاث مقترحة . وسيجد القارئ ترجمة ابن سعود الشخصية ، كما سيجد ثبتا تسلسليا بمعطيات السيرة .

ويجد كاتب معاصر ( 7 ) كل الاسباب التي تبرر لجوء كتاب السير ، برأيه ، إلى استخدام تقنيات الروائي وما ارتبط منها خصوصا بالسرد والبنية والتطور الدرامي والعقد الفرعية . أما كاتب هذه السطور ، فهو ليعترف أنه ، بغياب التوثيق الكافي أو الملائم للمعطيات ، سيكون من الصعوبة بمكان التعيين الدقيق للاحداث المتعاقبة في سيرة حياة طويلة ، كان ابن سعود في خمسين سنة منها طرفا أو موضوعا لسياسات القوى الكبرى .

بدأ ابن سعود منذ شبابه مقاتلا ، وسلاحه السيف أو البندقية ، لكنه عاش طويلا ليشهد ، سنة 1950 ، الجدل الذي دار حول الحكمة من استخدام السلاح النووي في الحرب الكورية ، أو عدم استخدامه .

سنة 1902 ، لم يكن تحت سلطة ابن سعود سوى مدينة الرياض القديمة ، المحاطة بالأسوار والتي لم تزد مساحتها عن 700 ياردة طولا و700 ياردة عمقا ( 8 ) . إما في سنة 1952 فقد كانت مساحة المملكة العربية السعودية 865000 ميل مربع . وفي سنة 1902 ، كذلك ، سنة استعادته الرياض ، لم تكن ايراداته ( 9 ) تزيد على 50000 جنيه استرليني ، في حين بلغ دخل المملكة السنوي من النفط سنة وفاته ما يزيد على المئة مليون جنيه استرليني ، وخلال السنوات العشر الأولى ، التي تلت إعادته تأسيس الحكم السعودي في الرياض ، كان ابن سعود منخرطا في القتال لا ضد آل رشيد في حايل فقط ، وإنما ضد تحدي المتمردين من قبيلة عجمان في شرق الجزيرة العربية وحتى مع افراد منشقين من عائلته هو كانوا يدعون السبق والرياسة . وفي سنة 1932 ، كان على ابن سعود ان يقمع تمردا حدث غرب البلاد ، بتشجيع من الخارج . أما آخر حروب

القوات السعودية لتثبيت حدود المملكة ، فلقد كانت ضد اليمن سنة 1934 . هذه الأحداث وحدها تكفي لتقديم المادة الكافية لعقدة الرواية ولعقدها الفرعية ، لكن الكاتب ، وفق طموح فان رانكه * ، لا يطمح إلى اكثر من ان يروي الاحداث كما وقعت فعلا . وسيكون من باب الامانة ان نتوقف ، في الخاتمة ، عند عدد من العقد الفرعية وعدد من تحفظات الكاتب نفسه في آن .

ان ما يرغب قارئ أي سيرة شخصية في ان يراه حسب زعم ناقد معاصر ، وبالاضافة إلى أخبار الآباء والأجداد ، إنما هي الحياة الخاصة الحميمة لصاحب السيرة . وقد سعى وراء هذا الجانب الخاص بالذات ، عدد من كتاب سيرة ابن سعود ، وخصوصا بعد ما نقل فيلبي قوله سنة 1918 : " لقد تزوجت في حياتي 75 امرأة ، وسأتزوج من جديد ، فما زلت شابا وقويا ( 10 ) " وما حقيقة انه رزق بابنه الأخير سنة 1947 إلا دليل الكافي لمزواجيته هذه ( 11 ) .

ستقارب هذه السيرة موضوعها مقاربة زمنية ، وذلك من خلال تلخيص التطورات العائلية ، بدءا من الفصل الثالث ، من أجل رسم سياق لتكوين العائلة وفي هذه المرحلة يبدو ضروريا فهم مقاربات ابن سعود في مسألة الزواج .

ومثلما أشار باحث توراتي ( 12 ) ( في البريتانيكا BRITANNICA ) فلربما كان ممكنا العثور على تشابه واضح بين سياسة الملك داوود وسياسة مؤسس المملكة السعودية في القرن العشرين . فقد ادرك ابن سعود بوضوح الحاجة إلى ربط القبائل بآل سعود عبر صلات الزواج ، ومن اللافت ان مفردة " المصاهرة " في العربية إنما تعني ذلك تحديا . والسير العربية التي تتناول زيجات ابن سعود تحسن ، وبوعي ، استخدام هذه المفردة .

وربما تتفرع عن هذه النقطة عقدتان فرعيتان أخريان :

الأولى : علاقات ابن سعود بالبريطانيين . فقد حاول السعوديون ، ومنذ سنة 1902 ، وبعدما لاحظوا ، أثناء فترة نفيهم في الكويت ، طغيان النفوذ البريطاني على منطقة الخليج ، حاولوا إقامة اتصالات رسمية بالبريطانيين ولكن ابن سعود ، وقبيل وفاته ، لم يكن ليخفي أسفه لأن صديقه ونستون تشرشل يظهر الآن العداوة له بسبب الخلاف على واحة البريمي ، وهو ما يلخص حالة المد والجزر في حرارة العلاقة بين البلدين طوال خمسين عاما ( 13 ) .

الثانية : علاقات ابن سعود بمنافسة على السلطة داخل الجزيرة العربية ، وقد ذكرنا للتو بعض هؤلاء ، كما سنعرض للبعض الآخر في سياق السيرة . إن احدى أهم ميزات حياة ابن سعود مهارته الفائقة في تقييم المواقف المعقدة واخذه بازائها ما يناسب من اجراءات أو قرارات حاسمة . هذه المهارة هي التي تقف ، تحديدا وراء ملاحظة سير بيرسي كوكس ، الذي اختبر سياسات الخليج لأكثر من ثلاثين سنة ، والتي تقول : إنه لم ير ابن سعود ينزلق إلى خطوة خاطئة واحدة .

ربما كانت هذه الصورة صورة دراماتيكية اكثر مما ينبغي ، إلا أن ما هو مؤكد تماما : أن ابن سعود هو أبرز قادة العرب في القرن العشرين . فمن خلال ايمانه العميق بالله وإرادته القوية التي تفوق الوصف ، ومن خلال طاقته الفذة وذكائه وسحره الشخصي ، أمكن له أن يقيم مملكة علي انقاض فراغ في السلطة وفوضى محلية لا توصف .

**الفصل الأول**

**المشهد**

في القفار الموحشة للجزيرة العربية يتقاطع مدى لا ينتهي من الرمل مع جبال حادة ، جرداء ، ووجه الصحراء بلا مأوى ولا ظل تحت شمس استوائية سعيرها لا يرحم . وبدل الهواء البارد المنعش، وبخاصة من الجنوب الغربي ، ينتشر في الجو بخار صحراوي مؤذ بل قاتل .... وفي لهيب الرياح الصحراوية ضاعت أو دفنت، قوافل وجيوش كاملة .

ادوارد جيبون ، انحلال وأفول الامبرطورية الرومانية ، لندن ، 1830 ، ص: 903

ليس للغريب أن يلقى في العالم ، او في آسيا على الأقل ، استقبالا اكثر تهذيبا أو انفتاحا أو لطفا من ذاك الذي يلقاه في نجد .

و . ج بلجرايف ، مجلة الجمعة الجغرافية الملكية ، عدد 34 ، ص 135

لا يستطيع المرء أن يفهم قصة حياة ابن سعود ، على الوجه الصحيح ، إن لم يتعرف على طبيعة البيئة التي بدأ منها . والصورة التي يرسمها العالم الخارجي للجزيرة العربية لا تختلف عن تلك التي قدمها جيبون قبل قليل . تلك هي الصورة الغالبة عموما حتى مولد ابن سعود 1876 . قبل هذا التاريخ بقليل . كان الكاتب الأكثر رواجا في لندن هو لوليم بلجرايف ( 14 ) ، بجزأيه ، وهو يروي اخبار رحلة المؤلف إلى ساحل الخليج عبر نجد ، ومشاهداته في تلك الرحلة ، وبلجرايف يهودي إنجليزي الأصل ، قبل أن يتحول فيصبح قسا يسوعيا . كانت قناة السويس ، المشروع الفرنسي الذي عارضه البريطانيون طويلا ، قد افتتحت بعد الرحلة بست سنوات : ولذلك ربما اندرجت بلجرايف في إطار طموحات نابليون الثالث لاستكشاف الأبعاد الاستراتيجية لذلك النجد الواسع المترامي ،والذي يصل ما بين افريقيا والهند .

سنة 1879 ، أي بعيد ولادة ابن سعود ، كان ولفريد س . بلنط ( 15 ) W .S.BLUNT الانجليزي ، وزوجته الليدي آن ، يتابعان رحلتهما بين القبائل البدوية حتى وصلا إلى حايل شمال نجد بحثا عن جياد عربية ذات أنساب أصيلة شريفة . ولعله من باب المصادفات الغريبة أن يتواجد في صحراء النفود ، وفي اقل من ثلاث سنوات ، ثلاثة رحالين إنجليز ، ثالثهم تشارلز داوتي ، الذي لم يظهر مؤلفه إلا سنة 1888 في حين ظهرت رحلات بلنط وزوجته سنة 1881 ، في جزأين وبات احد

المؤلفات الاكثر رواجا . وروي الكتاب ، لجمهور أخذته الدهشة ، كيف أن حايل كانت تمتلك جهازا للهاتف ، رغم انه ما من دليل الآن يدل على ذلك .

وما هو مثير للدهشة والاهتمام حقا هو كيف استطاعت هذه المنطقة التي رسخ في الاذهان أنها بعيدة جدا ، ان تتصل بالعالم الغربي ، علما أن أول اتصال تلفوني ، ولأغراض تجارية ، إنما جرى في كانون الثاني من سنة 1878 ، في نيوهافن في ولاية كنكتيكت الأميركية .

وربما كان مفيدا أن نذكر هنا أنه أمكن لآل رشيد في حايل ، وبفضل اتصالاتهم بدمشق واسطنبول ، وامتلاكهم قدرا من الثروة ، ان يمتلكوا معرفة ببعض أشكال التكنولجيا الحديثة . ومن المفيد أيضاً أن نقول إن أحد الاهتمامات الدائمة لابن سعود هو كيفية التعاطي الناجح مع منجزات التكنلوجيا الغربية ، المدنية والعسكرية .

إلا أنه ، وقبل ولوج تفاصيل قصة حياة ابن سعود ، يبدو ضروريا الاطلاع على العوامل الجغرافية والجيولوجية التي شكلت مسرحاً لحركة ابن سعود . ولعل ما ينبغي معرفته اولاً ، هو المسافات وسبل الانتقال .

تمتد المملكة العربية السعودية على 20 درجة طولا و16 درجة عرضاً . ولمن يهوى المقارنة نقول ان عرض المملكة من الشرق إلى الغرب هو تقريباً على المسافة نفسها التي تصل بين بودابست [ في وسط اوروبا ] ولوهافر [ في ساحل اوروبا الشمالي ] ، أو ما بين مدينة نيويورك ومدينة دي موني في آيوا . أما المسافة من الشمالي إلى الجنوب ، فتماثل المسافة بين برلين ونابولي ، أو بين ماديسون في وسكنسن ونيو أورليانز . وإحدى الميزات اللافتة للبلاد هي إن أقصى عرض لها من الشرق إلى الغرب ، يداني أقرب طول لها من الشمال إلى الجنوب أي ما يزيد على الألف ميل . إما السيارة ، وبحسب فيلبي ، فقد ظهرت للمرة الأولى في نجد حوالي سنة 1919 ، في حين أنها ظهرت في الحجاز قبل ذلك بعشر سنوات ، حين قاد أحد الرسميين البريطانيين سيارته براً من الكويت إلى لندن . لكن ابن سعود لم يتخل عن الجمل ، وسيلة انتقال ونقل ، ولم يعتمد السيارة إلا سنة 1935 ، في أول جولة له بالسيارة في ارجاء المملكة . اما قبل ذلك ، وحتى أواخر العشرينات ، فقد استمرت الجمال الوسيلة الاساسية في انتقال الأفراد والأخبار ، وفي نقل البضائع . وكان في مقدور الجمل أن يقطع ، في يوم واحد مسافة قد تبلغ 25 ميلاً ، بحسب حمولته . ولقد أستغل ابن سعود هذه الميزات بكفاءة عالية في اولى حملاته لتوسيع حدود سلطانه . فحين يخرج من الرياض للإغارة على بلدة ما أو منطقة ما ، كان يستغل سرعته في الاطباق على هدفه فيشل حركة كل واحد فيه قبل الانقضاض عليه .

في مسألة الارض والمناخ ، يمكن عموما تقسيم المملكة ، طوبوغرافيا ومناخياً ، إلى ثلاث مناطق : المرتفعات الغربية الممتدة من العقبة شمالاً حتى حدود اليمن جنوباً والسواحل الشرقية ، والصحراء في الداخل بينهما .

تتوزع المنطقة الغربية بين أوضاع مناخية متعددة ، فالسهل الساحلي ضيق جداً في الشمال ، ثم يتسع جنوباً ليصبح مثاليا تقريبا في منطقة جدة ( 3 ) . تبلغ درجة الحرارة في جدة ، أثناء فصل الشتاء بما فيه كانون الأول وكانون الثاني 23 درجة مئوية ، وهي درجة معتدلة ومقبولة . وفي غالب الفترة الباقية من السنة ، هناك رطوبة مرتفعة ، ودرجة حرارة تصل إلى 40 درجة مئوية . وخارج الساحل ، ترتفع الجبال حادة وتغدو ملجأ يفزع إليه من حرارة الساحل .

تقع الطائف علي ارتفاع 5000 قدم وهي ، تقليداً ، المكان الذي يلجأ إليه هرباً من حرارة جدة ومكة . وتتدرج الارتفاعات من الشمال إلى الجنوب ، من حوالي 2000 قدم في الشمال إلى حوالي 100000 قدم في أقصى قمم مرتفعات منطقة عسير . وفي منقطة عسير ، شمال الحدود اليمنية ، قمم يراوح ارتفاعها بين 8000 و 10000 قدم ( 4 ) ، وتتمتع بحرارة ورطوبة منخفضتين مع صيف طويل .

إما على الساحل الشرقي، فلن تجد مرتفعاً يزيد على 600 قدم ، والغالب فيه سهول ممتدة تتخللها هضاب قليلة الارتفاع . وتختلف منطقة الأحساء ( 5 ) ، في الساحل الشرقي ، عما عداها بخضرتها الكثيفة وواحاتها حول مدينة الهفوف ، وتحتوي هذه الواحات على سبعة ينابيع من المياه الطبيعية الغزيرة . وكان أغزرها يعطي ، في أيام ابن سعود حوالي 22500 غالون في الدقيقة . بل إن المسافر اليوم جواً ، بين البحرين والظهران ، يرى ينابيع مياه نقية تطفو في عرض البحر . أما شمال القطيف في السهل الساحلي باتجاه الكويت فالمنطقة قاحلة ، وقد كانت قبل اكتشافات النفط ، منطقة خالية من السكان ولا يقطع صمتها غير مرفأ صغير في الحجير . وفي المنقطة الداخلية من المملكة يلاحظ أن معظم المناطق صحراء أو مجموع من الصحاري ، نظراً لاتساعها وتنوعها .

وأبعد هذه المناطق منالاً ،وربما ، ابعدها مدى أيضاً هو الربع الخالي empty quarter ، في مساحة تقارب 250000 ميل مربع ويشكل اكثر من ربع مساحة المملكة . وتحيط بالربع الخالي ( 6 ) أراضي عمان والامارات العربية المتحدة، وحضرموت، واليمن وعسير ، وربما كان الربع الخالي ثالث اكبر صحراء حارة في العالم . وكان لقاء هوغارت ، الباحث الاوكسفوردي الأعظم معرفة بحركة القوافل القديمة في الجزيرة ، مع فيلبي سنة 1918 ، وحديثه المستفيض حول أعظم فقر

على خارطة العالم ، كان حافزاً لدفع فيلبي إلى أن يصبح ، وبحسب علمنا ، أول من تمكن من عبور واكتشاف الربع الخالي ( 7 ) .

ورغم ان المنطقة تحتوي ، كما تبين لاحقاً ،على أحد أكبر حقول النفط في العالم ، فقد استمر الربع الخالي قفراً مهجوراً ، إلا في النادر ، بل غير معروف تماماً ، وذلك بسبب ظروفه المناخية المستحيلة . تغطي الكثبان الرملية معظم مناطق الربع الخالي مع عدد لا يكاد يذكر من الآبار . وترتفع بعض بقاع الربع الخالي ، كما وصفها تسيجر ( 8 ) بوضوح ، إلى حوالي 2000 قدم في الغرب ، في حين لا تزيد ارتفاعات المناطق الشرقية على 600 قدم . وإلى الربع الخالي هذا لجأ ابن سعود قبيل انجاز المرحلة الأخيرة من غزوته التي استعاد بها الرياض سنة 1902 . وبالاضافة إلى الربع الخالي ، ففي المملكة منطقتان صحراويتان أخريان ، هما الصحراء السعودية ( بادية الشام ) والنفود او النفود الكبرى (9 ) . تمتد بادية الشام شمالاً في خط يبدأ من العقبة ويمر بالجوف حتى الكويت . ولها مواصفات تختلف تماماً عن تلك التي للربع الخالي . فهي ، على ضخامتها إما سهل ، وإما مدرج صخري لا شجر فيه ، الارتفاعات فيها تراوح بين 2000 إلى 3000 قدم . ورغم ذلك ، فقد كانت القبائل البدوية ميالة على الدوام للانتقال عبره أو فيه ، وإلى مسافات طويلة ، بحثاً عن المرعى ، ودونما أي اعتبار لمفهوم الحدود . وظاهرة الحدود هذه التي غزت المنطقة في اثناء حياة ابن سعود كانت ، كما سنرى ، مثار مشاكل ونزاعات لا تنتهي لابن سعود وللقبائل وللبريطانيين .

إما صحراء النفود ، فهي المنطقة الصحراوية الشمالية من الجزيرة العربية وتصل الربع الخالي ببادية الشام . تنتشر النفود من الجوف باسطة ذراعين اثنين ، واحد يتجه نحو شرق الرياض والآخر إلى الغرب منها . يتوقف الفرع الذي يذهب إلى الغرب قبل قليل من اتصاله بالربع الخالي ، ويفسح في المجال بالتالي للطريق الرئيسي الذي يربط الرياض بالحجاز . إما فرع النفود الشرقي فيوغل ليتصل بالربع الخالي في أرض يغلب عليها لون بني ضارب إلى الحمرة . والظروف المناخية في النفود لا تقل استحالة عما للربع الخالي، ، فحرارتها قد تصل إلى 48 درجة مئوية بينما تهبط ليلاً إلى 27درجة . وقد يتشكل الجليد في الشتاء ، كما يحدث إن يتساقط الثلج في حايل مثلاً . والصحراء عرضة لعواصف هوجاء ، في حين أن المطر نادر وقد ينحبس لسنوات ، وبالمقابل ، تتناثر آبار ماء عدة في غير مكان وغير واحة . ويسمح وجود الماء ، ومن ثمة الواحات والمراعي وبعض اشكال الزراعة ، وبخاصة النخيل ، بقيام تجمعات سكنية وصل تعداد بعضها في عهد ابن سعود إلى حوالي 15000 ساكن . وكانت هذه الواحات جزءاً حيوياً في خطط ابن سعود الحربية والتي مكنته من بسط نفوذه انطلاقاً من نجد .

في نجد ، موطن آل سعود، يلتقي فرعا النفود . ونجد، كما تعني اللفظة هي الارض المسطحة المرتفعة ، هي مسطح مرتفع قليلاً ، لكنه كثير التنوع وهو أمر يلاحظه الخارج من مدينة الرياض في كل الاتجاهات . فهناك المرتفعات ، والسهول الضيقة والمنحدرات ، والوديان الواسعة ، ومجاري الأنهر الجافة ، مع عدد من الواحات في الرياض نفسها : فاسمها يعني الجنائن أو الحدائق . كما أن هناك واحات كبرى أخرى في بريدة وحائل وجبرين وعنيزة . وكانت هذه الواحات تنتج في العادة ، البلح والقمح والشعير والأعشاب الطرية ، بالاضافة إلى مقدار لا بأس به من الفواكه المتنوعة وبخاصة الجوز والتين والمشمس . لقد أرست طبيعة نجد ومناخها ،عبر السنين ، نمطاً خاصاً من الحياة الاجتماعية . كان هناك نمط بدوي حقيقي يعتمد في معاشه على وجود المراعي ، مع ملاحظة أن مقرات البدو هنا هي أقصر مسافة بكثير من تلك التي في بادية الشام . وعليه ، فإن الاستيطان في الواحات بات أمراً متاحاً وشائعاً ، بحيث أن كل جماعة بدوية كانت تجتمع وترتبط داخلياً بوشائج وصلات متينة ، وثابتة نسبياً، كما في حائل وبريدة ، وتتبعها قرى ومراع ومزارع . في هذا المحيط الجغرافي والاجتماعي ، نشأ آل سعود ، وأسسوا حكمهم . وبسبب من هذه الجذور عينها، التي راوحت بين البدو والحشر ، حافظ ابن سعود حتى نهاية عمره تقريباً ، على عادة عدم الاستقرار في مكان واحد والانتقال مع حاشيته ، من مكان إلى آخر طوال السنة .

ولنتحول الآن للنظر في اصول آل سعود ، وفي العوامل التي ساعدت أو رافقت صمودهم نحو الغلبة والسيادة .

امتاز العرب ، وعرب الجزيرة خصوصاً ، وما زالوا يمتازون ، باعتزازهم بأنساب شريفة ومعروفة ينحدرون منها . ومن المألوف والعادي ان تتمكن أسرة ما ان تستعيد ، من الذاكرة ، اسماء الاجداد الذين تعاقبوا لثلاثمائة سنة خلت ، وأحياناً اكثر .

وفي حال آل سعود ، فان السجلات الأولى الاكثر وثوقاً تعود بنسبهم إلى مطلع القرن الخامس عشر الميلادي في حين أن بعض العامة وعائلات آخرى ، تعود بهذا النسب إلى الاجداد الأول في عدنان ، من عرب الشمال ، في إطار الائتلاف القبلي الكبير الذي شكلته عنيزة . وسيكون لهذه الأصول القبلية ، وما استتبعته ، قدر عال من الأهمية في عملية تأسيس سلطة آل سعود .

الجد الأول المعروف لابن سعود هو مانع المريدي . دعي مانع سنة 1446 ، دعاه قريب له لينتقل من منطقة قطيف إلى منطقة وادي حنيفة ، قرب الرياض . ويعود مانع بنسبه إلى قبيلة درع ، وقريبه في منقطة الرياض كان شيخ الدرعيين في المنقطة ، وكان يعرف بابن درع . وبسبب من هذا الأصل سمي مكان السكن الرئيسي لآل سعود " بالدرعية " في تاريخ آل سعود : ملاحظة

انتشار قصور ومنازل الملوك السابقين والأمراء المقدمين ، ابناء ابن سعود واقرب اقربائهم ، على طول الطريق الذي يمتد من الرياض إلى الدرعية .

وما ان يترك المسافر عبر هذا الطريق منقطة القصور حتى يصل إلى المجمع الواسع لجامعة الملك سعود في ضواحي الدرعية . إما إذا أكملت الدرب عبر وادي حنيفة إلى واحة الدرعية ، فإنك تقع على أحد أكثر مشاهد البلاد أسى : فهناك ما زالت تقوم آثار العاصمة السابقة لآل سعود .

والزائر للمنطقة لا يستطيع ،وعلى مدار السنة ، إلا أن يسرح بخياله إلى عملية التدمير الشاملة التي جرت للعاصمة السابقة بمساجدها ، ومنازلها ، وقصورها ، وأسواقها ، وبواسطة أسلحة الميدان المصرية . لقد حدث ذلك بعد أربع سنوات من معركة واترلو ، تعبيراً عن تصميم إبراهيم باشا على تدمير سلطة آل سعود . وبعدما حدث ذلك ، غدت الرياض الضاحية القريبة ، التي طالما قاومت الدرعية ، عاصمة لآل سعود .

لقد هددت الدولة السعودية – الوهابية الأولى مكانة السلطان في اسطنبول من خلال توسعها خارج حدود نجد ، بل خارج حدود شبه الجزيرة العربية برمتها . فاحتاج تدمير الدولة السعودية إلى حملة جرارة بقيادة والي السلطان على مصر ، واستمرت الحملة ثماني سنوات وانتهت بتدمير الدرعية ولم تسكن من جديد . حافظ آل سعود على آثار الدرعية ، كما هي ، إلى يومنا هذا . لقد أدرك ابن سعود ، بعمق ، ان تاريخ اسرته هو مزيج فيه هزائم وانتصارات يقومان جنبا إلى جنب .

ويقودنا هذا مباشرة إلى استذكار الأحداث التي قادت إلى الكارثة الأخيرة في العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، وذلك حين أجبر الأمير عبد الرحمن بن فيصل والد ابن سعود على مغادرة الرياض عاصمة السعوديين سنة 1891 ، مع اسرته ، وأجبر على التنقل لسنتين بين البحرين وقطر والاحساء قبل ان يسمح له باللجوء أخيراً إلى الكويت .

لقد تكرس موقع نجد ، موطن آل سعود ، ولقرون عدة كبقعة منعزلة للغاية بسبب صعوبة أرضها ومناخها القاسي وقلة مواردها، بخلاف أماكن أخرى في شبه الجزيرة . ويمكن وصف نجد ، قبل القرن الثامن عشر ، بانها مجتمع شبه مقفل ولا يصلها بالعالم الخارجي غير الحد الأدنى من الروابط .

كان هناك اتصال تجاري بسيط لا يتجاوز مستوي تأمين مقومات العيش مع ساحل الخليج ودمشق ، ووسيلته الجمال ، واتصال ديني بالحجاز يهدف إلى أداء مناسك الحج ، وكذا مع بعض مراكز التعليم الديني في القاهرة وبغداد . ولكن نجد موطن آل سعود ، ظلت في الغالب بعيدة عن التطورات التي تجري خارج حدودها ، أو على صلة بسيطة بها .

لقد تمكنت أسرته آل سعود من تأسيس هوية واضحة ووضع خاص بها ، وإلى الحد الذي يدفع فيلبي أن يطلق عليهم تشبهاً ، لقب " بارونات الدرعية " ، ودون ان تخلو هذه الفترة ، أي فترة الـ 300 سنة ، من خلافات بين أحفاد مانع المريدي ، وإلى تأسيس الدولة السعودية الأولى .

بعد ثلاثمائة سنة تماما من وصول مانع ، تشاء المصادفات أن تستقبل المنطقة حدثاً استثنائياً كتب له ان يحدد ، في ما بعد، مسار باقي أحداث القرن في شبه الجزيرة ، بل ليحدد باستمرار شطراً كبيراً من طبيعة الحياة في المملكة العربية السعودية .

ففي العام 1744 ، استقبل حاكم الدرعية ، محمد بن سعود الشيخ محمد بن عبد الوهاب فمنحه اللجوء واسبغ عليه التكريم ، وإلى هذا الاسم بالذات ينسب ، بلا تدقيق ، خط خاص في التفكير الديني . كان الشيخ كما يدعى إلى اليوم وأحفاده آل الشيخ قد أجبر على الفرار من العونية ، موطنه الأصلي ، شمال الرياض ، بعدما اعتبر النافذون من أهليها ان عقائده الإحيائية يشوبها عنف زائد وكانت احدى عقائده تدعو إلى ما يسمى بوضع الحد ، أو بكلام آخر ، إنزال العقاب وفق كتاب الله . والقضية مثار الجدل كانت الرجم حتى الموت للزانية .

وجد الشيخ في الدرعية مناخاً أكثر قبولاً لدعوته ويقال ان " مدحة " زوجة الأمير محمد بن سعود اقنعت زوجها بقبول تعاليمه بهدف احياء الاسلام الصافي ومن ثم استقبال المنتمين إلى الاتجاه الجديد . إلا ان الأمور لم تجر هينة على طرفي هذا التحالف . ففي جانب آل الشيخ نشر شقيقه فتوى ترفض الاتجاه الجديد المتشرد في التفكير الديني ، وفي جانب آل سعود عارض ثنيان شقيق الأمير محمد بن سعود ،تبني العلاقة الجديدة التي نشأت بين آل سعود والشيخ . لكن الأمير محمد بن سعود أصر على منح الحماية للشيخ واتباعه ، في خطوة يطيب للبعض مقارنتها بالحلف الذي قام بين النبي محمد ( ص ) وأهل المدينة ، بعدما هاجر من مكة مؤذناً بافتتاح التاريخ الاسلامي .

ويجعل فيلبي لقاء الاثنين في حوار يجري كما يلي : " اهلاً وسهلاً " قال الأمير أهلاً وسهلاً في بلد خير من بلدك ، ستنال منا التكريم والتأييد . ثم أخذ الأمير يد الشيخ بيده ، فأقسما يمين الولاء على دين الله ورسوله ، والعهد بالجهاد في سبيل راية الله ( 10 ) .

ليس سهلاً على العالم العلماني الحديث ان يفهم عمق هذا الأمر وسيحتاج بالتأكيد إلى قدر كبير من التخيل كيما يدرك ماهية القوة الكامنة في الفكرة الدينية والقادرة على جعل جماعة بكاملها تترك نمطاً من العيش إلى نمط آخر . يمكن للقارئ البريطاني مثلاً ، ان يفهم هذا التحول على نحو أفضل إذا قارنه بأفكار الحركات البيورتيانية purilans الميثودية methodists ، التي تركت أثراً بارزاً على الشعور والسلوك الديني وأدت إلى تغيير كبير في الموقف من تراتبية المجتمع وتقسيماته

الاجتماعية . فأدت أفكار الشيخ ، بعدما توافرت لها الحماية والتأييد من آل سعود إلى تأسيس دولة دينية تجد امتدادها اليوم في المملكة العربية السعودية ، وأدت كذلك إلى توسيع عسكري سريع خارج حدود نجد ، ففي أقل من خمسين سنة من وصول الشيخ إلى الدرعية أمكن للقوات السعودية أن تخلخل توازن القوى في شبه الجزيرة العربية ، وفي خارجها أيضاً . لقد احتل مقاتلوها مكة والمدينة ودمروا المزارات والأضرحة ، وما شابه ، باعتبارها تقاليد غير اسلامية ، وهاجموا الأماكن المقدسة للشيعة في النجف وكربلاء في العراق، وبلغوا من التوسع والقوة حداً يسمح لهم بطلب الجزية من منطقة حلب في شمال سوريا. لكن رد السلطان كان عنيفاً كما رأينا، فقد قوضت الدولة السعودية الأولى وجعلت عاصمتها ركاماً ، وسيق الأمير عبد الله بن سعود إلى اسطنبول حيث أعدم .

وقبل الحديث عن سياق الأحداث التي أدت إلى تدمير الدولة السعودية الثانية ، لابد من التوقف ، ولو سريعاً ، عن طبيعة أفكار الشيخ الدينية . وفي غير واقعة وحدث ، شكلت هذه الأفكار مصدراً للقوة في الأحداث التي عرضنا لها قبل قليل ، ثم في حرة الاخوان في العقدين الاولين من القرن العشرين، والتي مكنت ابن سعود من إكمال فتح الحجاز ومنطقة عسير ، ومرة ثالثة في الثلاثينات في الحرب المظفرة ضد اليمن .

تكمن قوة تلك الأفكار في بساطتها . فقد دعا الشيخ ، الذي درس علومه الدينية في بغداد والبصرة وايران ، وبعد عودته إلى موطنه ، دعا للعودة إلى نقاء الإسلام الأول الذي شوهته إضافات وممارسات لم ترد في الكتاب ولا في السنة . وتبعاً لذلك، فقد دعا إلى التطبيق الدقيق للمبادئ التي نص عليها كتاب الله أو المقتبسة من أحاديث الرسول وأعماله ، دون سواها . وفي هذا الإطار تحديداً يحمل العلم السعودي شعار ( " لا إله إلا الله " و " محمد رسول الله " ) .

في هذه الكلمات تكمن البساطة والقوة التي استمدت منها تعاليم محمد بن عبد الوهاب . ولفهم عمق التأثير الناتج عنها يجب أن ندرك أنها تستند إلى الإيمان المطلق بوحدة المؤسسة والمجتمع بوضعها مثال الجماعة الإسلامية . إذ ليس في الإسلام ذلك التمييز أو الفصل الذي نراه بين الكنيسة والدولة ، والمثل على ذلك يتجسد في التقليد السعودي نفسه ، حيث الحاكم هو كذلك الإمام ، وصولاً إلى أيام ابن سعود نفسه ، إي ذاك الذي يؤم الناس في الصلاة كذلك في القانون ، حيث لا فصل فيه بين ما هو مدني وما هو ديني ، فالشريعة ، أو قانون الله ، قد نظمت شؤون الجماعة على الوجه الأكمل ، وفي جوانب حياتها كافة . ففي القرآن والسنة كل ما تحتاج إليه الجماعة لانتظام أمرها وشأنها .

أعاد الشيخ صياغة هذه الأفكار ، وأتاح له لقاؤه بمحمد بن سعود السبل لتطبيقها في الجماعة المغلقة أولاً ، ثم في مجتمع يتغير بسرعة . فمن باب الفريضة والواجب على المسلم أن يسعى إلى توعية المسلمين الآخرين الذين لم تتح لهم المعرفة ، ومعرفة تعاليم الشيخ تحديداً .

كان لهذه الأفكار صداها الإيجابي والسلبي في آن . فالعالم الخارجي يميل إلى الحكم فوراً على هذه التعاليم في ضوء تجربته الخاصة بالتحريم وأمثلته الخاصة . لم يحرم الوهابيون النصب والمزارات والأضرحة فحسب ، وإنما حرموا كذلك السجائر والرقص والكحول وارتداء الأثواب التي لا تلامس الأرض والمنسوجات الحريرية والحلي الذهبية ، وتصفيف الشعر والضحك والموسيقى، إن كثيراً من السمات المميزة للعربية السعودية إنما هي بتأثير من هذه التعاليم ولكن المراقب الخارجي سيرى كذلك إن التحريم قد طال أيضاً الكثير من العادات والممارسات السيئة أو الفارغة ، والتي كانت للجماعة النجدية في القرن الثامن عشر ، كالاعتقاد بالجن والعفاريت والعين الشريرة ، والتضحية بالجمال في المآتم ،وختان الصبيان والبنات بخلاف التقليد الإسلامي ( 11 ) ، لقد شددت بعض تعاليم الشيخ أيضاً ، على جواز استخدام القوة ضد المشركين ، أي الذين اشركوا في عبادة الله الواحد ، سواء أكان ذلك عند المسيحيين أم عند بعض المسلمين أنفسهم ، الذين يرفعون الصلوات أو الأضحيات لقديسين وأولياء محليين . ومبدأ آخر من تعاليم الوهابيين ، في ذروتها : جواز قتال المسلمين الآخرين الذين لا يقبلون مبادئ الشيخ .

لكن الصورة الخارجية هذه تبدو قاتمة جداً ، اذ ان هناك ملامح إيجابية لبعض هذه التعاليم . ففي مجتمع بدوي وقبلي ، كمجتمع نجد ، لا يهدف التشديد على مفهوم وحدة الجماعة الإسلامية إلا إلى الحد من الآثار السلبية للتحالف والتنافر القبلي الذي يهدد ، على نحو خطير ،وحدة الجماعة واستقرارها . ولقد بقي ذلك هدفاً في غاية الأهمية عند ابن سعود ، كما ينقل عنه ولفريد تسيغر سنة 1947 ، أي في أواخر حياته . يجب ان تنتهي غارات القبائل والغارات المضادة مع كل ما تجلبه من فوضى وأعمال ثأر واضطراب . يجب على الجماعة أن تخضع ، بدلاً من ذلك ، لشرع الله وأحكامه ، فتغدو " اخواناً " .

وتضع طاقاتها وجهودها في ما ينفع الفرد والجماعة : في ميدان الدين كما في ميدان الزراعة والمعاش . وبعض الطريق إلى ذلك هو التشدد في تطبيق العقوبات التي نصت عليها الشريعة كيما يتحقق الأمان الكامل . وخير مثال ، في حياة ابن سعود على تحقيق الأمان والسلام من خلال العقاب ، هو إنزال العقاب العادل بابن خاله ونائبه على المنقطة الشرقية ، كما سيمر بنا حين نعرض لتأسيس الدولة السعودية الثالثة .

لم يكن تدمير الدرعية نهاية المطاف على صعيد التدخلات الأجنبية . فبعد أن ألحق القائد المصري إبراهيم باشا الهزيمة بالسعوديين تابع طريقه ، فبلغ ساحل الخليج ، واستشعر البريطانيون في الهند ، تعباً لذلك ،مخاطر هذا الوجود الغريب في الخليج ، على الطريق إلى الهند . فأرسلت دلهي الكابتن سادلر sadlier حاملاً رسالة إلى إبراهيم [ باشا] فيها تهنئة البريطانيين له لوضعه حداً للعنف الوهابي . لم يتمكن المبعوث من الاتصال بالقيادة المصرية بعيد وصوله إلى القطيف ، لكنه راح ينتظر موعداً آخر جري ترتيبه . إلا أنه فشل ثانية في مهمته ، وقضى أحد عشر أسبوعاً يجوب الجزيرة بحثاً عن إبراهيم باشا . وأخيرا ، تمكن سادلر أن يلتقي القائد المصري في المدينة ناقلاً إليه التهاني البريطانية ، ثم أكمل طريقه إلى جدة ، مؤرخاً بذلك لأول عبور موثق لشبه الجزيرة من الشرق إلى الغرب . والعبرة هنا ليست بالتأكيد في عبور سادلر بالذات ، انما في دلالتها على قوة الحضور المصري .

لقد مارس المصريون نفوذاً واضحاً على الدولة السعودية الثانية وصولاً إلى القرن التاسع عشر ونكتفي بمثلين ، لهذه العلاقة المصرية وبأسيادهم الأتراك ، بمثلين اثنين يظهران هشاشة البنية السعودية يومذاك .

سنة 1838 ، نصب المصريون الأمير خالد بن سعود حاكماً ، وكان قد أسر قبل ذلك سنة 1819 ، ونقل إلى مصر . وفي سنة 1843 تمكن الأمير فيصل بن تركي أن يفلت من منفاه في مصر ، وكان هو الآخر قد وقع أسيراً مع أولاده الثلاثة أثر هزيمته في موقعة . وافتتحت عودة الأمير فيصل إلى الرياض قيام أطول دولة سعودية مستقلة عهداً في القرن التاسع عشر ، من سنة 1843 إلى سنة 1865 ،

أعقب موت فيصل سنة 1865 فترة طويلة من الصراع الداخلي بين آل سعود . وكما توقع المقيم البريطاني في منطقة الخليج ، الكولونيل لوريس ر . بللي ، فقد انفجر الصراع بين ابني فيصل ، عبد الله وسعود ، على خلافة والدهما فتعاقب كل منهما على الحكم لفترة قصيرة ، فحكم عبد الله بين 1865 و1869 ، ثم بين 1874 و1884 ، وحكم سعود في الفترة الواقعة بين سنتي 1869 و1874 ( وكان أحفاد سعود هم الذين تنازعوا على السلطة مع ابن سعود ، ابن الابن الأصغر ، عبد الرحمن ) .

كانت صراعات آل سعود الداخلية سبباً مباشراً لهزيمتهم ونفيهم سنة 1891 ، بعدما تمكن آل رشيد من جبل شمر شمال نجد ، أن يملأوا فراغاً احدثته النزاعات الداخلية .

إن آل رشيد ، وهم أسرة ممتدة كبيرة قد حكموا من حائل من سنة 1835 إلى سنة 1921 ، بعدما كانوا قد عينوا عليها من قبل آل سعود ،لمساعدتهم آل سعود في واحدة من عمليات الثأثر . وبعد

ذلك مدوا نفوذهم بين القبائل باطراد ، وبات من الطبيعي للرحالة في الجزيرة ، امثال بلجيرايف palgrave وبلنط blunts وداوتي doughty ، أن يمروا أولاً ، لتقديم الاحترام بوصفها أهم مركز للسلطة بين دمشق والرياض، وليسجلوا من ثم ، الطابع الغريب لحكم آل الرشيد ومقدار صراعاتهم ومنافساتهم الداخلية . ورغم هذه الصراعات والخلافات الداخلية ، أمكن ، لآل رشيد ، ان يكونوا على الدوام منافسين لآل سعود .

غير ان فترة المواجهة المكشوفة بين الطرفين لم تحن إلا في ثمانينات القرن التاسع عشر ، حين كان على السعوديين ان يقبلوا تعيين حاكم رشيدي على الرياض . وفي سنة 1891 ، ألحق آل رشيد الهزيمة بحلفاء لآل سعود في المعركة ، إلا أنه كان عليه ان يقرأ ملياً نتائجها ، فاتخذ قرار تركه الرياض مع اسرته . غادر ابن سعود الرياض سنة 1891 ، برفقة عائلته ، فتىً منفياً ، محمولاً على سرج جمل ، وفي الجانب الآخر منه وفق بعض المراجع ( 12 ) كانت شقيقته المفضلة لديه ، نورا .

وكان ابن سعود آنذاك في الخامسة عشرة ( 13 ) من عمره ، على الأرجح . أما معلوماتنا عن حياته قبل ذلك فهي عامة اجمالاً وتخلو من التفاصيل إلا أن ما نعرفه، تماماً هو انه كان حاضرً في حدثين اثنين رئيسيين ، وقبل نفي آل سعود .

اولهما سنة 1889 ، حين التقت جماعة من آل سعود الرشيديين لتفاوضهم من جديد على حل وسط . ويبدوا ان ابن سعود كان حاضراً يراقب ويتعلم . وفي الثاني ، تعلم معنى ان يقتل الناس او يقتلوا ، بطريقة مرعبة ، وفي سبيل الغايات السياسية . ففي مناسبة عيد الأضحى سنة 1889 ، أولم ابن سعود لحاكم الرياض الرشيدي ، بادارة تكريم واحترام ، إلا انه ، في الواقع كان يدبر امراً آخر، إذ ما ان دخل الرشيديون مكان الوليمة ، حتى أعطيت إشارة خاصة كانت كافية لحدوث مجزرة ذبح فيها الحضور من الرشيديين ، عدا الحاكم نفسه الذي تمكن من الافلات والنجاة . لم يكن ابن سعود ، إذاً ، وقد بلغ الخامسة عشرة ، غريباً عن أساليب التفاوض والتآمر والتصدي باللين حيناً ، وبالعنف أحياناً . وفي ذلك كله ، وربما قبله ، كان ابن سعود قد أدرك تماماً مركز آل سعود ، وكيف حكم اجداده بلاداً شاسعة ، ثم كيف انهاروا بعد ذلك . وكان ابن سعود يدرك سببين اثنين على الأقل ، لذلك الانهيار: الغزو المصري الذي اشتري تاييد البدو ضد آل سعود ثم قيمة التفوق التكنلوجي ، كما ظهر في حالة مدفعية الميدان المصرية .

وإلى ذلك ، كان ابن سعود يعرف صلاة آل سعود بالقوى الكبرى الخارجية ألم يرسل البريطانيون مبعوثهم، بللي، إلى الرياض سنة 1865 ليفاوض جدة الأمير فيصل بن تركي؟ ألم يكن أبوه في بغداد سنة 1872 رهينة لدى الأتراك ، قبل إن يتمكن من اقناعهم بفائدة عودته إلى الرياض ؟ إما

الدروس السياسية التي لم يكن قد تعلمها بعد ، فقد كان عليه ان يستكملها في الكويت حيث كان منفياً نفياً دراماتيكياً مثيراً

**الفصل الثاني**

مرر ابن سعود ، بركلة خفيفة ، الكرة إلى جناحه الأيسر ، فأجبر سعدون باشا على
التراجع إلى الزاوية ، قبل أن يعود اللعب إلى وسط الملعب
فيلبي ، يوبيل الجزيرة العربية ص _ 90

كان العالم السياسي الذي وجد آل سعود أنفسهم فيه ، بعد نفيهم ، عالماً يكاد يختنق بالتعقيدات والمشاكل ، ولم يكن بالتأكيد بحاجة إلى المزيد منها . ولا يجد فيلبي مشهداً يصور المأزق أفضل من رقعة ملعب كرة قدم . فعلى جوانبه ، وفي داخله ، رمزاً ، يقدم فيلبي بياناً وافياً بتوزع مراكز القوة وعناصرها ،والعلاقات بينها ، في منطقة الخليج عند نهاية القرن التاسع عشر .

أحد مراكز القوة تلك هو ابن رشيد ، الذي مررنا به قبل قليل ، أحد أقوى أطراف صراع القوة في نجد ، وخارجها أحياناً . فقد بلغ النفوذ الرشيدي منطقة الخليج وتحديداً الكويت ، التي شكل مرفأها المنفذ الأساسي لعبور البضائع إلى نجد ومنها إلى دمشق عبر الرياض أو حائل . وفي العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، والعقد الأول من القرن العشرين ، تمكن رجال القبائل ، بتوجيه من آل رشيد في حائل ، من الإمساك بالكويت . وسقوط الكويت في ايدي الرشيديين انما يعني سقوطها في أيدي الأتراك ، فقد حافظت السلطنة في اسطنبول على علاقات وثيقة بالرشيديين استمرت في نهاية الحرب العالمية الأولى .

في حدود سنة 1891 ، بسط الأتراك نفوذاً قوياً على العراق ، مع حضور قوي في بغداد والبصرة ، وادارة نشطة تغطي البلاد كافة . وكانت البصرة ولاية إدارية بالمعني الكامل .

ورغم ذلك ، فقد بقيت الكويت منطقة مستقلة نسبياً ومقاطعة منفصلة تحت حكم آل الصباح ، الذين برزوا كحكام بدءاً من نهاية القرن الثامن عشر . طور آل الصباح دور الكويت كمرفأ حيوي للمنطقة ، وبات التجار الكويتيون مع نهاية القرن التاسع عشر على صلة واتصال بمعظم أجزاء العالم . ومع وجود آل سعود في الكويت ، دخلوا في علاقات مع تجار وبحارة من منطقة الخليج بأسرها ، في جانبيها العربي والفارسي ، ومع تجار من شبه القارة الهندية والشرق الأقصى ، من زنجبار وأجزاء أخرى من افريقيا ،ومع رجال أعمال من دمشق وأفراد من الطبقة الوسطى اليهودية في بغداد .

لم يكن الموقف التركي من الكويت موقفاً ثابتاً أو محسوماً . كان للأتراك حاميات في البصرة ، وعلى طول ساحل الخليج ، في الاحساء وقطر، ولكنه ليس في الكويت . كان لهم فيها نفوذ أكيد ،

ولكنه بلا سلطان مطلق .وبسبب من هذا الوقع المتداخل أمكن لآل سعود الاقامة في الكويت . فقد منح الأتراك موافقتهم على استضافة آل سعود في الكويت بعد تأخير دام اشهراً ، كما أصروا لهم مخصصات شهرية .

لجأ آل سعود بعيد تركهم الرياض سنة 1891 ،وقبل ان يتاح لهم بلوغ البحرين وقطر بعيداً عن الرشيديين * ،لجأوا إلى آل مرة al murra ، وسط كثبان شرق الجزيرة العربية . قدمت الأشهر التي قضاها ابن سعود بين آل مرة ترجمة ثمينة له ،فاختبر عقلية البدو وسبل معاشهم ، وكانت له معرفة أفضل بالقبائل البدوية ، كما علمته تجربة الصحراء مهارات عدة من التخييم والنقل واقتفاء الأثر ، إلى ألفة الحياة البرية ، ومزيداً من الخبرة بالخيل ،واتقاناً لاستخدامات السيف والخنجر والبندقية ، ناهيك عن إيغاله في مفردات لسان مرة ولهجتها . وستبقى هذه اللهجة إلى أواخر حياته ، مثار صعوبات دائمة للمترجمين المرافقين عادة لزواره الأجانب .

منحت البحرين أولاً الملجأ والحماية لنساء آل سعود وأطفالهم . وكان من أثر ذلك احتفاظ ابن سعود بتقدير حار لحاكم الجزيرة الشيخ عيسى بن علي ، كما انه قام بغير زيارة لها خلال سني حياته .

وأحدثت البحرين تأثيراً في جانب آخر من شخص ابن سعود ، فلقد أصيب ، أثناء اقامته بين آل مرة في الصحراء ، بالروماتزم، فأرسله والده إلى البحرين سعياً للعلاج ، وكان قد بلغ آنذاك السادسة عشرة من عمره . ورغم ان ابن سعود سيصبح، في عشريناته فارع الطول وعلى مقدار عال من القوة البدنية والنشاط ، فإن ذلك إنما يلي فترة من المرض والمعاناة الصحية لم يشف منها إلا بعد حين ، ولعل ذلك هو ما يفسر إلى حد كبير عنايته الفائقة بمسائل الرعاية الصحية طوال سني حكمه مع تقدير خاص للاطباء. وكانت البحرين آنذاك اكثر مراكز الخليج تطوراً في مجال الرعاية الطبية ، لوجود عدد من البعثات الأجنبية فيها على الأرجح ، والذي سيغدو بعضها شاهد على أحداث نجد ، وعلى قيام المملكة العربية السعودية بعد ذلك . لم يبق آل سعود طويلاً في البحرين ، بل قدموا ، بعد ذلك ، إلى قطر ، ولفترة قصيرة كذلك ،بعدما منحهم الأتراك الأمان ، ولو مؤقتاً . امتد منفى قطر ، كما يبدو ، ولا تحتفظ المصادر بمعلومات كثيرة عن تفاصيل هذه المرحلة التي سبقت سماح الأتراك أخيراً، وبعد معاناة ، بإقامة العائلة في الكويت ، إلا إنما يمكن قوله أن فترة سنتين كاملتين في حياة شاب يافع ليست بالأمر الذي ينسى أو يمحى بسهولة . رأينا قبل قليل تجربة ابن سعود في ضيافة آل مرة ، وانواع المهارات التي اكتسبها كخيال ومقاتل وقائد . إلا أن تطور شخصيتة إنما جرى كذلك بتأثير ، مباشر وغير مباشر من والديه .

فوالدته ، سارة السديري ، هي من قبيلة الدواسر من جنوب الرياض . وحين توفيت سنة 1910 ، كان عمر ابن سعود قد ناهز الرابعة والثلاثين ، ويقال إنها وراء حب ابن سعود للشعر ووراء نظمه أحياناً . وفي أي حال ،فإن تقاليد المجتمع النجدي المغلق تقريباً تحول دون أي معلومات إضافية في هذا الموضوع . إلا إنه من الثابت ان البنية الجسدية الضخمة لابن سعود إنما يعود بها لجهة والدته ، لأن من المعروف أن بنية والده عبد الرحمن كانت متوسطة الحجم وإلى اعتدال .

توفي عبد الرحمن سنة 1928 ، أما علاقته بابن سعود وآثار هذه العلاقة حتى اللحظة الأخيرة من حياته فإنها ، بحسب شهود عيان ، ستبقى ماثلة دوماً وقوية .

تقوم أدلة كثيرة وكافية للدلالة على مقدار العناية التي أبداها عبد الرحمن بالتعليم الديني لابن سعود ( 1 ) . ويبدو انه اختار مدرساً دينياً متشدداً للأخذ بيد ابن سعود اليافع ، قبل ترك الأسرة للرياض سنة 1891 . إما المدرس فهو القاضي عبد الله الخرجي ، الذي علم ابن سعود مبادئ القراءة ، واقرأه القرآن الكريم وعوده النهوض عند طلوع النهار بساعتين لأداء الصلاة .ورغم أن ابن سعود يروي ، بعد ذلك ، مقدار الصعوبة التي لقيها في تلك الدروس ، وإنه وهو في السابعة ، كان يفضل درس الرماية . إلا أن من الأكيد أن التقليد الذي اكتسبه على يد القاضي قد استمر طيلة سني حياته ويظهر هذا التأثير بالاضافة إلى اشياء أخرى في الميل الداخلي العميق نحو سماع تلاوة القرآن ، فكان له في قصوره ، مقرئون عميان في الغالب ، يتلون الآيات وبخاصة في السنوات الأخيرة من حياته .

في تسعينات القرن التاسع عشر ، تولى عبد الرحمن كرأس للعائلة المنفية ،الاتصالات الضرورية للحصول على الأمان للعائلة .وفي وقت ما من سنة 1892 منح الأتراك النساء والأطفال الإذن بالإقامة في الكويت ، في حين بقي الرجال مع آل مرة في المنطقة ما بين جبرين والأحساء . إما الإذن بالسماح للعائلة بأسرها في الإقامة بالكويت ، فربما يكون قد منح بين نهاية 1893 ومطلع 1894 .

تعود بعض أسباب التأخر في منح آل سعود إذن الإقامة في الكويت إلى مخاوف حاكم الكويت من عداوة الرشيديين . إلا ان للأتراك دوراً آخر في ذلك أيضاً . لقد كان جزءاً من سياستهم ، أو من طريقتهم في إدارة المنطقة، يقوم على الإبقاء على التوتر بين القبائل القوية وعدم السماح لأي منها بان تتحول إلى قوة مهيمنة وحيدة . وعلى ذلك ، فقد جرى السماح لآل سعود بالإقامة في الكويت بعدما أيقنت اسطنبول أن من مصلحتها تقديم العون لآل سعود ، الأمر الذي سيشد إليها ، أكثر حلفائها من آل الرشيد .

لم تفت هذه الحسابات والمناورات ابن سعود في حين تستوطن العائلة الكويت مقراً مؤقتاً. وبحسب مصادر كثيرة ، فإن فكرة العودة إلى الرياض كانت هاجساً لابن سعود ووالده ، إلا أنهما كانا يعرفان حدود الوضع الآني الراهن والصعب .

عاشت العائلة في الكويت في ظروف بالغة القسوة ، فسكنت منزلاً من الطوب لا يحتوي على أكثر من ثلاث غرف ، ولا يستطيع القارئ اليوم إلا أن يتساءل ، وبدهشة كبيرة ، كيف أمكن لابن سعود وعائلته ان يتحملوا قسوة عيشهم ذاك وصعوباته ، وإن يتجنبوا الأوبئة والأمراض . في مدينة ساحلية لا تتوافر فيها المرافق الصحية (2) إلا إن الواقع هو الواقع ، وعلى الجميع تحمله ، وقد فعل الجميع ذلك عدا زوجة ابن سعود الأولى .

مع وصول العائلة إلى الكويت ، كان ابن سعود في سن الزواج ، بل ربما اعتبر انه قد تأخر بحسب تقاليد المجتمع البدوي التي تعتبر أن الحد الطبيعي للزواج عند الشاب هو الثامنة عشرة . وعلى الارجح ان ابن سعود قد أخذ زوجته الأولى سنة 1894 ، إلا انه لا يعرف عنها إلا القليل ، لأنها ماتت بعد ستة أشهر ، وبحسب أحد الكتاب ( 2 ) فإن اسمها وقبيلتها غير معروفين . من الأكيد ان آل سعود كانوا آنذاك من الفقر بحيث كان متعذراً عليهم إقامة مراسم الزواج ، لولا مساعدة تاجر يدعى يوسف إبراهيم . لم يتزوج ابن سعود ثانية ، في حدود معلوماتنا ، إلا سنة 1899 ، أي بعد خمس سنوات رأى فيها الكثير ، وشاهد عن قرب سياسات القوى الدولية وصراعاتها في الكويت . فمرفأ الكويت الحيوي لم يكن مثار اهتمام تركيا وحدها ، وإنما كان كذلك لألمانيا وفرنسا وروسيا ، وبريطانيا أولاً وأخيراً.

كان الخليج ، لبريطانيا ، على قدر عال من الخصوصية والأهمية الاستراتيجية لوقوعه على خط مواصلاتها مع الهند ، أعظم ممتلكاتها الامبراطورية . ورغم ان افتتاح

قناة السويس، سنة 1869، قد حسم الجدل حول مسألة "البحر الاحمر أم الخليج!" كطريق مواصلات بحرية، إلا ان اسلاك التلغراف كانت قد بلغت بلاد ما بين النهرين وايران ومعها سؤال قديم متجدد عمن يملك جناحي طريق الخليج؟ وارتدت مسألة الهيمنة على الخليج أهمية مضاعفة مع الاهتمام الذي أبدته كل من المانيا وروسيا في بناء سكك حديد يمكن أن تطل على الخليج ويمكن أن تصل إلى الكويت.

طورت المانيا منذ 1890، وتحت زعامة القيصر ويلهلم الثاني، سياسة خارجية نشطة، وخصوصاً في الشرق، بعد نقض معاهدتها مع روسيا. واكثر ملامح هذه السياسة* دراماتيكية هي فكرة سكة حديد برلين _ بغداد. فقد أدت مفاوضة البنوك والصناعات الالمانية الى إعطاء اسطنبول تسهيلات سخية لإنجاز مرور الخط الحديدي هذا عبر آسيا الصغرى مع اتفاقيات موازية لاستغلال الثروات الطبيعية والمعدنية على طول الطريق، وما زيارة القيصر لدمشق، سنة 1898، غير إشارة واضحة إلى رغبة المانيا في أن يكون لها مكان تحت الشمس. لقد أنشأت المانيا، في هذا الأطار، علاقة وثيقة بتركيا (4)، وزودتها بأطقم تدريب عسكري حديث ومستشارين، واقامت مدارس المانية الثقافة، مازال بعضها قائماً إلى اليوم.

إما الوجود الروسي في العالم العربي، فهو اكثر تقدما. فالدور الروسي انطلق اولاً من اهتمام الكنيسة الارثوذكسية الروسية بالأراضي المقدسة في فلسطين، الأمر الذي كان عامل تفجير إضافي في حرب القرم. وكانت آخر سلسلة حروب القرم هذه ضد تركيا سنتي 1877- 1878، وسيكون لاهتمام روسيا بمنطقة الخليج تاثيره في موضع الكويت هو ما سيؤثر على موقع آل سعود.

في سنة 1895، ارسلت حكومة التسار [ في روسيا] سفينة خدمة إلى مضيق هرمز. وفي الوقت نفسه تقريباً كان أرستقراطي روسي، يعمل لحسابه الخاص، يقترح إنشاء خط حديدي يصل الخليج

بالبحر المتوسط، يبدأ في طرابلس وتكون الكويت في طرفه الآخر. وأثار الامر انتباه الحكومة البريطانية حين أجازت الحكومة الروسية المشروع سنة 1897.

أخذ البريطانيون هذه التطورات في الاعتبار ثم أضيف عزم الفرنسيين إنجاز اتفاق وتبادل تجاريين مع مسقط في أواخر التسعينات وتوصل هؤلاء بالتالي إلى ضرورة تحركهم بهدوء ولكن بتصميم، وربما معذورين، لحماية موقعهم الخاص في المنطقة. وهذا ما تحقق فعلاً سنة 1899، وكان من آثاره المباشرة إدراك ابن سعود لطبيعة الصراع الدائر وأخذه من ثم، سنة 1901، قرار مغادرة الكويت والتحرك باتجاه استعادة الرياض.

وقبل عرض تطورات المسرح الدولي التي سبقت سنة 1901، تبدو ضرورية الإطالة على الأحداث التي وقعت داخل الكويت والتي كان لها وقع قوي على سيرة ابن سعود.

في سنة 1896، اغتيل حاكم الكويت الشيخ محمد الذي عارض فكرة لجوء السعوديين إلى الكويت، اغتاله شقيقه مبارك، والذي يعرف في تاريخ الكويت، بمبارك الكبير. اقام مبارك علاقات وثيقة مع ابن سعود، وظل يخاطبه في مراسلاته وإلى وفاته سنة 1915 بـ "ياولدنا العزيز". وكان مبارك، بصورة دائمة، يستضيف ابن سعود في مجلسه الذي لم يكن فيه المراجعون وطالبوا الحاجات فقط، كمجلس أي حاكم آخر في المنقطة، وإنما كان فيه كذلك مبعوثو الدول الأجنبية الكبرى المعنية بمنطقة الخليج. لقد كان ذلك درساً سياسياً ثميناً لابن سعود، يضاف إلى ما كان قد حصله من تحارب وخبرات في حياته البدوية حتى سن الخامسة عشرة. رأى مبارك، كما يبدوا، أنه يستطيع في الوقت المناسب لعب ورقة آل سعود على مسرح توازنات القوى المحيطة بالكويت. فقد كان تهديد الرشيديين للكويت ماثلاً باستمرار، وكان مبارك يبحث عن وسيلة يضرب بها آل رشيد في حائل نفسها، وليخفف على الأقل من حدة ضرباتهم.

هذه الحسابات والتوازنات أضحت كلها في موقع الفعل إثر وفاة محمد بن رشيد في حائل سنة 1897، بعد خمسة وعشرين عاماً من الحكم القوي والناجح، فقد راكم هذا ثروة آل رشيد ونفوذهم وتمكن من إقصاء منافسيهم، آل سعود، ونفيهم خارج نجد، وكان لخبر وفاته وقعه المباشر لسببين:

الأول: ان خليفته عبد العزيز كان بعد يافعاً، بلا خبرة كافية، وضعيفاً قياساً بعمه الراحل.

والثاني: أن التاريخ الخاص لآل رشيد،وما فيه من قتل واغتيال وغدر وثأر، كان يشجع على الاعتقاد ان موت محمد بن رشيد سوف يؤدي إلى تصدع وحدة آل رشيد. وهذا ما حدث تحديداً. ففي الخمس والعشرين سنة التي تلت، تعاقب على حكم حائل سبعة حكام، مات معظمهم غيلة اوعنفاً.

كان مبارك شيخ الكويت مستعداً،إذن،سنة 1897، ليفعل أي شيء يقي الكويت المخاطر ويعزز من موقعها في المنطقة. وجعلته سياسته تلك موضع استقطاب واهتمام في نظر فرنسا وروسيا وتركيا وألمانيا وبريطانيا. وبات بإمكانه المفاوضة في السوق من موقع ممتاز. أما آل سعود فكانوا أفضلية أخرى في صالح مبارك.

أولى مبارك ابن سعود اهتماماً من نوع خاص، يختلف إلى حد ما عما كان لوالده عبد الرحمن. فقد كان عبد الرحمن حذراً إزاء مبارك، ويأخذ عليه ضعف تمسكه بأهداب التعاليم الدينية الصارمة، وفق المدرسة الوهابية في نجد. لقد كان مبارك، في رأي عبد الرحمن، لا يتورع عن حضور حفلات رقص فيها نساء، فضلاً عن ممنوعات أخرى كالسجائر. ورغم انه ما من دليل على تورط ابن سعود في أي من المتع الحسية التي يوفرها ميناء شرقي أو بلاط حاكم صاحب نفوذ وثروة، فإن من الواضح أن ابن سعود كان يصرف وقتاً طويلاً في صحبة مبارك، في مجالسها العامة والخاصة. بل إنه ليعتقد أن مبارك قد رتب أمر تلقي ابن سعود دروساً في التاريخ والجغرافيا والحساب والانجليزية(5)

تطورت ثقافة ابن سعود في الكويت تطوراً بالغاً، وبخاصة في حقل المعارف العامة. وفي ميدان الحكم والعلاقات الدولية تحديداً. وإذا كان ابن سعود ووفق شهادة كل من عرفه او زاره، قد تميز، طوال حياته، باهتمام واضح بمسائل السياسة الدولية، وشوقه لهذه المسائل، فإن ذلك لا ينفصل البتة عن نوع الخبرة التي حصلها في الكويت، وفي لحظة غنية بالأحداث عن أواخر القرن التاسع عشر. ومع ذلك، فقد كان عبد الرحمن حريصاً على ألا تتأثر تربية ابنه الدينية: فجلب له مدرساً خاصاً من القصيم. وساعد هذا الرجل الطيب ابن سعود في التدرج نحو معارف دينية أكثر تقدماً، مع تأكيده الانتساب إلى تعاليم الشيخ.

سنة 1899، كان إبن سعود، وهو في الثالثة والعشرين، قد بلغ درجة عالية من النضج والتطور الشخصي. وكانت له تجربة غنية بالذات في مكونات السلطة وطبيعة الشؤون الدولية. أما حجم التعليم الذي تلقاه، فكان فوق العادي أو الاساسي بلغة اليوم. وفي هذه السنة ، 1899، تزوج ابن سعود بزوجته الثانية، وضحة، والأولى التي نملك عنها معلومات تفصيلية نسبياً. كانت وضحة من قبيلة بني خالد، انجبت له ابنه الأول تركي ، ثم خليفته سعود كملك على عرش العربية السعودية.

وفي سنة 1899، كذلك، أتيح لابن سعود معاينة أهم تجربة سياسية في الشؤون الدولية، ربما كان ذلك حين خلص مبارك منذ مفاوضاته السرية، مع البريطانيين إلى توقيع اتفاقية الحماية معهم. وافقت الكويت بموجب الاتفاقية على:

1 _ أن تمسك عن مفاوضة أي طريق أجنبي قبل الحصول على موافقة بريطانيا.

2 – ان لا تتنازل عن أي قطعة من اراضيها دون موافقة بريطانيا.

وفي مقابل ذلك، حصل مبارك على ضمانته النهائية لحمايته من الأتراك وسواهم. وكان مضمون هذه الاتفاقية من الحساسية بحيث انها أبقيت سراً على الأتراك. والنقطة الأكثر وقعاً على ابن سعود، في ذلك، كانت شعوره أن البريطانيين هم عند كلمتهم وأنهم مصممون على ان يقفوا إلى جانب الكويت لان مصالحهم الامبراطورية تقضي بذلك.

أما الشيخ مبارك، وبعدما اطمأن إلى ضماناته، فقد غدت سياسته اكثر اندفاعاً وهجومية، وبات هناك تداخل اكثر وضوحاً وقوة بين الأحداث على ساحل الخليج والتطورات داخل شبه الجزيرة، وبخاصة في حائل والرياض. بدءاً من سنة 1900، وما تلاها، أخذت المناورات التي وصفها فيلبي على نحو رمزي، أخذت تقترب من لحظة الحقيقة او الحسم،والتي انتهت إلى غارة ابن سعود الجريئة والموفقة على الرياض سنة 1902.

كان مبارك،وبعدما تم له ما أراد، قد قاد حملة لا بأس بحجمها، وأغار بها على أراض يحتلها الرشيديون وكان لآل سعود سهم في الحملة. وقد لزم عن هذه الحركة أن تحولت معظم قوى آل سعود إلى منقطة حائل ولم يترك للرياض سوى مجموعة صغيرة. وكانت هذه المجموعة بقيادة ابن سعود الذي نجح في اختراق الرياض واحتلالها في غضون ثلاثة أشهر(6).

ويعتبر هذا الفصل ابرز انجازات ابن سعود، ولكن تفاصيله الدقيقة غير معروفة حتى الآن. وجل ما لدينا: ملاحظات شخصية لابن سعود نفسه صرح بها لأمين الريحاني، بعد عشرين عاماً(7). يقول ابن سعود في ملاحظاته: إن موت زوجته الأولى بعد سنتين سعيدتين ملأه قنوطاً، "فتركت الكويت إلى نجد سعياً إلى النسيان". وربما حرك، كذلك، موت عمه في الرياض مشاعر الثأر لديه. فقد قتل عمه محمد، شقيق والده، وفق بعض المصادر على أيدي الرشيديين، بعدما كانوا محتفظين به حاكماً إسمياً على الرياض.

وتروي بعض المصادر أن ابن سعود قام بأكثر من غارة موفقة على الرياض قبل سنة 1902، إلا أنه ما من دليل ملموس على ذلك. ما نعرفه فقط:أن غارة1901 على الرياض قد انتهت إلى الفشل بعدما هزمت القوة الرئيسية للشيخ مبارك وحلفائه السعوديين في اشتباك دموي في السهل الملحي في منطقة الصريف، وتسمى أحياناً طرافيا.

كان حجم الخسائر في هذا الاشتباك، والذي ربما يكون قد وقع في أواسط آذار سنة 1901، كبيراً للغاية بحيث " امتزج المطر بالدم ليشكل ساقية حمراء كبيرة تصب في بحيرة الملح" (8). وعادت القوة الكويتية _ السعودية إلى الكويت.

وفي أيلول 1901،وقع هجوم الرشيديين المنتظر وقاربت قواتهم الكويت من جهة حائل. كانت القبائل الكويتية متأهبة وانضم إليها السعوديون تحت رايتهم:" لا اله إلا الله، محمد رسول الله". وكان قائد البحرية البريطانية في الكويت حاضراً كذلك، لتقديم الحماية المطلوبة، إذا دعت الحاجة، وكانت تقاريره تؤكد أن ما لا يقل عن 10000 رجل من القبائل الكويتية وحلفائهم هم في حالة تأهب ومستعدون للمقاومة. كان حجم المدافعين وكمية البنادق والذخيرة المزودين بها من قبل البريطانيين كافية لردع الرشيديين، الذين انسحبوا بعدما اكتفوا بأسلابهم من قطعان الماشية.

وسط هذه البلبلة الواسعة، اتخذ ابن سعود القرار الأكثر مصيرية في حياته. فقد استأذن والده والشيخ مبارك أن يأخذ قوة للإغارة بها على الرياض مستغلاً ان معظم قوى آل رشيد بعيدة آلان عن عاصمة نجد. لم يتبق للرياض، غير قوة صغيرة من المقاتلين _ كما أن أسوارها لم تكن أحسن احوالها، وفق آخر مراقبات ابن سعود، لقد اعطى والده وحاكم الكويت الاذن بالمسير فغادر ابن سعود الكويت في احد أيام شهر تشرين الأول سنة 1901، متجهاً نحو الجنوب الغربي وقاصداً الرياض. كان في رفقة ابن سعود أقارب وأتباع عددهم بين اربعين وستين رجلاً جاهزين للنزال. وكانت الخطة تقضي بجمع تأييد القبائل التي يمرون بها، استعداداً للمعركة الفاصلة. وكانفي عداد المجموعة بالإضافة إلى تسعة من اقاربه بينهم اخوه محمد، واتباعهم، أفراد من بعض القبائل الرئيسية في المنقطة الشرقية(9).

وبدأ العمل في منطقة الأحساء، إلا أن النتائج لم تكن مشجعة بين البدو الذين شاركوا في غير الغارات المتتابعة. وفي بداية رمضان الموافق لكانون الأول 1901، ومع بلوغ حرض،عادت المجموعة إلى حجمها الأول وعدل ابن سعود في استراتيجيته واتجه نحو الرمال، مبتعداً عن أي اتصال بالقبائل المجاورة، ولجذب الذين تخلوا عن الهدف. وهكذا صرف ابن سعود ومجموعته شطراً من شهر رمضان في واحة جبرين قبل ان يقاربوا، ورمضان في أواخره، ضواحي الرياض(10).

وفي ليل 15 _ 16 كانون الثاني سنة 1902، قاد ابن سعود مجموعته بين شجر النخيل، يحجبه ليل لا قمر فيه، مقترباً من اسوار الرياض. ومن مكان ما في الأسوار، عبر ابن سعود إلى الداخل مستخدماً جذوع النخيل الموجودة هناك. أخذ ابن سعود معه مجموعة من رجاله ، بينهم خاله عبد الله بن الجلوي، وابقى القسم الآخر في الخارج، وأخبرهم أنه اذا لم يكتب له النصر داخل الرياض في غضون اربع وعشرين ساعة فعليهم العودة إلى الكويت وإعلان وفاتهم.

لم تعرف نتائج هذه العملية الجريئة الخاصة إلا في الصباح، فبحلول الصباح كان الحاكم الرشيدي قد قتل ثم نودي بابن سعود حاكماً على الرياض. وما زال متعذراً، إلى اليوم فهم تفاصيل ما جرى

في تلك الساعات القليلة، وكيف أمكن من خلال الالتحام المباشر، وجهاً لوجه، اسقاط حصن مسماك mosmak . والتفسير الأقرب إلى المنطق لما حدث هو ان ابن سعود قاد بنفسه الهجوم على بوابة الحصن، انطلاقاً من المنزل المقابل للحصن، حيث كانت مجموعته قد دخلته منتصف الليل وكمنت فيه إلى طلوع الفجر. وقبيل طلوع الفجر بقليل استدعى ابن سعود باقي افراد فرقته من الخارج ليعزز بها قوته الصغيرة، وبقي مع مجموعته بين انتظار ونعاس ومراقبة وصلاة في انتظار لحظة الحسم. وفي اللحظة التي فتحت فيها بوابة الحصن، وهم الحاكم بالخروج منها، انقضت المجموعة على البوابة.ويبدو ان ابن سعود قد اصيب اصابة خفيفة في هذه اللحظات. وأظهر ابن الجلوي في هذه الاثناء شجاعة فائقة في مواجهة الحرس الذي حاول اقفال البوابة، مما سمح لباقي المجموعة ان تلج إلى الداخل وتنقض كالصاعقة على الحامية الرشيدية للحصن التي اذهلتها المفاجأة، فاسقط في يدها ورمت اسلحتها. ولم يكد ينتصف ذلك النهار حتى كان ابن سعود يؤم أهل الرياض في الصلاة ليتلقى بعد ذلك مبايعتهم وتأييدهم.

استعيدت الرياض الآن، الا أنها ليست غير معركة واحدة، بينما معارك ومخاطر أخرى كانت في الانتظار.

الفصل الثالث

## العودة إلى نجد 1902 _ 1903

نجد هي أحد قرني الشيطان، فيها ولد كل المكر ومعها بدأ كل لؤم:

حديث منسوب للنبي محمد(بتصرف)

بنى ابن سعود سلطته وامارته بمزيج من الدبلوماسية والقسوة البالغة

lexion zur geschichte and polik im 20 jahrhundert

كيبن هاير ي . فيتل، 1971.

كانت الرياض سنة 1902، ونستعر كلمات لوريمر(1) الخالدة " في أدنى ما يمكن ان تكون عليه"، إلا أن استعادة ابن سعود لها كانت حدثاً اكثر اهمية بكثير. لقد اجتمع في البلدة المسورة من جديد العنصران اللذان شكلا الدولة السعودية، أمير سعودي مقتدر، وقادر على توجيه قواته من جهة، وأحفاد الشيخ من جهة ثانية،إذ ان أسرة عبد الوهاب لم تترك الرياض مع آل سعود. ومن باب المصادفات أن يكون ولد لابن سعود صبي ثان في الكويت ولم يصل النبأ السعيد إلى والده إلا بعد ذلك باسابيع ويحتمل ان يكون قد ولد في الليلة التي جرى فيها الهجوم على الرياض، لكن ابن سعود كان مشغولاً بشيء آخر تماما وهو ترتيب المسائل العملية الماثلة أمامه. لقد ادرك ابن سعود نقاط ضعف آل سعود ونقاط تفوق ابن الرشيد وذلك في ملاحظته: "أرنب في حجره لا يناله جيش في الخارج" (2).

وعلى ذلك، فقد كانت المهمة العاجلة لابن سعود تحصين المدينة، وإصلاح ما فسد من أسوار الرياض. لكنه كان يعرف ان اجتياز الأسوار أمر ممكن في أي غارة محتملة. وهكذا فان عامل القوة الثاني الذي يحتاج إليه ابن سعود هو التفاهم والتحالف مع البدو والحضر من أهل نجد. فبدأ سريعاً برنامجاً من الجولات والزيارات للمنطقة المأهولة من نجد، جنوبي الرياض، وذلك في خلال بضعة اشهر من استعادة الرياض. استقبل ابن سعود في الخرج والأفلاج والحوطة والحريق بكثير من الترحاب والحماسة ، وكان لمعظم زعماء القبائل مواقف مؤيدة وداعمة، وبخلاف ما كان عليه الأمر قبل استعادة الرياض. كان في وسعه تحقيق أهدافه بين القبائل بلا عنف، فقد أثقل كاهلها الرشيديون بالضرائب الباهظة وبسوء المعاملة في آن. وكمثال بارز على هذا التحول ارسلت قبائل وادي الدواسر (3) وفداً يبايع ابن سعود ويقدم الطاعة له.

أما الخطوة التالية فكانت ترتيب التحاق العائلة به في الرياض. والحدث الأهم في ذلك كان عودة الوالد، فهو تقلد المركز الديني الأكثر حساسية وهو إمامة الوهابيين. استقبله ابن سعود في اقصى مظاهر الاحترام والإجلال، وهو شأن سيحتفظ به طوال حياته. وتأسيس مذ ذاك تقليد زيارة ابن سعود اليومية لوالده واستقبال زيارة الوالد له بعد صلاة الجمعة الاسبوعية.

وافتى " العلماء" بموقع كل من الوالد والابن: يبقى الأمير عبد الرحمن الإمام ويكون ابن سعود الحاكم. إما الاقارب الآخرون. الذين عادوا، فكانت ادوار كثيرة تنتظرهم، وبخاصة أخوه الأكبر محمد واولاد ابن الجلوي، خال ابن سعود الذي رأينا أداءه الشجاع في استعادة الرياض. رافق امراء آل سعود وأخوال ابن سعود، رافقوه في جولاته القبلية، عامدين، كيما يرى من له عينان ان الاسرة واحدة متحدة متضامنة وقوية بما فيه الكفاية للدفاع عن العقيدة الوهابية ونشر تعاليم الشيخ.

لم يسجل في الأشهر الستة الأولى بعيد العودة إلى الرياض غير عمل عسكري واحد مهم، هو مهاجمة قبيلة قحطان وإلزامها بالطاعة. وبحلول خريف1902، كان ابن سعود قد نال مقداراً وأفراً من التأييد، وأسس قواعد حصينة جنوب الرياض تحوطاً من هجوم معاكس محتمل من الرشديين. كانت حركة بطيئة بالمقابل وتأخر كثيراً في التصرف حيال ما جرى. فقد مضى الصيف بكاملة قبل ان يصل إلى منطقة الرياض، ثم مر بها، قاصداً مناطق جنوبي نجد، إلى أن حدثت المواجهة المنتظرة في الديلم في تشرين الثاني 1902، ورغم ان المعركة لم تتعد حدود الاشتباكات الصغيرة أو المناوشات، فأنها كانت مع ذلك معركة مهمة وحاسمة.

من المتعارف عليه، عادة، ان معظم الصدامات القبلية هي معارك صوتية، بهدف إلقاء الرعب في الخصم اكثر مما هي مواجهات حربية بالمعنى الحرفي للكلمة. وإلى ذلك، فقد كان لابن سعود معرفة غريزية بقيمة الاقتصاد في المجهود الحربي والتركيز في القوة. كما انه كان مؤمناً تماماً

بأهمية التقنية الحديثة في حشد القوى وتركيز النيران. يضاف إلى ذلك كميات كبيرة من الذخيرة حملها من الكويت أو أمنها له تجار كويتيون. باختصار، فقد كان رجاله في أحسن حال لاستيعاب هجوم القوة الرشيدية.

وحالما تقدم الرشيديون نحو النخيل حيث يرابط السعوديون والكويتيون، حبس هؤلاء انفاسهم، ينتظرون خلف سرج جمالهم، ولم يطلقوا طلقة واحدة إلى ان اصبح المهاجمون على مرمى حجر، ثم فتحوا النار بكثافة، ففوجيء الرشيديون بالتكتيك السعودي، وسقط لهم قتلى واصابات أكثر مما هو معتاد في الإغارات القبلية(4). فتضعضعت صفوفهم. وفي اللحظة المناسبة اطلق السعوديون خيالتهم باتجاه الرشيديين، فدارت مواجهة شرسة استمرت من الظهر حتى غروب الشمس. ومع غروب الشمس تقهقر الرشيديون فارين إمام الخيالة السعودية(5)، وهكذا حقق ابن سعود، إضافة إلى ما ذكرناه، أهمية الاقتصاد في استعمال الذخيرة.

تعلم ابن سعود، إضافة إلى ما ذكرناه، أهمية الاقتصاد في استعمال الذخيرة. فلو أدرك الرشيديون كم كانت قوى ابن سعود قريبة من نفاد الذخيرة، لكان من الممكن ان يحققوا مزيداً من الثبات. وربما كانوا قد غيروا في نتائج المعركة. وبسبب من هذه التجربة المرة، رأينا حرص ابن سعود الزائد في معاركه اللاحقة أو في التحضير لها، بحيث كان احياناً يقوم شخصياً بتعداد توزيع وحدات الذخيرة ( 6) .

بعد الديلم، استمرت المناوشات والمناورات مع الرشديين في الصحراء أشهراً عدة ، وبدأ هؤلاء يفقدون تقدمهم وتفوقهم رويداً رويداً نظراً لابتعادهم مئات الأميال عن قاعدتهم في حائل. ومع نهاية هذه الحملة صيف 1903، كان ابن سعود قد نجح في تثبيت سلطة آل سعود في التجمعات السكنية الكبرى شمال الرياض وجنوبها، وباتوا على شفا خطوة متقدمة أخرى بأخذه منطقة القصيم التي تضم بلدتين كبريين، بريدة وعنيزة .

امكن لإبن سعود، بعد اشتباكات 1903 – 1904،ان يزداد اقتراباً من هدفه بتوسيع سلطة آل سعود، بمزيج من العنف والدهاء. وتشير غير رواية إلى المشاركة الشخصية المباشرة لابن سعود في القتال في أكثر من مكان، فمن رسالة له إلى مبارك شيخ الكويت، يصف فيها أخذه عنيزة في ربيع 1904، نقتطف التالي:

" بعد صلاة الفجر بقليل أرسلنا في مواجهتهم عبد الله بن جلوي مع 100 رجل من أهل الرياض .. لقد كسرناهم وذبحنا منهم 370 رجلاً..... ولم نخسر بعون الله سوى رجلين" (7) وبعد سنوات يقدم امين الريحاني صورة ابن سعود المقاتل، في احتلاله عنيزة سنة 1904،نقلاً عن ابن سعود نفسه: " ضربته على الساق الاولى فسقط، ثم ضربته على العنق، فهوى الرأس إلى جانب واحد ونفر شلال

من الدم، والثالثة كانت في القلب رأيت القلب شق نصفين... لقد كانت لحظة لا توصف، فقبلت السيف. " (8)

وما السيفان المتعامدان تحت شجرة نخيل في راية المملكة العربية السعودية غير اشارة إلى الدور الذي مثله العمل العسكري في تأمين وحدة المملكة واستقرارها.

وإلى هذه المعطيات لا نملك في الحقيقة غير القليل من المعلومات حول ما يسمى، في المفردات الحديثة، بالاستطلاع، والاستطلاع المعاكس، والتخريب، والخداع، والحرب النفسية، والوسائل غير العسكرية الأخرى في مواجهة العدو. وإلى ان سقطت حائل نفسها سنة 1921، فإن معظم هذه العطيات هي مجرد استنتاجات يمكن استخلاصها من الملاحظات التي تركها ابن سعود نفسه.(9) يمكن للمرء ان يستنتج نظرياً أن الاستخبار عن العدو والاستخبار المعاكس كان له أيضاً دوره في العمليات، في حدود معينة بالتأكيد نظراً لطبيعة البيئة المحلية البسيطة وللنقص في الاتصالات. فالحصول على معطيات ونقلها انما يعتمد على سرعة الجمل، وهو ما كان له الأولوية على مسرح العمليات.

وفي ميدان التخريب الداخلي هناك عدد من الوقائع التي تشير إلى ان بلدات مهمة مثل بريدة وعنيزة، كانت تسقط من دون ان يكون هناك حاجة لهجوم من الخارج(10). فإلى الشمال من الرياض، هناك مثلاً بلدة صغيرة كانت دائماً مأهولة ولمئات السنين، تعاقب على حكمها اجيال من الاسرة عينها. إما اليوم فالبلدة قفر بلا سكان، إلا ان اهم ما تبقى منها هو زاوية برج مراقبة يدعى إلى الآن برج الخائن. هذه واحدة من كثير سواها من المواقع التي استسلمت بالاقناع والحيلة ودونما قتال.

كانت تطورات 1902 _ 1905 وأحداثها في الغالب خارج مجال رؤية القوة الإقليمية الرئيسية، بريطانيا، كانت بخلاف ذلك تماماً للأتراك. كان موقف بريطانيا في انجاز معاهدات مع الساحل الإماراتي، عمان والبحرين مبنياً على الرغبة في الحفاظ على طرق المواصلات البحرية ومن دون السقوط في الفوضى التي كانت تضرب في الداخل، لقد ادخلت معاهدة الكويت لسنة 1899 بريطانيا بالتدريج في عمق شؤون قلب الجزيرة العربية، وذلك بالترافق، أو بسبب من التطورات التي قادها ابن سعود.

يعتقد السعوديون ان زيارة الكولونيل بيللي لفيصل بن تركي سنة 1865، قد انتهت إلى معاهدة بين السعوديين وبريطانيا، وكان ابن سعود في مفاوضة المبعوثين البريطانيين يعود دائماً إلى نصوص تلك المعاهدة كإطار للبحث في علاقات جديدة مع بريطانيا. (11) وهناك ما يثبت ان مثل هذا

الاتصال السعودي الرسمي بالبريطانيين كان قد بدأ في مطلع سنة 1902. ففي أيار 1902، كتب والد ابن سعود إلى المعتمد السياسي البريطاني يقول:

" لا أريد أن أسأل أحداً سواكم، وما ذلك إلا للأفضال والحماية التي تقدمونها للذين وضعوا انفسهم تحت نظركم. فهل تتطلع عينا الحكومة البريطانية صوبنا.. أنا أطلب أن تعتبرني حكومتكم الموقرة كواحد من رعاياها " (12) والغريب أن رد فعل بريطانيا على هذا الاتصال كان التجاهل رغبة منها، كما يبدو، في تجنب أي تعقيدات غير ضرورية في العلاقة مع اسطنبول . فقد كان الأتراك يزعمون السيادة على نجد، وانطلق موقف بريطانيا من الرغبة في تجنب أي عمل يسيء إليهم في ضوء ميزان القوى المعقد على المسرح الأوربي. ورغبة في التشدد حيال الطموحات الألمانية، وقع البريطانيون والفرنسيون إتفاقية entente cordiale، كما حاولت بريطانيا في الشرقين الأدنى والأوسط تحديداً، منع المانيا من الإفادة من أي سوء في العلاقة قد يقوم مع تركيا. أدرك ابن سعود تماماً تعقيدات الموقف غير أنه كان يحتفظ بتقدير مختلف للمسألة. لقد كان يعنيه من المسألة برمتها ، أمر واحد وهو كيفية الحصول على الحماية ضد الأتراك. خشي ابن سعود، بدءاً من صيف 1904، وبكثير من الحكمة، خشي تدخلاً تركياً مباشراً ضد آل سعود، وذلك عندما أمر الأتراك قوة تضم حوالي 2400 رجل ، من ست إلى ثماني كتائب مع مدفعية ميدان، بالتحرك من العراق والتمركز في قلب الجزيرة العربية.

ناوشت القوات السعودية القوة التركية _ الرشيدية بين تموز وايلول 1904 في عدد من المعارك كمعركة البقيرية وهناك دليل على ان ابن سعود قد جرح في هذه المعركة من شظية تسببت بها قذائف المدفعية التركية. ورغم إصابته في يده وساقه،فقد استمر في القيادة الفعلية لقواته طوال اسابيع من الكر والفر مع القوات التركية بين غابات النخيل . أما ما أتاح لابن سعود أن يقطف النصر بعد هذه المناوشات، فهو التقاء عوامل ثلاثة: أ _ عجز القوات النظامية التركية عن تحمل نتائج حرب العصابات، ب _ عجز الرشيديين عن استعادة ولاء البدو، ج _ الشجاعة والتصميم اللذان أبداهما ابن سعود شخصياً. لقد عرف كيف يستغل نقاط الضعف لدى طرفي التحالف التركي والرشيدي، وأطلق في اللحظة المناسبة خيالته بقيادة شقيقه محمد ضد الرشيديين الفاقدين تدريجاً أي روح معنوية،ففروا في كل اتجاه.

وكانت النتيجة بحسب رواية مؤرخ عربي، هي التالية: بعضهم تبع البدو ونجوا بأنفسهم، وآخرون أخذوا جهة الصحراء واختفوا فيها. اما الباقون فاستسلموا للإمام الذي منحهم الأمان وأحسن معاملتهم (13).

ربما كان ضرورياً ما اوردناه من ملامح تشير إلى سياسة ابن سعود او تميز سلوكه وأدائه في انتصاراته لأن ذلك سيبقى جانباً من شخصيته طوال حياته وفي مختلف معاركه التي اشترك فيها شخصياً، حيث كانت الأخيرة فيها سنة 1930.

كان يضايق ابن سعود كثيراً ان بعض الاعداء الذين عفا عنهم او أحسن وفادتهم لم يبادلوه بالمثل، بل انقلبوا عليه من جديد، إلا أن معظم الذين كانوا اعداء له سرعان ما جذبهم إليه عفوه وتسامحه.

لم يكن وسط الجزيرة العربية مسرح العمليات الوحيد لابن سعود بعيد استعادته الرياض. فقد بلغ ساحل الخليج في عدد من الحالات أهمها اثنتان جعلتاه شخصياً ومباشرة موضع انتباه الحكومة البريطانية. في آذار 1903، أعلن ممثلو ومعتمدو بريطانيا في منطقة الخليج حالة الاستنفار القصوى من مسقط إلى الكويت وذلك بسبب وصول سفن حربية تخص كلاً من فرنسا وروسيا. (14) لم تكن بريطانيا قد دخلت بعد مرحلة تنفيذ نصوص معاهدتها مع فرنسا، واعتبرت، بالتالي، وصول سفنها إلى الخليج تطوراً يدعو إلى القلق. ومع ذلك، فإن الأكثر مدعاة للحذر عند البريطانيين كان الحضور البحري الروسي في الخليج.

حملت السفن الحربية الروسية برنامج دعوات لمرافئ المنطقة مع النزول في كل من مسقط والكويت، الأمر الذي دفع مخاوف البريطانيين إلى حدها الأقصى بل سرت تكهنات أن لدى الروس خططاً لشراء مضيق هرمز.

أثار طلب الروس لقاء ابن سعود والشيخ مبارك انتباه ابن سعود إلى ان لديه لائحة خيارات متعددة، وكما سيكون عليه الحال طوال حياته. دعي ابن سعود وشقيقاه محمد وسعد والشيخ مبارك لزيارة السفينة الحربية الروسية، وكانت مناسبة قدم فيها لضيوفه شروحاً وافية حول استعادته الرياض، وحول سياسات وسط الجزيرة العربية، ملمحاً إلى مخاوفه من التدخل التركي. ولعل من المفيد الإشارة إلى مدى انفعال الشيخ مبارك بحسب المصادر الروسية، بنجاحات ضيفه ولاجئه السابق. وفي لحظة ما، رفع الشيخ مبارك غطاء الرأس واقسم انه مستعد ان يكون في خدمة ابن سعود.

ومع ذلك، فلقد كان ابن سعود قادراً على الفصل، بوعي تام، بين المناسبة الاجتماعية الودية والارتباط السياسي، فلم يقبل عرض المساعدة الذي قدمه الروس في تلك المناسبة، ولم يغير قط من قناعته أن مفتاح نجاحه إنما يكمن في التفاهم مع بريطانيا كي تتحقق حماية دولته واستقلالها.

لقد أظهرت زيارته للبحرية الروسية مدى حصافته، كما أنها كانت خطوة ذكية اسهمت في دفع البريطانيين لإعلان سياسة واضحة في الخليج. أقدم البريطانيون، بعيد ذلك مباشرة، على خطوتين ذواتي معان جلية كالبلور. الأولى إعلان وزير الخارجية البريطانية اللورد لانزداون، في 5 أيار 1903 بمجلس اللوردات، موقع بريطانيا في منطقة الخليج بعبارات مباشرة واضحة فقال "اقولها

بدون تردد: إننا نعتبر قيام أي قوة خارجية بتأسيس قاعدة لها في الخليج أو إقامة مرفأ لها فيه بمثابة تطور خطير يهدد المصالح البريطانية وسوف نقاومه بكافة الوسائل المتوفرة لنا." أما خطوة بريطانيا الثانية، فكانت خطوة مسرحية إذا صح التعبير، حيث قام نائب ملك الهند، جورج ناتنيال فيسكونت كيرزون، بزيارة الخليج. (15) لقد كانت الزيارة الأولى من نوعها، حيث قام في اثنائها نائب الملك بسلسلة من الزيارات الملكية، كما لو كانت زيارات المنتصر، إلى مشيخات الخليج.
وقبل أن يصل إلى الكويت وبعد النزول من السفن، كانت واحدة من اللحظات المعبرة في التاريخ الإمبراطوري حين سقط عن حصانه واحد من صحبه، وهو هاردينغ المعتمد البريطاني في طهران " إلا أنه، وبشجاعة كاملة، عاد فاستوى على مقعده، وتابع انطلاقه وسط زخ الرصاص " (16)
ظهر الغرض الحقيقي للزيارة في الخطب الرنانة التي القاها كيرزون خلال جولته. ففي 21 تشرين الثاني خاطب كيرزون جمهوره العربي فقال: " إن سلام هذه المياه يجب ان يستمر، واستقلالكم يبقى مصوناً، والحكومة البريطانية يجب ان تبقى في المقدمة (17)".
وتلا ذلك مباشرة افتتاح البريطانيين لأول ممثلية سياسية لهم في الكويت وذلك سنة 1904، كما تسلم أول معتمد سياسي مهامه في العام نفسه. والذي خلفه مباشرة كان الكابتن وليم شكسبير الذي خدم فيها منذ سنة 1909 إلى وفاته سنة 1915. كان شكسبير المعتمد البريطاني الأكثر تعاطفاً مع ابن سعود حتى الحرب العالمية الأولى، كما انه قدم للعالم الخارجي، وللمرة الأولى، صورة لابن سعود والقوات السعودية. وعلى قاعدة هذا الاهتمام البريطاني بتأمين السيادة المطلقة على الخليج، يمكننا معرفة الاسباب التي جعلت الاتصال الثاني الرئيسي بين ابن سعود والبريطانيين خلال 1905 _ 1906 على قدر كبير من الحذر. أراد ابن سعود القيام بزيارة رسمية للخليج، فقصد الساحل المتصالح * برفقة حرسه، وبلغ شبه جزيرة قطر في مطلع صيف 1905. وكان ذلك مثار ذكريات مؤلمة للطرفين أخصها تلك المتعلقة بالهجوم الوهابي في القرن الثامن عشر الذي اجتاح المنطقة وصولاً إلى وسط عمان وتحولهم إلى جامعي ضرائب قساة على تلك المنطقة. فجاء الرد البريطاني عبر شخص سيؤدي، من الآن فصاعداً، دوراً كبيراً في حياة ابن سعود، لقد كتب برسي زكريا كوكس، الذي كان قد عين ممثلاً سياسياً باختيار شخصي من كيرزون، كتب إلى ابن سعود، بعد التشاور مع حاكمي أبو ظبي ومسقط، محذراً ابن سعود بلطف، ولكن بحزم بالغ، من مواصلة التقدم في جولته. وتلقى كوكس من ابن سعود رداً ديبلوماسياً يعبر فيه أنه لا يضمر أي نوايا شريرة تجاه أحد من خلال جولته. وهكذا عاد ابن سعود إلى نجد صيف 1905، ليعيد تقييم موقفه وخياراته من جديد.

بعد انزاله الهزيمة بالاتراك والرشيديين وأسره بعض قطع المدفعية سنة 1904، حاول ابن سعود، بالتفاهم مع عبد الرحمن، مد جسور باتجاه الأتراك مؤكداً لهم قبوله السيادة التركية. هذه المبادرة ربما تكون قد استندت إلى تحليل ابن سعود وتصوره أن الأتراك ليسوا الآن في وارد الرد على هزيمتهم الصغيرة تلك، فقد تعين عليهم مواجهة تمرد كبير نشأ ضدهم في اليمن، كما أنهم ليسوا في وضع يسمح لهم بالحرب على كل الجبهات في وقت واحد. ومهما كانت دوافع ابن سعود او حساباته، فقد كان ذلك الاتصال آخر خطوة في عملية الجلاء النهائي للقوات التركية عن وسط الجزيرة العربية. بدأت المفاوضات في الكويت بين عبد الرحمن وممثلي الأتراك، فحاول الأتراك انتزاع اعتراف ابن سعود باستمرار الوجود العسكري التركي. لقد رغبوا في وضع حامية في منطقة القصيم، إلا انه لم يكن لهم، بعد هزيمتهم، سبيل إلى ذلك فقرروا ترك نجد بسلام ومن دون قتال. وازداد الموقف السعودي قوة في وسط الجزيرة العربية في ربيع 1906 عندما قتل الحاكم الرشيدي في معركة روضة المهنا التي خاضها ضد القوات السعودية التي كان يقودها ابن سعود شخصياً. وجاء مقتل الحاكم الرشيدي ليفجر برميل بارود من الصراعات والمؤامرات داخل العائلة في حائل. وغلب واقع الحال على كل خيال، ولم يكن في وسع ابن سعود المراقب بدهشة لما يجري في معسكر أخصامه إلا ان يعلق بقوله: _"هم اناس مجانين ... يفعلون أي شيء" (19) ويستعرض فيلبي طرائق آل رشيد الخاصة والغريبة في ترتيب توارث السلطة في الفترة التي تلت مباشرة موت ابن رشيد سنة 1906 (20):يحكم نائب الحاكم في حايل حتى يبلغ المولود الجديد الوريث سن الرجولة. وكيما يعزز هذا ،أي نائب الحاكم، من موقعه، فهو يتزوج آرملة ابن سعود أي والدة الوريث. والسيدة نفسها كانت زوجة محمد الكبير الذي مات سنة 1897 بعد حكم دام 25 عاماً. وبعد موته تزوجت هي بخلفه، وابن شقيقه، عبد العزيز. وبموته تزوجت بالرجل الذي قتل ابن زوجها، أو ابنها قانوناً.

ولعل ذلك هو ما جعل البريطانيون يقولون، مغدورين عن شؤون وسط الجزيرة العربية: " تبدو التقارير التي تتناول حقيقة الأمور في الجزيرة العربية معقدة نوعاً ما ولكن بحسب آخر المعلومات، فان السعوديين هم إلى صعود" (21).

ولعلنا لا نذهب بعيداً إذا قلنا، مع الموسوعة البريطانية بريتانيكا، أنه بحلول سنة 1906 كان ابن سعود" السيد الكامل السلطة" في الصراع على الجزيرة العربية، فلقد تمكن في اربع سنوات من القتال والنزال، من جعل آل سعود أحد أقوى أطراف الصراع على السلطة. لقد تمكن من دفع الرشيديين إلى الخلف نحو حائل إلا ان مشكلة ولاء القبائل كانت تحتاج إلى حل.

فمنذ سنة 1907 تقريباً، كان إسم فيصل بن دويش، زعيم قبيلة المطير، يرتفع رويداً رويداً ويغدو مألوفاً لدى الأوساط المعنية بشؤون الجزيرة. كان جده، الذي يحمل الاسم عينه قد قاتل ضد آل سعود مع المصريين في مطلع القرن التاسع عشر، وأعاد فيصل الكرة من جديد مع ابن سعود ليغدو، من ثم، أحد أقوى زعماء حركة الإخوان التي تمتد جذورها إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى.

بدل فيصل بن دويش موقفه غير مرة بين سنتي 1907 _ 1908 في موازاة فوز ابن سعود بمدينتي بريدة وعنيزة، ثم خسارته لهما، ثم استعادته لهما أخيراً. إنها بعض تقلبات السلوك البدوي، كما في حالة دويش والتي استطاع ابن سعود ان يستخدمها وسيلة مثلى لتأمين استقرار المناطق التي دخلها ووحدتها. وردود فعل ابن سعود هنا مسجلة في مصادر تلك الفترة إلا أنه يمكن استنتاجها كذلك من خلال تحليل احداث 1910 _ 1912، حين قدم البدو، بأعداد كبيرة للاستيطان في مستوطنات دينية عسكرية زراعية اطلقوا عليها اسم "الهجرة".

كان على ابن سعود ابن يواجه، قبل تأسيس هذه المستوطنات، خطرين اثنين في آن: التصدع داخل البيت السعودي من جهة، والتهديد الذي بدأ يمثله أمير مكة الجديد، حسين بن علي، من البيت الهاشمي من جهة أخرى.

لم تؤد استعادة الرياض سنة 1902 إلى مصالحة سريعة ناجزة لا بين ابناء عم ابن سعود، ولا بينهم وبينه كما كان يتوقع. فقد اختار بعضهم اللجوء إلى ابن رشيد في حائل، بل ان بعض هؤلاء كانوا بين الرشيديين الذين سقطوا اسرى بعد احتلال عنيزة سنة 1904، رحب ابن سعود باستعادة هؤلاء وأطلق عليهم، على سبيل المزاح، إسم "عرايف" (4) وهو إسم يطلق على الجمل الذي يضل طريقه إلى ديار قبيلة أخرى ثم اسم يجري استعادته من جديد، بل إن ثلاثة من هؤلاء دخلوا حلقة ابن سعود الأقرب من خلال زواجهم بثلاث شقيقات له، وأعطى كبير المجموعة المنشقة سعود الكبير، شرفاً خاصاً بزواجه من شقيقته المفضلة، نورا. إلا أنه، في سنة 1910، ولاسباب بقيت غير واضحة، ترك عدد من أبناء العم الرياض إلى قبيلة العجمان، وكان عبد العزيز حينها مخيماً خارج العاصمة، والعجمان كانوا معادين لسلطة آل سعود، وسيبقون كذلك إلى فترة طويلة. واستمر الشرخ بين آل سعود إلى سنة 1916، حين قدم سعود الكبير ولاءه لابن سعود، وبقي كذلك إلى حين وفاة بن سعود.

وترافقت مشكلة "العرايف" عند ابن سعود مع تفاقم مشكلته، الخطيرة الأخرى، وهي ازدياد نفوذ وقوة وطموح شريف مكة، حسين بن علي، بعد تعيينه في منصبه سنة 1908 من قبل استطنبول. وابدى حسين ولاء ومقدرة كبيرة حين قدم عوناً حاسماً للسلطنة في إخضاع التمرد الذي قاده محمد زعيم

الادريسيين في مرتفعات أبها وعسير. وبعيد عودته إلى مكة، عمل الأتراك على تحريضه للتحرك ومد نفوذه إلى المناطق الصحراوية الداخلية.

كانت الغارة الأولى لقوات حسين بن علي على عتيبة، عند حدود نجد، سنة 1910 غارة ناجحة تغلبت فيها على قوة سعودية صغيرة. وكانت القوة السعودية بقيادة سعد شقيق ابن سعود الذي كان يقوم بعملية تجنيد في العتيبة لمقاتلة العرايف وحلفائهم في منطقتي حوطة وحريق. اسر سعد في المعركة، وأرسلت إشارة بذلك إلى ابن سعود مع طلب فدية. (24).

حاول ابن سعود التفاوض لكن مجال المناورة كان ضيقاً، فقبل أخيراً دفع فدية إلى حسين بن علي مع الاعتراف بالسيادة التركية مقابل الافراج عن سعد. وحين أطلق سعد رفض ابن سعود الالتزام بالاتفاق قائلاً انه وافق عليه مرغماً وبالاكراه.

واجهت عبد العزيز وسعد، وقد التقيا من جديد، مشكلة ملحة اخرى وهي تمرد زعماء الحزانيين في مقاطعة الأفلاج بتحريض من العرايف. وبينما تمكن احمد السديري، أحد اقربائه لجهة الوالدة،من الإمساك بجزء من المقاطعة، حاصر ابن سعود المتمردين في بلدة تدعى ليلى، حيث كانا مجتمعين بواحد من العرايف، سعود بن عبد الله، بينما كان العرايف الآخرون قد فروا إلى الهاشميين. تمكن ابن سعود من احتلال البلدة بلا قتال، بعد تهديده بنسفها وتدميرها، فاستسلم الحزانيون. وكانت تلك مناسبة أخرى ليظهر فيها ابن سعود مهارته كقاض وكحاكم. فقد حكم على زعماء الحزانيين بالموت وحانت ساعة تنفيذ الحكم، إلا ان ابن سعود قدم عرضاً أفضل. فقد خيرهم بين تحريرهم وتركهم يلتحقون بابناء عمه المنشقين، أو البقاء والتحالف معه. فاختار هؤلاء البقاء مع ابن سعود وظلوا إلى جانبه طوال حياته. يلفتنا حقاً بعد الذي رأيناه، قول ابن سعود في أواخر ايامه، وهو يستعيد هذه الاحداث: إن العشر سنوات التي تلت استعادته الرياض هي الأجمل في حياته كلها (25).

كان يستذكر لحظات الخطر الداهم والاستعداد الدائم للتحرك في أي لحظة، ولمواجهة كل الاحتمالات، بما فيها الموت. لقد كانت تلك التجارب دافعاً له لينشئ اولاده على عادات قاسية وليسلحهم بالمهارات الضرورية التي تكفل لهم مواجهة كل الظروف وينقل امين الريحاني قوله سنة 1922:

"علينا ان نكون دائماً جاهزين ومستعدين. اني ادرب ابنائي على المشي حفاة، على النهوض قبل الفجر بساعتين، وعلى الحد الادنى من الطعام، وعلى امتطاء الخيل من دون سرج _ لم يكن هناك متسع من الوقت احياناً لوضع السرج، كان عليك ان تقفز على حصانك وتنطلق(26)".

وفي غضون ذلك كله، أي مع النشاط الحربي والتخطيط السياسي والتفكير الاستراتيجي، كان ابن سعود ينشئ عائلة بل أسرة ممتدة كبيرة من خلال سياسته في الزواج ضمن الحدود والشروط التي

نص عليها الكتاب. فقد تزوج "جوهرة" سنة 1907، أم خالد، الملك بعد ذلك، ومحمد وكلاهما لعب دوراً عسكرياً مهماً في العشرينات والثلاثينات. كانت " جوهرة " من الحلقة الداخلية في الأسرة، فهي شقيقة مساعد بن جلوي، وقد ذاع تقدير ابن سعود لها، بعد الحزن الشديد الذي أصابه لوفاتها سنة 1919، نتيجة اصابتها بحمى انفلونزا قوية. وبقيت ذكراها حية عنده إلى درجة كاد يبكي وهو يتحدث عنها في الثلاثينات، كما يروي محمد أسد. لقد كانت كما يبدو مصدر طمأنينة كبرى له وبخاصة في الأيام الصعبة التي كان يقاتل فيها لتثبيت حكم آل سعود وفي مواجهة كل المخاطر التي رأيناها.

" في حين أن العالم مظلم من حولي، لا ارى فيه طريقاً خارج المخاطر والتعقيدات الداهمة، فإذا جلست إلى "جوهرة" وشجوت لها اشجاني، جعلت تتحدث وتواسيني، فإذا العالم قد انير من جديد وانفتحت امامي سبل لم أكن اراها من قبل" (27).

وينسب عدد من الكتاب (28) إلى "جوهرة" فكرة انشاء مستوطنات الإخوان في حين كان عبد العزيز على وشك ترك الأمر برمته. ويكتب ابن سعود ابياتاً لجوهرة يرسلها اليها قبل الشروع في عملية عسكرية ضخمة يستعيد بها الأحساء من الاتراك سنة 1913، فقد وضع الأتراك فصائل من جيشهم في الأحساء سنة 1871، بعد فترة الاضطرابات التي شهدتها المنطقة، والتي ترافقت مع الصراع داخل آل سعود. كان ابن سعود يراجع منذ فترة وضعه الاستراتيجي برمته، ذلك أنه برغم كل الجهود التي بذلها حتى الآن، ما زال معزولاً في المناطق الصحراوية وسط الجزيرة العربية، عزلة لم يزدها إيلاماً غير الجفاف الذي كان يضرب نجد منذ سنوات. لقد كان محاصراً في الواقع من الهاشميين في الغرب، والرشيديون في الشمال ما زالوا يحتفظون بالكثير من قواتهم وقوتهم، وفي الجنوب الربع الخالي. اما الشرق وعاصمته الهفوف ففيه حامية عسكرية تابعة للسلطنة العثمانية. كانت السلطنة تعاني، منذ عقود،أمراضاً ومشاكل، ودعيت بحق " رجل اوروبا المريض" بعد خسارتها عدداً من مقاطعاتها الاوروبية لصالح النمسا وروسيا. إما في العالم العربي ومع مطلع القرن، فان مقاطعات كثيرة كانت قد خرجت عن سيطرتها. فلقد خسرت تونس، لصالح فرنسا سنة 1881، وخسرت مصر لصالح بريطانيا سنة 1882، وطرابلس الغرب لصالح ايطاليا سنة 1911، كان ابن سعود يرافق كل هذه المعطيات والتطورات المتسارعة ويسعى إلى المزيد من الفهم لمغزاها وانعكاساتها.

وكان له كذلك عيون وآذان في الكويت ودمشق الذين زودوه، لا بالبضائع فقط، وانما بالجرائد المحلية والمعلومات المتداولة، بل زودوه بالمستشارين المستعدين للعمل معه. لقد تابع، ما وسعه، صحافة القاهرة ودمشق، كما كان هناك صديقه البريطاني الجديد، شكسبير، المعتمد البريطاني في

الكويت، والذي التقاه للمرة الأولى سنة 1901 في الكويت. ويسجل شكسبير في تقاريره أنه يحث مع ابن سعود ردود الفعل البريطانية المحتملة حيال أي تحرك منه ضد الاتراك في الأحساء، وكذلك الانعكاسات المحتملة لحروب البلقان سنتي 1912 _ 1913،

وكان الأتراك أنفسهم مصدر معلومات له. وحسب فيلبي (29) استدعي ابن سعود من قبل والي البصرة التركي، في وقت ما قبل سنة 1913، ليسأله حول آرائه في الدور الذي يمكن ان تؤديه المشاعر القومية العربية داخل الإمبراطورية العثمانية.وكانت هذه اللقاءات بالغة الأهمية لشخص له ذكاء ابن سعود: فحسه السياسي ومرجعيته الثقافية المتنوعة مكناه من التقاط المعلومات وتحليلها بسرعة. ويروى على سبيل المثال، إنه ومن خلال حديثه مع أحد الضباط الأتراك، الذين وقعوا أسرى لدى هجومه على الأحياء، قد توصل إلى استنتاج أن الحرب واقعة في اوربا لا محالة(30). كما كان له، قبل الحرب العالمية الأولى، مصدر معلومات آخر هو العدد المتزايد من الرحالة الذين يقصدون الجزيرة العربية، وبعضهم مخابرات، بشكل او بآخر، مثل ليشمل الضابط المتطوع في الوحدة الخاصة (rsr )*، الذي قام برحلة جريئة عبر الصحراء من بغداد إلى نجد والرياض ثم إلى الساحل، وبرسلاي رانكاير، الدانماركي، الذي نشر بالانجليزية، وقبل موته المبكر المفجع، تقريراً حول رحلته عبر نجد بعنوان " عبر بلاد الوهابيين، على جمل".

وهكذا فان قرار ابن سعود محاصرة الإحساء لم يكن مقامرة مجنونة، بل كان ضربة حاسمة مبنية على حسابات ذكية مؤداها أن الأتراك ليسوا في وضع يسمح لهم بالرد المناسب.

ويستذكر ابن سعود، بعد سنوات، المشاعر التي تملكته وهو على وشك الهجوم على الهفوف، على ما ينقله كاتب عنه فيقول:

كنت أمام الهفوف تماماً. ومن على كثبان الرمل حيث كنت جالساً، كان في وسعي أن ارى بوضوح حيطان البرج الذي يطل على البلدة. كان قلبي مملوءاً بالافكارالمتناقضة حول حسابات الربح والخسارة في هذه العملية. شعرت بالتعب واشتقت للسلم والمنزل، ومع خاطر المنزل ارتسم وجه زوجتي "جوهرة" أمام عيني. وبدأت أفكر بالأشعار التي كان يمكن أن أنشدها إياها لو كانت إلى جانبي، فانغمست في نظم أبيات لها ناسياً تماماً اين وأي قرار ضخم يتوجب علي اتخاذه، وحالما اكتملت القصيدة في ذهني، كتبتها، وانشدتها، ثم ناديت تابعاً لي وأمرته قائلاً اسرج اسرع ناقتين واركب بهما إلى الرياض بلا توقف، وسلم هذه لأم محمد. وما أن اختفى الرسول في غمامة من الرمل حتى وجدت نفسي فجأة مستعداً لاتخاذ قرار الحرب: سوف اهاجم الهفوف والنصر من عند الله" (31)

جمع ابن سعود، في آيار 1913، قوة من حوالي 300 رجل من المناطق الحضرية، لا من البدو، وسار دون إبطاء نحو الهفوف. ورغم أنه كان يواجه جيشاً نظامياً _ أو فرقة منه مؤلفة من 1200 رجل _ فانه كان قادراً أن يستفيد، كما في غارته على الرياض سنة 1902، من عنصر المفاجأة ومن عدم انتباه الحرس، لينقض كالبرق على مقر قائد الحامية. ومع صبيحة التاسع من ايار 1913، كانت القوات السعودية قد نزعت سلاح الحامية التركية وبلغت، وهو الأهم، شاطئ الخليج. وإذ أرسى آل سعود سلطتهم على ما سيتضح بعد ذلك أنه أكبر احتياط للنفط في العالم، فقد فرض ابن سعود في دائرة الضوء والاهتمام البريطانية، وإلى اقصى ما تحمله الكلمة من معنى. وإذا كان اللورد لانز داون قد أعلن، بالفم الملآن، قبل عشر سنوات تماماً، أن السلطة في الخليج هي لبريطانيا دون سواها، فان الحركة المفاجئة التي أنجزها ابن سعود قد ألزمت بريطانيا، من جديد، أن تعيد تقييد موقفها وحساباتها السياسية في منطقة الخليج. وإذا كان البريطانيون قد وجدوا، قبل إحدى عشرة سنة أن الحكمة كانت تقضي بعدم الرد ايجاباً على رسالة آل سعود التي تطلب الحماية ضد الأتراك، فان اسم ابن سعود اليوم، وبعدما حدث قد اصبح الشغل لمعتمدي بريطانيا وفي ذهن ممثليها وهم يفاوضون اسطنبول قبل عام واحد من اندلاع الحرب العالمية الأولى. (22)

كان على البريطانيين ان يمارسوا سياسة حذرة في مفاوضاتهم مع ابن سعود. وللمرة الأولى، ومنذ أن لفت ابن سعود انتباه كوكس المعتمد السياسي، كان هناك كتلة في حكومة الهند [ البريطانية ] ، التي كانت تقارير كوكس ترسل إليها،ومثلها في مكتب الهند بلندن، تنصح حكومة صاحب الجلالة بضرورة إظهار مزيد من التأييد لابن سعود كيما تكون هناك على الأقل وسيلة لضبط طموحاته. إلا أن مكتب الخارجية كانت له على مستوى استراتيجي أكثر اتساعاً وشمولاً، حسابات تجعل الأولوية لسياسة عدم دفع الأتراك إلى أحضان المانيا. وبعض مضمون المداولات، التي جرت بين لندن ودلهي، كان يدور حول كيفية السماح لفرد واحد، هو الكابتن شكسبير، باقامة اتصالات مع ابن سعود والتفاوض معه. ومع كل طلب من شكسبير للقاء ابن سعود كان يقوم قدر من النقاش لا ينتهي. ولعل واحدة من النتائج الجانبية للقاءات غير الرسمية بين الرجلين هي الحصول، للمرة الأولى، على صورة فوتوغرافية له وعلى وصف مورفولوجي كذلك. ففي سنة 1900، يرسل شكسبير تقريراً إلى كوكس يصف ابن سعود فيقول إنه:

يولد الانطباع بانه ذو شخصية مستقيمة، صريحة وكريمة لقد عاملني بأقصى درجات الضيافة والصداقة. ولم يبد، لا هو ولا اشقاءه، أي روح تعصبية مثلما هو متوقع من عائلة وهابية حاكمة. كما أن مستشارية وقادة قواته عاملوني، أنا ورجالي، بمنتهى اللطف والصداقة. وأراني مقتنعاً بصدق

انطباعاتي خصوصاً بعد نقاشنا في مسائل مثل العقيدة والدين، التي هي في اولويات العقيدة الوهابية. وكنت دائماً احظى باجابات هادئة تنم عن ذكاء ومنطق". (33)

وتبلغ معرفة شكسبير، لا بابن سعود فقط، وإنما بسياسات الجزيرة العربية ككل، وباتصالات ابن سعود بالزعماء العرب الآخرين، تبلغ هذه المعرفة الدرجة التي تسمح له ان يكتب سنة 1914 إلى الادارة السياسية في مكتب الهند فيقول: " لقد وجد العرب الآن قائداً تعلو هامته هامة أي زعيم آخر، وهم يمحضونه إيماناً عميقاً. وبات المشايخ الآخرون من الحلفاء العرب يحيلون إلى ابن سعود قضاياهم كافة، يطلبون فيها نصحه، وبخاصة ما ارتبط منها بعلاقتهم بالتاج " (34)

**الحياة العائلية**

لقد مر بنا، إلى آلان زوجتين لابن سعود، الأولى مجهولة تماماً والثانية وضحة بنت محمد، من قبيلة بني خالد، والتي انجبت لابن سعود ولديه تركي وسعود، الذي صار ملكاً فيما بعد. الزوجة الثالثة كانت طرفة، من عائلة الشيخ(35)، أي حفيدة مؤسس المذهب الوهابي محمد بن عبد الوهاب. وقد انجبت له سنة 1904 فيصل الذي صار ملكاً فيما بعد وابنته عنود.

لقد كان ذلك في حدود حق المسلم بالزواج من أربعة وفق الشروط التي ارساها القرآن.

"مثنى وثلاثاً ورباعاً وإذا خفتم إلا تعدلوا فواحدة"

السورة 4 الآية 3.

كذلك مارس حقه في طلاق زوجاته، إلا اننا لا نعرف عن ذلك إلا القليل. وإذا كنا كما رأينا سابقاً لا نعرف شيئاً عن زوجته الأولى، حتى إسمها، فإن المرجع الأساسي عن آل سعود بالإنجليزية (36) يعطي الزوجة الأخيرة لابن سعود والتي انجبت له، اسم "غير معروفة unkown . وتبقى الاشارة كذلك إلى الزوجات اللاتي أنجبن له، واشارة كذلك إلى أشقائه.

في سنة 1912، تزوج جوهرة بنت مساعد بن الجلوي، والدتها من عائلة السديري. وقد أنجبت له ابنين: محمد وخالد،الذي صار ملكاً بعد حين. هذان الولدان تنكبا دوراً عسكرياً مهماً في العشرينات والثلاثينات وكانت وفاتهما سنة 1919 بوباء الانفلونزا.

وكان لوالده كذلك عدد من الزوجات، في مراحل مختلفة من حياته، وعدد من الأبناء ممن لعبوا دوراً في حياة ابن سعود، وابنة واحدة، هي نورا، التي مر ذكرها في اثناء الخروج من الرياض إلى المنفى سنة 1891.

وحتى العام 1913 يمكن تسجيل اشقائه كما يلي:

_ محمد، أخ من جهة ابيه، كان اصغر سناً من ابن سعود، وإذا كان ابن سعود من مواليد 1876 فيحتمل ان يكون مولده بعد اربع سنوات. لقد لعب دوراً فاعلاً في عدد من المعارك حتى قبل الحرب العالمية الأولى.

_ عبد الله. أخ من جهة أبيه، ولد حوالي سنة 1900، لعب دوراً عسكرياً مهماً أيضاً، وغداً بعد حين اقرب مستشاريه إليه.

_ سعد شقيق من جهة الأب، والأم، كان مقرباً جداً منه وهو الذي فداه بعيد وقوعه في اسر أمير مكة، حسين بن علي. قتل في موقعة سنة 1915، تزوج ابن سعود من أرملته وانجبت له عدداً من الابناء.

كذلك لابن سعود شقيقان آخران لا نعرف عنهما شيئاً فعلياً، هما فيصل، ولد حوالي سنة 1875، ويحتمل أنه مات سنة 1890 وفهد ولد سنة 1875.

**الفصل الرابع**

## آفاق مفتوحة 1913 _ 1924

يجب التعامل مع ابن سعود كموظف تركي فقط.

( ادوارد غراي، وزارة الخارجية البريطانية 8 آيار 1914)

عندما يرغب الانجليز في شيء فإنهم يحصلون عليه.

إما إذا رغبنا نحن في شيء، فعلينا القتال من أجله.

( ابن سعود)

بعد1922 كان ابن سعود مستعداً للمزيد من المغامرة.

( وثائق المملكة العربية المتحدة حول خلاف البريمي)

في آيار 1913، دخل ابن سعود الهفوف دخول المنتصر. وفي تشرين الأول 1924، دخل مكة منتصراً كذلك، ولكن لأداء مناسك الحج هذه المرة وليس عليه غير رقعتي قماش.وبين هذين التاريخين انخرط ابن سعود شخصياً في اكثر من معركة وأصيب بجراح بالغة. وخسر في الوقت عينه، زوجته وثلاثة من ابنائه في وباء الأنفلونزا الذي انتشر سنة 1919،اما ابنه الناجي، الثاني، من الوباء فقد قام بزيارة رسمية، هي الأولى، لواحد من آل سعود إلى دولة اجنبية، وذلك حين زار فيصل لندن واستقبله الملك جورج الخامس. وفي الفترة نفسها، كذلك ، يترك ابن سعود نجد في

زيارة قصيرة، هي واحدة من ثلاث مناسبات فقط يغادر فيها شبه الجزيرة طوال حياته، وذلك حين دعاه البريطانيون سنة 1916 لزيارة البصرة، كان هناك صور اشعة ليده، ورأى الطائرة للمرة الأولى، كما التقى خلالها غارترود بل. وربما كان ذلك في أول مناسبة يقابل فيها امرأة محجبة خارج الأسرة. وفي هذه الفترة، أنجز ابن سعود اتفاقية النفطي الأول، واستولى على عسير ومعظم الحجاز .قضى ابن سعود في هذه الأثناء على قوة الهاشميين في شبه الجزيرة، كما انه وضع حداً نهائياً للرشيديين كسلطة منافسة لآل سعود ليقوم بعد ذلك باستبقالهم في الرياض، في بادرة مصلحة استمرت على الدوام. وتكررت شائعات موته غير مرة . وتلقى مساعدة مالية كان عليه إنجاز ما انتهى إلى تأسيس الملكة العربية السعودية. واستقبل ابن سعود في هذه الفترة، أو التقى، أجانب كثراً كانوا بصدد الكتابة عنه، وبخاصة امين الريحاني وفيلبي. ولكنه دخل، فوق ذلك كله، ومعه آل سعود في لائحة طويلة من العلاقات والمباحثات مع الحكومة البريطانية حول مسائل حدودية لم تحل حتى نهاية حياته. هذه السنوات كانت الأكثر امتلاء بالحدثي والشخصي والسياسي، والأكثر امتلاء ببدايات الأجوبة الكبرى التي انجزت لاحقاً. وهي إلى ذلك، السنوات الأكثر إثارة في حياته كلها. أما السنوات التي تلت، ومن ضمنها الحرب العالمية الثانية، فقد كانت أقل مشاكل واقل إثارة عما كان عليه الأمر في حقبة الحرب العالمية الأولى، حيث كان لخيار خاطئ واحد يتخذه ابن سعود ان يقضي على مستقبله السياسي وعلة سلطة آل سعود.

واجه ابن سعود، في هذه الحقبة، خيارات مختلفة في مسائل ثلاث منفصلة، بدأت من قبل ولن يتأتى حلها الا مع نهاية هذه الحقبة. والمسائل الثلاث هي:

أ _ المداخيل، ب _ البريطانيون، ج _ الإخوان.

تطورت المسائل الثلاث، لتتداخل احداها بالأخرى وتبلغ منتهى التعقيد. ونكتفي بمثلين أثنين. كان ابن سعود، ولمعظم هذه الفترة، معتمداً على المساعدة المالية البريطانية، والتي كان قادراً على بواسطتها على الاستيعاب الإخوان وأطراف أخرى، ولما أوقف البريطانيون دعمهم سنة 1924، صمم ابن سعود استخدام الإخوان لفرض الطاعة على الحجاز.

كانت مسألة الاخوان تنطوي على تعقيدات دينية، وقبلية، وسياسية، وعسكرية، وزراعية، ومالية. وكان ابن سعود يدرك تماماً هذه التعقيدات والاعتبارات. لم يكن في وسعه إلا أن يرى كيف عامل القرآن البدو في قوله (98:9) والاعراب اشد كفراً ونفاقاً. وكمسلم حقيقي يعمل بهدي القرآن، كان ابن سعود معنياً كذلك بباقي الآيات التي تضمنتها السورة القرآنية:

"الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله والله عليم حكيم

"ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر وعليهم دائرة السوء والله سميع عليم. ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله"

هذه الآيات [ البينات ] تبدو وكأنها تضع الإطار العام الذي كان على ابن سعود ان يتعامل من خلاله مع مسألة الأخوان وبخاصة في الشأنين الديني والمالي. كان يشعر بواجب ديني دقيق بمعزل عن أي اعتبار آخر. بضرورة منع العديد من الممارسات الخاصة ببعض القبائل من التسرب إلى الدولة الجديدة. لقد كان يدرك عن قرب عقلية بدو نجد والاحساء وممارساتهم اليومية، ولكنه يدرك، في الآن نفسه، من موقع ثقافته الدينية العميقة، واحترامه العميق لكتاب الله ، مسؤلياته كإمام ديني مثلما هو زعيم سياسي لشعبه.

استمر والده إماماً على المستوى الرسمي، إلا أنه كان يرجع، عملياً، إلى ابن سعود وعلى نحو متزايد بوصفه الامام الفعلي. فهو الذي يرسل الدعاة إلى القبائل ينشرون مبادئ الشيخ وتعاليمه، ويتابعون مدى الالتزام بهذه المبادئ وحسن تطبيقها، فقد كان هناك بدو لا يؤدون الصلوات الخمس، وآخرون لا يصومون رمضان، أو لا يؤدون ذلك وفق الاصول على الاقل.

لا نعرف، تحديداً ، متى بدأت عملية إعادة البدو إلى الصراط الدقيق المستقيم. فالبعض يعود بهذا التاريخ إلى وقت مبكر، إلى سنة 1906، وبعض آخر يتأخر بها إلى سنة 1913. وكذا القول في جذور هذه الفكرة: فهناك غير تفسير: فأحد الكتاب الألمان، الذي التقى ابن سعود في الثلاثينات ينقل عنه أولاً أن وحياً جاءه في واحة جبرين، بعدما عاين عمالاً يحفرون عميقاً في الآبار، ومن دون تنفس تقريباً، ولا يدفعهم غير قوة إيمانهم، وأنه كان لجوهرة والدة محمد وخالد، ثانياً دور حاسم في مساعدته على تطوير فكرة الأخوان(1) وتحويلها إلى حركة منظمة يستحيل معرفة حقيقة الأمر تماماً. إلا أن ما نعرفه هو أنه، في حدود سنة 1910، كان نشاط الدعاة في نجد اكثر كثافة وفاعلية(2)، كما أنه من المقبول اعتبار سنة 1912 تاريخ التأسيس الفعلي لمستوطنة الاخوان الزراعية ( الهجرة) في أرتاويا.

كان موقع هذه المستوطنة على الطريق بين الكويت والرياض بمحاذات تجمعات من قبيلتي حرب ومطير، وربما أخذت نموذجاً لمستوطنات أخرى لاحقة احسن تنظيماً بلغ عددها المئات. كان أساس المستوطنة يقوم على فكرة الهجرة أي على نوع من الترك والمغادرة لنمط في الحياة، إلى نمط آخر مختلف. ومن الوجهة العملية، كان ذلك يعني ترك حياة البدو. توقف المستوطنون عن استخدام الرباط الذي يثبت غطاء الرأس [ او العقال ] وهو ملمح ما زال يميز احفادهم في العربية السعودية إلى اليوم. وكان للمستوطنة نمط عملها الذي يقوم على الزراعة ورعي المواشي، بالاضافة إلى شاغلهم الرئيسي وهو الحياة الدينية. ولكي يضمن ابن سعود الجانب الحياتي للمستوطنات، فقد

كان يقدم لهم الأرض ويدفع أكلاف البذور، كما يقدم إعانات مالية للدعاة والوعاظ. وهكذا جرى تشجيع حركة انشاء المستوطنات في نجد، التي ستغدو في السنوات الخمس اللاحقة قاعدة لتأمين القوى المقاتلة وتأمين سرعة تحريكها.
لقد كان ذلك عاملاً جديداً في تفكير ابن سعود. لم تكن المستوطنات وسيلة لتغيير حياة البدو في نشر كلمة الله ومد حدود سلطة آل سعود.
في القرن السابع للميلاد وبعيد وفاة الرسول، خرجت القبائل من شبه الجزيرة العربية، في خطوة لا سباق لها، لتبلغ في أقل من مئة عام مدينة تور ( في جنوب فرنسا) غرباً. وآسيا الصغرى شمالاً ووسط آسيا شرقاً. وقبل مئة عام من مولد ابن سعود، خرجت القبائل من جديد بقيادة آل سعود وبهدي من مبادئ العقائد الوهابية ليخلخلوا استقرارالسلطنة العثمانية وليصل نفوذ آل سعود إلى عمان والعراق وسوريا، وليسيطروا على المدينتين المقدستين مكة والمدينة. لكن ابن سعود كان يدرك أيضاً ان الامبراطورية الإسلامية السابقة، والإمارة السعودية _ الوهابية الشاسعة قد آلتا إلى زوال، وأحياناً إلى هلاك، فسعى جهد، بكل الوسائل أن لا يحدث ذلك من جديد.
وكما أننا لا نعرف،على وجه الدقة، تاريخ بدء انشاء المستوطنات، كذلك فنحن لا نعرف متى بدأت، لدى ابن سعود، فكرة تحويل المستوطنات الدينية إلى مستوطنات عسكرية. في وسعنا فقط أخذ العلم بالنتائج. فمن خلال انتشار المستوطنات في مختلف الأماكن الاستراتيجية في نجد، تحول الإخوان إلى قوة مقاتلة منيعة الجانب، قادرة على الجهوز والتحرك بسرعة قصوى، في ما يشبه قوات التدخل اليوم، دون أن يكون الاسم معروفاً من قبل بالتأكيد. لقد أغنى ذلك ابن سعود عن أكلاف انشاء جيش نظامي لا قبل له بتكاليفه. لقد كان يتحمل أكلاف إعانات معقولة، وهدايا إلى زعماء القبائل، وتقديم الأرض والبذور، وإرسال الدعاة وتقديم الأسلحة والتموين والإدارة وسواها من المشاكل العملاتية والشخصية التي يتطلبها الجيش النظامي.
في حدود سنة 1919، كان الإخوان قد تحولوا عند ابن سعود إلى قوة عسكرية يحسب لها حساب، إلا أنه، وبينما كانت فكرة المستوطنات تزداد نضوجاً ورسوخاً كانت المسألتان الاخريان حاضرتين بقوة في دائرة اهتمام ابن سعود وحركته، وهما: البريطانيون والمال.
يمكننا قبول احتمال ان يكون ابن سعود، بعد احتلاله للأحساء، قد ضاعف دخله السنوي. ونعود إلى هاري سانت جون فيلبي كشاهد ثقة في هذه النقطة ليقدم لنا صورة عن مداخيل ابن سعود في أيامه الأولى. فبالرغم من جميع اخطائه يبقي فيلبي اختصاصياً في الإدارة المالية والضرائبية، وهو يقدم لنا، في كتبه الأولى معطيات ومشاهدات كثيرة حول سبل ابن سعود وامكاناته المالية(3) يقدر فيلبي المدخول السنوي لابن سعود قبل احتلال الاحساء بـ 50000 جنيه استرليني، وأصبح هذا

المبلغ 100000 جنيه بعد الوصول إلى الاحساء وقبل دخول الحجاز: فقد كانت الاحساء مصدراً لرسوم تستوفى على نشاطات كثيرة مثل التجارة وملكية الأرض والزراعة وصادرات الفواكه، وقد سمحت هذه الرسوم بتلبية الحاجات المتزايدة لإدارته وعائلته.

ومنذ الآن، بدأت تتضح الاتجاهات العامة لسياسة ابن سعود في ادارة امواله. كانت احدى افكاره الرائدة فكرة أن "الجود لا يفقر" ولا معنى آخر لهذه الفكرة إلا ما نجده في مبادرات ابن سعود بتخصيص جزء كبير من موازنته لتوزيعها على زعماء القبائل لإرضائهم وتأمين حاجاتهم وكان ابن سعود في ذلك واضحاً تماماً. ففي غير مناسبة،كان ابن سعود يستضيف إلى مائدته اكثر من 500 شخص من البدو (كانوا يدعون له كما ينقل فيلبي "أنعم الله عليك يا ابا تركي"). وفي كل الأحوال، فقد كان ابن سعود يؤمن. كما ينقل الريحاني، انه مهما بلغ عسر اليد، "فان بعد العسر يسرا"، والأمل بالمستقبل كبير.

ومع ذلك، فيجب الا ننسى أن التقديمات تلك لم تكن مجانية ولم تذهب هباء، فقد كان يرد بمثلها في السلم وبأكثر منها في الحرب.

"إذا زرعت خيراً في السلم والبحبوحة، سأحصد ثمارها في الحرب والشدة. في السلم أعطي كثيراً حتى عباءتي أقدمها إلى المحتاج: إما في الحرب فأنا اطلب وشعبي يعطيني ما يملك(4)" ومع ايمان ابن سعود العميق بالله المعطي الذي يستعين به على المستقبل، فقد كان أمراً ملحاً، بالنسبة له، أن يسعى إلى تأمين قاعدة مالية ثابتة تلبي مصاريفه المتنامية كحاكم على أراض شاسعة، مع التزامات ومطلوبات تفوق سرعة تنامي مداخيله. لم يكن هناك مفر من طلب المساعدة المالية ولم يكن من جهة يتوجه إليها افضل من بريطانيا.

في وسعنا أن ندرك، وفق سجلات الكابتن شكسبير، مقدار إلحاح ابن سعود على إقامة علاقات رسمية مع بريطانيا. وكانت الأبحاث بينهما تتناول امكانيات مختلفة، من المساعدة المالية البسيطة، إلى وضع الحماية الرسمية. لكن شكسبير كان مزوداً على الدوام بتعليمات صارمة من لندن، وخصوصاً من مكتب الخارجية: انه يجب ألا يحدث ما يزعج الأتراك تحت أي ظرف من الظروف. فقد كانت بريطانيا، خلال العام 1913، منغمسة في محادثات مكثفة مع الأتراك بهدف الوصول إلى اتفاق رسمي لحل المسائل كافة العالقة بين البلدين في منطقة الخليج، على خلفية الاستقطاب الذي بدأ يتجه باوروبا نحو معسكرين متصادمين. كانت كل الجهود مبذولة لمنع سقوط تركيا في أحضان معسكر دول المحور: النمسا _هنغاريا وألمانيا. وبناء عليه كان الخط الذي رسمه مكتب الخارجية، ووفق تعبير مسؤول رفيع في مكتب الهند، كان هذا الخط يقوم على "التظاهر وكأن ابن سعود غير موجود" (5).

كانت هناك خلافات حادة في الرأي، بين مسؤولي مكتب الهند ومكتب الخارجية بحيث أن سكرتير الخارجية نفسه، سير ادوارد غراي، اضطر أن يتدخل في النقاش حول مسألة شبه الجزيرة العربية، بينما هو منهمك، ليل نهار، في معالجة تهديد الحرب الذي يدق ابواب اوروبا. وفي 18 ايار 1914، أي قبل ستة أسابيع من اغتيال الدوق فرديناند في سارايفو، كان غراي مجبراً أن يطبق القانون. وبحسب الاتفاق المعقود بين بريطانيا وتركيا (وهو بصيغة تفاهم لم يوقع وبطل تماماً مع قيام الحرب العالمية الأولى)، فان ابن سعود هو "ضمن الأراضي التركية، وخاضع لتركيا، ويجب ان يعامل كذلك. يجب اعتباره بمثابة موظف تركي ولا شيء سوى ذلك".

لم يتأخر ابن سعود كثيراً في فهم طبيعة الرسالة غير المباشرة التي نقلها إليه شكسبير. فعلى الرغم من عبارات شكسبير اللطيفة والمنمقة، فقد كان ملزماً، تطبيقاً لسياسة لندن الصارمة، أن يبقي كل اتصال ابن سعود في حده الأدنى، كما يجب ألا تلقى طموحاته في الاستقلال عن تركيا أي تشجيع. وبنتيجة ذلك وربما في اليوم نفسه الذي كان فيه غراي يصدر تحذيره الصارم بخصوص مسألة ابن سعود، كان الأتراك يوقعون اتفاقاً مع ابن سعود قرب الكويت.

ورغم نفي فيلبي (6)، وآخرين، لوجود مثل هذا الاتفاق، فان نسخة منه قد وجدت في البصرة بعد طرف الأتراك منها. ومن الواضح أنه، بعدما فشلت كل مساعي ابن سعود في التفاهم مع البريطانيين، لم يبق لديه الا التوقيع على اتفاق مع الأتراك اشتمل على النقاط التالية(7):

1 _ ابن سعود هو "والي نجد وأميرها".

2 _ يسمح بتمركز القوات والجندرمة التركية بأعداد محدودة وفي اماكن معينة.

3 _ يسمح برفع العلم التركي فوق المباني العامة ويسمح باستخدام مكاتب البريد التركي والطوابع التركية.

4_ يمتنع ابن سعود عن إقامة أي علاقات مع القوى الخارجية ويلتزم بالانضمام إلى القوات التركية في مقاومة أي عدوان.

لو نفذت هذه الاتفاقية، لكان ابن سعود موظفاً تركياً بالفعل. لكن الأحداث التي تلت تجاوزت الاتفاقية هذه، فلم تبصر النور. لقد أدى اندلاع الحرب، وتأييد الاتراك للجانب الالماني، إلى الغاء تلك الترتيبات. وقد دفع ابن سعود دفعاً إلى الاتفاق مع الاتراك كما لاحظ كوكس بعد انكشاف مشروع الاتفاق، وبفعل الموقف السلبي الدائم للحكومة البريطانية.

اما الآن، فقد باتت الحيطة واجبة. وبعد التطورات التي حدثت، بدا ابن سعود مصمماً على أن يكون موقفه منفتحاً ليتفاوض مع البريطانيين من هذا الموقع، محاولاً للحصول على أفضل الممكن. وإذ انضمت تركيا إلى جانب المانيا، فقد اصبحت بريطانيا اكثر تصميماً على حشد ما امكن من

الحلفاء، وجرى التقرب من ابن سعود وعلى نحو ثابت وسريع خصوصاً بعدما تبين ان ابن رشيد في حائل هو في صف الاتراك .

ومع ذلك، فقد، بدا واضحاً لشكسبير، بعد لقائه ابن سعود في اليوم الأخير من سنة 1914، أن ابن سعود يميل إلى التزام الحياد في الوقت الحاضر إلى ان يتحقق حصوله من بريطانيا على اتفاقية نهائية متفاوض عليها.

وهكذا بدأت المفاوضات بين الطرفين واستغرقت قرابة عام كامل، وانتهت إلى الاتفاقية الانجليزية _ السعودية التي وقعت في 26 كانون الأول 1905، وقعها كوكس وابن سعود. وبموجب هذه الاتفاقية اعترف البريطانيون بنجد والاحساء " ملكاً لابن سعود، كما كانت لآبائه من قبله"، ولاحفاده من بعده، مع التعهد بان هؤلاء لن يكونوا معادين لبريطانيا. التزمت بريطانيا، بموجب الاتفاقية، بتقديم العون لابن سعود في مواجهة أي اعتداء. وتعهد ابن سعود بالمقابل، بعدم الدخول في علاقة مع أي قوة خارجية، وبعدم التنازل او التخلي عن أي أرض بدون الموافقة البريطانية، وباتباع نصح بريطانيا عدم الإضرار بمصالحه. كما التزم ابن سعود اخيراً عدم القيام بأي اعتداء على محميات ومشيخات الخليج المرتبطة مع بريطانيا بمعاهدات حماية، وهو امر كان يقلق حكام ابو ظبي، وقطر، ومسقط، والكويت ودبي.

وتلقى ابن سعود، في مقابل هذه الاتفاقية (8)، قرضاً بعشرين الف جنيه استرليني، و1000 قطعة سلاح و 200000 وحدة ذخيرة، كما اتفق على مساعدة شهرية تبلغ خمسة آلاف جنيه.

كان للمساعدة البريطانية، بالمال والسلاح، أهميتها الخاصة لابن سعود، ليس في ما خص مجريات الحرب العامة القائمة، ودور ابن سعود فيها محدود وبسيط، وإنما، تحديداً، في مواجهة اعدائه الداخليين.

في سنتي 1915 و1916، كانت حراجة الموقف الداخلي لإبن سعود وكثرة أعدائه وتحدياته تقتضي تأهباً عسكرياً دائماً واستعداداً للقتال عند أي اشارة. فقد واجه مشاكل مع قبيلة عجمان، التي كانت في صف أعدائه على الدوام، وقبيلة مرة التي تمردت سنة 1915 بتدبير من ابناء عمومته، ومع الرشيديين في حائل، ومع امير الحجاز حسين بن علي، ورغم هذا فقد فوت ذلك كله، حيث استمر نجمه في صعود.

في قتلاه مع العجمان، كان على شفا كارثة وكادت تكلفه حياته، كما هي الحال في غالب مواجهاته. كانت علاقته ببني عجمان، ولفترة طويلة، علاقة سيئة بسبب روح الرفض التي ابدوها دائماً ضد حكم آل سعود، والتي قادتهم إلى التحالف مع العرايف، ابناء عم ابن سعود المنشقين.

اما ابن رشيد فقد اعاد الاتراك تسليحه وتجهيزه، وتحركت قواته من جديد ضد آل سعود، وفي مطلع

العام 1915، كان الجيشان يقومان بالمناورة تمهيداً للتمركز في منطقة زلفي (zilfi ) شمال الرياض.

كان الكابتن شكسبير قد انضم لابن سعود قبل فترة وجيزة، كما راينا، بتخويل هذه المرة من رؤسائه، أن يتفاوض معه بعيد إعلان بريطانيا الحرب على تركيا في الخامس من تشرين الأول. بقي شكسبير مع ابن سعود (9) فيما تحركت قواته، وتحركت في مواجهتها قوات خصمه، بينما الخيالة على وشك دفعها إلى الميدان. وكان لدى السعوديين أيضاً بضع قطع مدفعية كانت قد وقعت في قبضتهم في مناسبة سابقة، فوقف شكسبير قرب المدافع مرتدياً ثياباً كاكية ومعتمراً قبعته، يساعد في توجيه نيران المدفعية. وفي الرابع والعشرين من كانون الثاني 1915وفيما كان متوقعاً قيام العجمان بالهجوم على خيالة الرشيديين حول جرب، تلكأ هؤلاء، خيانة أو تقصيراً أو خوفاً، مما سمح لخيالة ابن رشيد باختراق خطوط السعوديين والانقضاض على قطع المدفعية، وكان بين القتلى الذين سقطوا بنتيجة هذا الاختراق والفوضى التي تلته شكسبير نفسه.

غضب ابن سعود أيما غضب لمقتل شكسبير، خصوصاً وأنه كان قد رجاه شخصياً، غير مرة، أن يترك ساحة المعركة حرصاً على سلامته. ويكتب ابن سعود بعد ذلك إلى كوكس معزياً ومعبراً عن: "أسفه العميق لخسارة صديق حميم ومخلص، راجياً حكومة صاحب الجلالة قبول اسفه وتعازيه" .(10)

ربما كان ضرورياً التوقف قليلاً عند حادثة الموت المفجع هذه، فهي لم تنته إلى تفاقم عدم ثقة ابن سعود، بالعجمان فحسب، بل استدعت غير ملاحظة وتعليق في الوثائق الرسمية المتعلقة بهذه المرحلة. وفي هذه المرحلة كذلك، ظهرت غرترود بل للمرة الأولى في حياة ابن سعود، حيث كانت مكلفة البحث والافادة حول مجموعة مسائل وزعامات قبلية. اكتسبت بل سمعتها من كونها تجيد العربية، كما أنها كانت قد زارت حائل واحتجزت لبعض الوقت عند الرشيديين، فجعلها ذلك كله على قدر من النفوذ في اوساط شلة الضباط المختصين التي تجمعت في القاهرة للتداول في مسائل الجزيرة العربية.

تورد بل في ملاحظاتها المرفوعة إلى هوغارت، مؤسس المكتب العربي في القاهرة، والذي غدا مصدراً لكل المعلومات المتعلقة بشبه الجزيرة العربية، تورد انطباعها حول حادثة مقتل شكسبير كما يلي:

"بعد مقتل شكسبير في اشتباك، كان تصرف ابن سعود تصرفاً سيئاً وخلق انطباعاً بانه شخص لا يمكن الوثوق به"(11)

ويأتي هذا الانطباع في الصفحة نفسها التي تضم ملاحظات لا علاقة لها بالموضوع، كقولها:

"وهو يتباهى انه تزوج 65مرة، بحيث تبقى الزوجة لثلاثة ايام تقريباً قبل ان يجري الطلاق...."

في مواجهة هذه التطورات والمشاكل، التي ازدادت حدتها سنة 1915، قرر ابن سعود الحد من الخسائر من خلال التوصل إلى تفاهم مع الرشيديين. وتم له ذلك أواسط سنة 1915، حين اقر الرشيديون بتقاسم مناطق النفوذ بين الرياض وحائل. فدخلت مناطق نفوذ ابن سعود قبائل مطير، وعتبة، ومرة، والمناصير، وبني هجير، وسباعي، وسهول، وقحطان، ودواسر، وعجمان(12).

ورغم وضع العجمان في معسكر ابن سعود وفق هذا الترتيب، فإنهم استمروا في مقاومة آل سعود بلا هوادة، وتمكنوا، بعد فترة قصيرة، من ايقاع ابن سعود في كمين أعد له بعناية في منطقة كنزان. فقد تحرك ابن سعود ليلاً نحو بقعة تجمع لهم بعدما أشعلوا نارهم فيها ليوهموا ابن سعود شقيقه سعود الذي رمي بالتهور، وفق بعض المصادر. وبمعزل عن السبب الفعلي، فقد اقترب ابن سعود من المخيم الوهمي وسقط في الفخ المنصوب له، فقتل سعد وأصيب ابن سعود إصابات مختلفة. إلا ان ابن سعود ووفق روايات المؤرخين، استمر يصدر أوامره بأعلى الصوت يستعيد ثقة قواته. وترسم الروايات صورة ابن سعود الجريح وله مع ذلك، كل الروح المعنوية العالية ليتحمل آلامه ويكمل قيادة قواته، بكل حضوره الجسدي والمعنوي القوي. ربما بدت الرواية مزينة قليلاً، الا انها ترد كذلك عند الزركلي، والذي له فضل آخر وهو تأريخه للمعركة سنة 1915 وليس سنة 1916، كما وردت خطأ عند بعض الكتاب من غير العرب.

وفي كل الأحوال، قاتل ابن سعود العجمان طوال شتاء 1915 _ 1916، ولم يتمكن منهم الا في ايلول 1916، وكان قد تلقى من البريطانيين القرض الذي مر ذكره بالإضافة إلى كمية غير ذات شأن من السلاح والذخيرة. وبعض تعقيدات هذا القتال لجوء بعض رجال القبائل إلى الكويت هرباً من بطش ابن سعود. وكان لابن سعود كما رأينا علاقة وثيقة جداً بمبارك غير انه رأى ان قيام مبارك بمنح اعدائه حق اللجوء هو عمل غير ودي. وإذا نم عن شيء فانما ينم عن الحسد والغيرة من قوة آل سعود المتنامية. ويربط بعض الكتاب بين هذا الموقف ومحاولة موازية لابن سعود بين مبارك وسالم، ابنه، ومهما يكن مقدار الحقيقة في ذلك فان الثابت أن مبارك كان في وارد دعم العجمان، وكان ذلك مثار استياء ابن سعود العميق: وفي الحقيقة فإن هذه التطورات مع خطوات أخرى، كإصرار السعوديين على استخدام مرافئهم بل مرفأ الكويت، للاستيراد، قد سممت الجو بين الجارين ولسنوات عدة.

وهكذا وبعد تمكن ابن سعود من حل مشكلة العجمان بالكثير من الدم والمال، فقد تحول إلى مشاكله الداخلية الأخرى،ومنها عودة الغزو بين قبائل نجد. وكان ذلك قد بدأ عملياً في أثناء الفترة الطويلة التي قضاها ابن سعود في شرق البلاد لمعالجة إشكال العجمان. ومع عودته إلى الرياض،

بدأت الأمور تتجه نحو الاستقرار بالقوة حيناً وبالحسن والاقناع حيناً آخر، وبخلاف الوسائل الدموية التي استخدمت مع العجمان، قدم ابن سعود لهذه القبائل عرضاً للمصالحة والتفاهم، شرط عدم العودة إلى الغزو، قبل هؤلاء العرض ودخلت الأمور في مرحلة استقرار، وهذا ما مكن ابن سعود من تلبية دعوة البريطانيين له لزيارة البصرة، فترك نجد أواخر سنة 1916 مع ما في الأمر من المخاطرة.

رأى البريطانيون انه من المناسب دعوة ابن سعود لحضور الاستعراض الامبراطوري في البصرة، وأنها فرصة له ليشاهد قوة التكنولوجيا الحربية الحديثة، ومن ضمنها الطائرات الحربة، وللتداول معه كذلك في الشؤون السياسية العربية، وتطورات الوضع الاستراتيجي العام، مع اقتراح قيام آل سعود بدور اكثر فاعلية في الحرب الدائرة مع تركيا. فالكتيب العسكري البريطاني، حول الوضع الحربي لسنة 1916، إنما يشير، وبكثير، من الشك، لا إلى غياب أي دور إيجابي سعودي نشط فحسب، بل يشير إلى ان ابن سعود يغمض عينيه عن عمليات تهريب الجمال والمؤن إلى الرشيديين في حائل ومنها إلى الأتراك في دمشق.

وهكذا غادر ابن سعود نجد إلى الكويت ثم إلى البصرة، في أول مغادرة له إلى بلد في الخارج، باستثناء البحرين والكويت، وسيكون في بعض نتائج الزيارة ان ابن سعود، مثله مثل شيخ الكويت، قد عاد بلقب سير الذي قلده إياه نائب الملك على الهند مع وسام الهند الإمبراطوري (kcie).كذلك فقد كانت الرحلة بالسيارة، وللمرة الاولى في حياته، اضافة إلى تصوير يده بالاشعة السينية (بنتيجة اصابة سابقة)، وكذا كان لقاؤه بالمس غرترود بل. والحقيقة أن بل قد تركت أثراً عنده يتضح ذلك من واقع العلاقة التي استمرت بينهما بعد ذلك، وأسهمت في لفت اهتمامه إلى مسائل مختلفة، ومن الدالة التي اظهرتها بحيث كانت تناديه "يا عبد العزيز". وكان ابن سعود، وفق ملاحظة كوكس، في منتهى الاحترام واللياقة وحسن التصرف مع مس بل: لكأنما كان طوال حياته على معرفة بالسيدات الاوروبيات."(13)

ونلجأ إلى غرترورد بل لتقدم أهم وصف او توثيق لحدث. زيارة ابن سعود للبصرة والذي غدا وثيقة رسمية. وفي رسالة منفصلة عن الوثيقة تقدم بل انطباعها الشخصي أزاء ردود الفعل عند ابن سعود حيال المشهد الذي استقبله او رآه في البصرة، فيقول:

"كان لنا يوم ممتع للغاية في صحبة ابن سعود، أحد أهم الشخصيات الفذة التي قابلتها، يسرك النظر إليه قامة تزيد عن الستة اقدام مع قدر عال من المهابة والاحترام. اصطحبناه في القطارات والسيارات، اريناه الطائرات، والمستشفيات والقواعد واشياء أخرى. وكان له عدد وافر من الاسئلة وتعليقات في منتهى الذكاء. انه رجل عظيم". (14)

ثم تعطي مس بل وصفها الشخصي الدقيق لابن سعود بعد ما أمكنها التعرف إليه عن قرب:
"ابن سعود هو الآن في حوالي الأربعين، مع انه يبدو أكبر من ذلك ببضع سنوات. بنيته الجسدية بنية رائعة، قامته تصل إلى اكثر من ستة اقدام، وتلوح في كل سكنة فيه شخصية القائد الذي اعتاد اصدار الاوامر. ورغم انه أكثر سمنة بقليل من صورة الشيخ البدوي التقليدي، فان فيه كل سمات المحتد العربي الأصيل: قسمات الوجه القوية، المنحنية، أنف ممتلئ شفاه بارزة، ذقن دقيقة تغطيها لحية حادة حسنة الترتيب. يداه لطيفتا المظهر مع أصابع رشيقة ... ورغم ارتفاع قامته واكتافه فهو يولد انطباعاً الارهاق ومن دون سبب ظاهر وهذا امر شائع في الصحراء. أما ثيابه التي يرتديها فانها رغم طابعها التقليدي فإنها تجسد مكانة عالية متوارثة تنم عن تأثيرات وإن صغيرة، قادمة من وراء الحدود. كذلك تضيف حركاته المتمهلة والحازمة وابتسامته الخفيفة ونظراته التي تكللها أجفان ثقيلة إلى مهابته سحراً شخصياً، ربما لم يتناسب مع المعايير الغربية للسلطة. ومع ذلك فهناك إجماع على ثبات سمات القوة هذه في شخصيته. وهو امر ليس بالشائع في الجزيرة ورغم أنه نشأ بين خيالة وسواس مهرة، فهناك اجماع على كونه خيال إبل ممتاز لا يبارى ولا يناله التعب. وكقائد لقوات نظامية، فهو يتحلى بشجاعة عالية، وهو يجمع إلى خصاله كجندي سمات رجل الدولة، وهو أمر تعرفه القبائل تماماً.
"ابن سعود هو في المألوف بين قلائل في جماعاتهم ولكنهم كثر عند العرب".
وفي الوثيقة عينها تصف غرترود بل كيف وقف ابن سعود وحاكم الكويت وحاكم المحمرة "جنباً إلى جنب، في كثير من الود يقدمون دعمهم لقضية بريطانيا." (15) بل إن ابن سعود ارتجل خطاباً تكلم فيه عما قام به العرب وخصوصاً حسين بن علي، الذي كان قد أعلن الثورة العربية ضد الأتراك سنة 1916، وأعلن نفسه ملكاً على العرب. ومن الواضح أن ابن سعود ورغم سوء علاقته بحسين بن علي، فقد اراد من ذلك إرضاء مضيفيه البريطانيين.
كان لأمير مكة اتصالات بالبريطانيين تعود إلى سنة 1914، فمن خلال ابنه عبد الله تداول الشريف حسين مع كرتشنر، المعتمد البريطاني في مصر، في امكانية تنظيم تحرك معاد للأتراك. ورغم ان شيئاً فورياً لم ينتج عند هذه الاتصالات، فان البريطانيين كانوا يعلمون بلا شك، بوجود خلايا سرية للقوميين العرب، خلايا مدينة وعسكرية، في قلب ما ظهر انه جمعيات مثل "العهد" وغيرها، ثم باتت الحاجة إلى مثل هذا التحرك أكثر الحاحاً بعد الهزيمة الكارثة التي مني بها الحلفاء بنتيجة حملة غاليبولي (من نيسان 1915 إلى تشرين الثاني 1916). وتبدد الامل بشل قوات المحور على الجبهة الشرقية في الوقت الذي كان فيه متعذراً النفاد من الجبهة الغربية، لقد غدا واضحاً الآن أن أي عمل يراد تحقيقه على الجبهة الشرقية يجب أن يأخذ في الاعتبار تكتيكات

حروب العصابات، بالاضافة إلى الضغط العسكري النظامي الذي كان يجري التحضير له في البصرة لانتزاع بغداد من الاتراك.

لقد بينت ان قسماً كبيراً من القوات العثمانية التي حاربت الحلفاء في غاليبولي إنما كانوا من العرب، الذين كانوا يؤدون واجبهم كمسلمين في صفوف قوات السلطنة العثمانية، ان المطلوب دون ابطاء وبكل الوسائل نزع ولاء هؤلاء الضباط والجنود. وبدأ الاهتمام بالقاهرة من جديد باحياء الاتصالات مع حسين بن علي، والتركيز عليه بوصفه زعيماً متحدراً من نسب النبي، ويجمع بذلك الشروط العربية والاسلامية معاً كما أن ضم الهاشميين إلى الحلفاء سيؤدي إلى مزيد من الولاء الثابت من القبائل الإسلامية في صفوف القوات الهندية. لقد راقب البريطانيون، منذ بداية الحرب العالمية الاولى، وعن حق، احتمال تسرب عملاء تركيا واستقطابهم تأييد المسلمين كافة للسلطان التركي والذي كان، ورغم تفاوت التأييد له، خليفة لكل المسلمين بدون منازع، فهل ينتزع الخليفة التركي على سبيل المثال، ولاء القوات المسلمة في الجيش الهندي؟ ولا ننسى ان هؤلاء كانا قد خاضوا قبل ستين عاماً تمرداً واسعاً ضد الحكم البريطاني، فهل يقنعهم الخليفة بأنهم مجرد أسلحة أمامية يستخدمهم المسيحيون ضد ابناء دينهم ومعتقدهم؟ لقد كان ذلك كابوساً يقلق البريطانيين الذين خشوا لا خسارة طاقات بشرية في العراق والجبهات الغربية وتعاظم قوة الأتراك بهم فحسب، بل خشوا، في المقام الأول، ان يؤدي نجاح الخطة التركية إلى اضطراب الوضع في الهند تحدياً وان تنشغل القوات البريطانية بمشاكل إضافية، وبنتيجة هذه الحسابات، أعطي المعتمد البريطاني في مصرن سير هنري مكماهون، تعليمات عاجلة بأن يتفاوض مع حسين بن علي لجلبه إلى صفوف الحلفاء. واستمر تبادل الأفكار بينهما فترة من الزمن، حول حدود الدعم لبريطانيا وشكله، وحول ما يتعلق بوضع فلسطين. والمهم أن الضمانات التي اعطيت كانت كافية لاقناع حسين بن علي بدخوله إلى جانب الحلفاء. وبدءاً من بريطانيا: ذهباً وأسلحة وذخائر ومستشارين وعتاداً عسكرياً. ثم نصب حسين بن علي نفسه "ملكاً للعرب"، قاطعاً الطريق نهائياً على أي امكانية لقيام تعاون بين ابن سعود والهاشميين.

فقد كانت بضعة اتصالات بين ابن سعود وعبد الله من ابن سعود ايضاح موقفه النهائي من البريطانيين والأتراك. وكان ابن سعود، في هذه الفترة، يحارب من اجل البقاء عبر كل السبل ومن ضمنها التفاوض، لعقد اتفاقية حماية مع بريطانيا. فرد ابن سعود على عبد الله راجياً وضع حد لطلباته المتكررة لإيضاح موقفه. وتبع ذلك قيام عبد الله بما اعتبره ابن سعود عملاً عدوانياً تماماً (16)، وذلك حين قاد قوة هاشمية إلى نجد الغربية: في تكرار لعملية 1910 حين هزم الهاشميون قوات ابن سعود واسروا شقيقه سعد وفي ايلول 1916، كان ابن سعود يكتب إلى كوكس يوضح له

انه ليس راغباً في قتال حسين بنعلي، وانه انما يفعل ذلك احتراماً لرغبة البريطانيين في ان تنصب كل الجهود لطرد الأتراك.

وتتضح الطبيعة الحقيقية للعلاقات بين ابن سعود وحسين بن علي من خلال تبادل للرسائل بينهما سنة 1916، قبيل تلبية ابن سعود دعوة البريطانيين لزيارة البصرة. فقد كتب ابن سعود لحسين بن علي يسأله، بحذر شديد،عن نوع الضمانات التي يمكن ان يقدمها لحكمه قبل الإقدام على التحالف مع الهاشميين. لكن ابن سعود لم يتلق إلا مهيناً وذلك حين اعتبر حسين أن مثل هذه الرسالة لا يمكن ان يكتبها الا شخص "فاقد العقل" بل ان حسين، ومن قبيل عدم الاكتراث، أعاد رسالة ابن سعود مع عبارة: " إلى ان تستطيع ان تفكر ملياً في ما كتبته إلينا".

لم يكن ابن سعود متهوراً في يوم من الأيام، وكان مبدأه "لا تفقد أعصابك، بل تمهل" لقد كان يدرك، على الدوام، حدود إمكاناته والخيارات المتاحة له وهكذا لم يكن من المفيد في شيء، في مثل هذا المواقف، إظهار الغضب أو القيام بعمل طائش ضد حسين بن علي: كان يعنيه فقط عدم إغضاب البريطانيين وتأمين بقاء حكمه. فقد وقع اتفاقية معهم، وهو يتلقى مساعدتهم. ثم إنه قد أخمد قلاقل العجمان وبني مرة، وأخضع العرايف وعلى رأسهم سعود الكبير. وعلى ذلك، فمن الضروري التوقف، لبعض الوقت، لتأمين الاستقرار، وفي ما خص الاحتجاجات العسكرية للبريطانيين فان قدراً من الحياد الايجابي يبدو كافياً.

وسلبية جبهة ابن سعود لم تكن خافية على دلهي ولندن والقاهرة،وكان هناك اتصالات ونقاشات حول السبل المطلوبة لجعل ابن سعود يتخذ موقفاً أكثر فاعلية واستقر الرأي على أن أفضل دور يمكن لإبن سعود أن يؤديه هو حصر خطر الرشيديين، حلفاء الأتراك، والذين مازالوا في موقع يهدد التحضيرات الجارية للتقدم من البصرة إلى بغداد. يجب تشجيع ابن سعود على التقدم إلى حائل واجتثاث خطر ابن رشيد، ومن أجل تحقيق ذلك، توجه ستورز إلى الرياض (مع العلم ان ستورز هذا هو الذي سيغدوا أول حاكم عسكري بريطاني على القدس، او خليفة بيلاطس البنطي، على حد تعبيره). الا أنه قد حدث ما لم يكن في الحسبان: ذلك أنه بينما كان ستورز يشق طريقه في الصحراء نحو الرياض أصابته ضربة شمس حادة فتوقفت المهمة. وكان من نتائج هذه الحادثة غير المتوقعة أن يتعرف ابن سعود على هـ. س. ب فيلبي (philby) الذي أرسله كوكس إلى الرياض بدلاً من ستورز.

وفي تشرين الثاني1917، غدا اتخاذ ابن سعود موقفاً اكثر فاعلية أمراً ملحاً للسلطات البريطانية العسكرية والسياسية. فبعيداً عن واقع أن الأتراك ما زالوا يحتلون المدينة، رغم جهود لورنس بنسف سكة حديد الحجاز واحتلاله العقبة، فقد كان هناك خطر آت من روسيا هذه المرة. وتجسد ذلك في

خروج روسيا من قوى التحالف بعد كوارث 1916 ونجات ثورة شباط 1917، ثم وصول البولشفيك إلى السلطة بعد انقلاب اول تشرين الثاني 1917، كان فيلبي قد تلقى توجيهات محددة من كوكس تتعلق بمهمته في الرياض. إلا أنه، وبعيد وصوله تجاهلها تماماً ليترك ذلك آثاراً بعيدة على نوع عمله هو كما على ابن سعود نفسه.

استقر فيلبي في الرياض لبعض الوقت، بعد تنحي هاميلتون، الضابط البريطاني الذي رفض ان يتاح لضابط أقل منه رتبة ان يختلي بابن سعود في جلسات طويلة على انفراد، الأمر الذي أتاح لفيلبي أن يحكم بثقة ودقة على شخصية ابن سعود وأن يقنع به البريطانيين طيلة السنوات التي قضاها في خدمة الحكومة البريطانية. لقد كان واضحاً له كالبلور، ابن سعود هو بطبيعته أكثر أهمية من أي زعيم عربي آخر وحتى من حسين بن علي. وفي خلال سنتين فقط، كانت لندن تتخلى تدريجاً عن تقييمها الأول السامي لحسين بن علي، وظهر هذا التحول جلياً في موقفها من الصراع الذي اندلع بين الهاشميين والوهابيين في منطقة كرما _ ترابا، على الحدود النجدية الحجازية. وفي اثناء ذلك، كان فيلبي يزداد توسعاً وتعمقاً في ابحاثه ودراساته للغة العربية للانساب، للجغرافيا، وللمسائل المسائل المحلية المالية والشخصية. وبسبب من هذا الاستقرار الطويل، نسبياً، لفيلبي في الرياض أمكن الحصول على اول وصف تفصيلي لابن سعود في محيطه الطبيعي هو الوصف الذي صدر بعد ذلك بعنوان "قلب الجزيرة العربية".

ورغم أن عربية فيلبي كانت ضعيفة في البدء، كما لاحظ عدد من السعوديين الذين عرفوه، مما تسبب بالكثير من سوء الفهم للنقاشات التي كانت تجري في مجالس ابن سعود، فقد كان له، مع ذلكن فضل المرونة في اكتساب اللغات والاستعداد لاتقان العربية بكل وسيلة ممكنة وبدون كلل. فبعيد وصوله إلى البصرة قادماً من الهند، قرأ الانجيل بالعربية، وانخرط في كل نقاش ممكن بالعربية ومع افراد من سائر الطبقات، وكان من نتيجة هذه الخبرات أن صدرت بالانجليزية، في مطلع سنة 1918، أول وثيقة تسجل بالتفصيل المحادثات الشخصية الطويلة التي دارت، باللغة العربية بين فيلبي وابن سعود، وهي أول وثيقة تفصيلية بالانجليزية لشاهد عيان موثوق حول وضع ابن سعود في مطلع سنة 1918.

ويشير فيلبي بكثير من التدقيق إلى موقع ابن سعود كوريث للدولة السعودية السابقة، والى موقعه بين آل سعود: "كنت أشعر دائماً أن في قعر جمجمته كابوساً تاريخياً يؤرقه باستمرار ويتصل بالمحتد الملكي.لم يكن في وسع ابن سعود، ولا في وسع أي من افراد اسرته نسيان الماضي الذي يمكن ان يعيد في أي لحظة في المستقبل .....وحده ابن سعود كان يقف بين حدي النظام والفوضى".

ويصف ابن سعود الجو الفريد للرياض في هذه الفترة فيقول: "امامنا وسط طيات الوادي الرمادي" وفي حين أن بعثته تدخل الرياض، "تنتشر رقعة زمردية خضراء. انها جنائن الرياض والابراج الطينية للواهبين ترتفع فوق مظلة من النخيل وطوال الطريق، كان سكون فظيع مذهل، ولا شيء الان، ولكن "فجأة دبت الحركة كأوراق الشجر شجر عبثت بها الريح ففتحت البوابات، فاذا الحياة مستمرة دون توقف بعد ما ظن أنها ميتة".

ثم يصف لنا كيف التقى ابن سعود لأول مرة، ومن دون ان يعرف أنه ابن سعود. وكيف استقبل عبد الرحمن والد ابن سعود البعثة بكثير من الترحيب والود. ثم يصف كيف كان يشد انتباه جميع الحاضرين "رجل كهل ذو ملامح حادة وعليه أمارات الشجاعة، ذو عينين لامعتين، في حين أن ابن سعود نفسه تابع في زاوية بعيدة، خاشعاً، يؤدي مناسك الطاعة لله" وعندما يأتي إلى وصف ابن سعود نفسه، يؤكد فيلبي على الميزة الأكثر أهمية فيه وهي: أنه رجل عملي وقوي.ابن سعود رجل "ذو طاقة فذة لا تعرف الوهن، وشؤون الدولة عنده فوق كل اعتبار" . وإلى ذلك، فما نعرفه عن ابن سعود في هذه المرحلة هو انه لم يكن لينام اكثر من اربع ساعات في الليل ويرتاح ساعتين أخريين اثناء النهار.

ويسجل فيلبي، بكثير من الانتباه والتفصيل، علاقات ابن سعود مع افراد أسرته. وفيلبي نفسه التقى عدداً من أفراد الأسرة الآخرين: ابنه الأكبر تركي وكان عمره 19 عاماً وهو مقاتل، كما يقول هو عن نفسه منذ الثامنة من عمره،الابنان الأصغران محمد وخالد، الذي غدا ملكاً بعد حين، ابناء أخيه سعد الذي سقط في معركة، والذين رعاهم عبد العزيز بزواجه من والدتهم وكانوا بمثابة اولاد له. والتقى كذلك شقيق ابن سعود، من غير أمه، عبد الله بن عبد الرحمن الذي غدا أقرب مستشاريه إليه، واحمد بن ثنيان، حفيد فرع من آل سعود، كان على معرفة أوسع بالعالم الخارجي وهو عبد الله الدملجي من الموصل، مجاز في الطب، ويلم بالفرنسية، واصبح وزيراً للشؤون الخارجية عند ابن سعود في فترة لاحقة.

أدرك فيلبي الصعوبات التي يواجهها ابن سعود في غير اتجاه، وخصوصاً ما يعود منها إلى العلاقة بالبريطانيين. فقد قرأ ابن سعود على فيلبي رسالة تلقاها من احد مواطنيه يحذره فيها من الأهداف الأنانية للبريطانيين وبانهم "سيمزقونه إرباً إرباً حين يكون في ذلك مصلحة لهم".

وفي منطقة تعلب المصاهرة فيها دوراً في السياسة كما في الحرب، لا يخفي ابن سعود حقيقة زواجه بنساء كثيرات من قبائل مختلفة، وضمن حدود الشرع، ولم يكن خجلاً من ذلك قط: "لقد تزوجت في حياتي خمساً وسبعين امرأة، ولن اتأخر عن ذلك مستقبلاً ان شاء الله. فانا مازلت شاباً وقوياً" بل ان ابن سعود يشرح لفيلبي ترتيبات اتمام الزواج من زوجة بينما هو في رحلة او في مخيم

خارج الرياض، فيبعث برسالة إلى الرياض يطلق فيها احدى زوجاته كي يبقى على اربع فقط وفق ما سمح به الشرع.

واستمع فيلبي من ابن سعود عن فوائد سياسة "المصاهرة" مع القبائل لكن ابن سعود كان صريحاً أيضاً ومن باب الطرافة كيف ان بعض الترتيبات كانت تذهب هباء. ففي واحدة من هذه المناسبات بعث برسالة يطلق فيها واحدة من زوجاته وهو بعيد عن الرياض ليكتشف بعد إتمام عقد الزواج الجديد أن العروس الجديدة هي شقيقة زوجة له، شقيقة ام اكبر ابنائه تركي.وأفزعته المفاجأة لمخالفتها الصريحة للشرع الإسلامي، فأبطل العقد.

كذلك فان ما نعرفه في هذه الفترة عن الحجم الفعلي لاسرة ابن سعود الكبيرة هو قليل جداً وحسب فيلبي، فان شقيقته نورا هي واحدة من 16 شقيقة كانت له، أي بنات عبد الرحمن.

اما محادثاته مع ابن سعود، فهو قد صرف وفق حساباته أكثر من 34 ساعة من المحادثات الشخصية غير الرسمية، بالإضافة إلى اللقاءات الرسمية الأخرى، وذلك أثناء اقامته في الرياض ممثلاُ رسمياً للحكومة البريطانية. وكان عليه، كذلك، إيجاد الصيغ والتفسيرات الملائمة ليعبر بها لابن سعود عن التعليمات التي يملكها، ولم يكن ذلك لفيلبي، بالتأكيد، أول أو اخر انجاز له .

وفي وقت ما، اقترح فيلبي على ابن سعود ان يأذن له بعبور شبه الجزيرة من الشرق إلى الغرب للاتصال بحسين بن علي، لأن جزءاً من مزاعم حسين كان يذهب إلى انه لن يسمح بعبور المثلين البريطانيين في الاتجاه الآخر، بحجة انه لا يستطيع ضمان حياة هؤلاء اذا عبروا إلى أراضي آل سعود حيث البدو قد جعلوا الحياة غير آمنة ولا تطاق.

قبل ابن سعود اقتراح فيلبي، فغادر إلى الحجاز التي وصلها سالماً آمناً. صعق حسين للدليل الذي جاءه ليثبت أن أراضي ابن سعود آمنة أو أن أمنها هو، على الاقل، كأمن أراضيه هو نفسه لكن حسين رد الصاع بعدم السماح لفيلبي بالعودة من الطريق نفسها التي جاء عبرها.

فاضطر فيلبي أن يعود إلى الرياض عبر القاهرة فبومباي فالبصرة، وليلتقي ابن سعود ثانية في ربيع 1918، وفي مسعى نحو تطبيع العلاقات الهاشمية _ السعودية والذي كان البريطانيون يسعون إلى انجازه، ومن دون خدماته هذه المرة. فهو لم يثر غضب حسين بعبوره شبه الجزيرة فحسب، بل بمحادثاته غير الودية معه كذلك، حيث قال ما حلا له. وحجته: أنه لن يتاح له دائماً دفع ملك إلى الجنون. وكان هوغارت، مؤسس المكتب العربي، قد قدم إلى جدة للتحادث مع حسين بطريقة أكثر جدية في ضوء الوضع المستجد بعد احتلال القدس والتقدم المحتمل نحو دمشق. فكان على هوغارت أن يمنع فيلبي من حضور محادثاته مع الشريف حسين.

عمل فيلبي، في لقائه الثاني بابن سعود، على مساعدته في دخول حائل. غير أنه كان لديه الوقت الكافي كذلك ليسجل ملاحظات كثيرة وحوادث كثيرة تتيح فهماً أفضل لوضع ابن سعود.
أول حوادث فيلبي هو رفض احد الإخوان مرافقته لأنه كافر (غير مؤمن). وجعل الرجل بعد ذلك يختبئ عند ابن الجلوي خوفاً من غضب ابن سعود بعد سماعه ما حدث ثم ينقل في مابين الأسى والنجوى قول ابن سعود: "حذار، انت انظر إلى ما أرتدي لا إلى ما آكل، كلها من بلاد الانجليز. كيف تجرؤ إذن على افسادها؟ إذهب فلولا جراح ابن الجلوي لكنت الآن ميتاً !"
وفي حديث آخر ينقل فيلبي عن ابن سعود انه لن يتزوج امرأة شيعية او امرأة من مكة. وفي محادثة خاصة يعترف ابن سعود بكرهه لليهود. وهو يؤكد كذلك الموقف الوهابي من أهل مكة بوصفهم بقايا قومن ضالين مشركين. وفي مسائل الحياة اليومية العملية يتحدث فيلبي مع ابن سعود مطولاً حول الطرق وسكك الحديد، وتطوير موارد البلاد الطبيعية والمعدنية، وعندما طرح موضوع الهجوم على حائل اشتم من اجابة ابن سعود أنه يفضل العمل السياسي على العمل العسكري وذلك بقوله:
"طالما زعزعت مركز آل رشيد بالسياسة". والسياسة تترجم إلى الانجليزية عادة كمرادف (politics) الا انها اكثر التصاقاً بسبل المناورة والحيلة والحرب النفسية.
وينقل فيلبي، في مناسبة أخرى، سمة لابن سعود الذي يخبره ان "معيار آل سعود بات اكثر مرونة الآن" إذ انه سيأخذ عروساً من فرع الدامر من قبيلة العجمان. وبدأت احتفالات الزفاف، لكن ابن سعود أخر إتمام المراسم بسبب ضغط العمل، فقد كان يملي بين التاسعة والعاشرة والنصف ليلاً رسالتين بموضوعين مختلفين على أميني سره بطريقة منهجية كاملة ومن دون تداخل بينهما او اضاعة خيط واحد منهما بشهادة فيلبي الذي كان قد استدعي إلى خيمة ابن سعود.وما ان فرغ من الرسالتين حتى احتج. فيلبي في محادثة استمرت حتى الحادية عشرة والنصف ليلاً وقبل ان يذهب إلى عروسه. ويؤكد فيلبي وفقاً لقول ثقاة ان ابن سعود غادر مخيمة عند الساعة الثانية فجراً، بل ينقل ان ابن سعود قد اخبره لاحقاً ان العروس لم تسره وانه سيطلقها.وبعد ذلك غادر فيلبي عائداً إلى الرياض في حاشية ابن سعود، حيث قضى فيها ثلاثة اسابيع، حتى السادس من ايار 1918. ثم كان له محادثات أخرى في القصر مع ابن سعود حيث لاحظ مقدار عناية ابن سعود بأمنه الشخصي. " فابن سعود" كما يقول خادم سوداني "لا يثق باحد عدا عبيد القصر حيث إخلاصهم هو فوق كل شك"

اما مسألة حذر ابن سعود واهتمامه الشخصي بمسائل الأمن والتجسس، فيسجل فيلبي شيئاً منها وذلك حين سمع ابن سعود أن أحد الدراويش يجول في الرياض، فشك في الأمر وأمر باحتجاز الرجل الذي اعترف لاحقاً انه يعمل جاسوساً لمصلحة الأتراك.

اما حساسيته في متابعة المسائل فتظهر، كما يسجل فيلبي، حين فاتحه مرة أخرى، وبالحاح، في موضوع الهجوم على حائل، فما كان من ابن سعود الا أن قال بصوت عال، ولكن بلطف: إنه اذا حان الوقت المناسب للهجوم على حائل، فانه سيعلن نواياه على الملأ، وكي يكون هناك متسع من الوقت للعناصر الصديقة للتنحي جانباً.

كذلك أتيح لفيلبي ان يدرس، وعن قرب نوع مقاربة ابن سعود لمسائل المال والمداخيل.وقد بدا واضحاً ان ابن سعود "هو وزير المالية وانه يشرف شخصياً على مصروفات الخزينة في كل شاردة وواردة".

ويسجل فيلبي، في هذا الباب، ذكاء ابن سعود في عملية تحصيل الضرائب. ويورد واقعة مضمونها: أنه في حين ان المفروض والمعلن تحصيل ضريبة تقدر بـ 25% على الذرة والبلح، فهو لم ينفذ علمياً الا ضريبة صغيرة لم تتجاوز الـ 5% وهذا بعض من ساسته في كسب المزيد من الاصدقاء. "منذ سنوات وأنا اطبق كل ما عندي من دبلوماسية لجذب أعدائي إلى صفوفي، ولقد بدأت جهودي تؤتي ثمارها". كان ابن سعود يدرك، في مجال آخر، الحاجة إلى تعبئة قواته فيما لو كان عليه مهاجمة حائل، وقد أسر بخططه إلى فيلبي في كيفية العمل على التعبئة المعنوية لجيشه الجديد المشكل اساساً من الاخوان:

"لقد أحضرت تجمعات كبرى من الإخوان ولبضعة ايام فقط، ولذلك علي ان أشرح لهم المسائل، وأن أعمل على رفع حماستهم إلى درجة عالية لتحضير للهجوم على حائل". ورغم هذا، ظل ابن سعود على تحفظه في مسألة اتخاذ قرار الهجوم على حائل.وكان صريحاً جداً مع ممثل الحكومة البريطانية حين قال له: " أريد أن اتأكد أنه، إذا دارت عجلة الموت، فان الحكومة البريطانية لن تنسحب وتوقف دعمها لي".

واخيراً وفي ايلول 1918، اتخذ ابن سعود قراره بالهجوم على حائل، لكن المشروع انتهى إلى الاخفاق، ان لم يكن إلى مزحة. لم يسمح ابن سعود لفيلبي ان يرافق قيادته العسكرية إلى آخر الطريق، ولاسباب لا يمكن تخمينها الا انها لا تخرج عن كون ابن سعود لا يريد مقتل ممثل آخر لحكومة جلالته في معارك القبائل.

ومن العوامل الطريفة التي أدت إلى فشل الهجوم: أنه وبعد أن أسر الاخوان وأحد قادتهم فيصل بن دويش، قبل حائل، " 2000 جمل وعدداً لا يحصى من الغنم" امتنعوا عن الاستمرار في التقدم، معلنين ان لا خلاف بينهم وبين الرشيديين، وانه قد حان وقت العودة إلى الديار.

وتقبل ابن سعود الأمر، وسط دهشة فيلبي، بالكثير من الهدوء والواقعية، الا أنه كان مراً في صراحته مع فيلبي حين قال له: "تذكر، اننا نحارب ابن رشيد من اجلك انت فقط اما نحن فليس لدينا ضده أي دعوى او تهمة .... ان العدو الحقيقي لنجد العليا والسفلى، هو الشريف، أي حسين بن علي.

وتشاء الاقدار ان يكون فيلبي شاهداً على المرارة المتزايدة في العلاقة بين الهاشميين وابن سعود. فبينما كان فيلبي ينتظر أخبار حملة ابن سعود، عرج على عنيزة، ثم انضم إليه ابن سعود بعد ما انتهى المشهد الذي رأيناه. ونقل أبناء قبلة عتيبة إلى ابن سعود موقف حسين بن علي:

"إذا سلمت له كامل نجد فهو لن يصفح، واذا تخليت له عن كل نسائك واولادك ورجالك فهو لن يصفح. فاما تبديل المعتقد او الهلاك"(17).

وصلت العلاقات بين جدة والرياض الآن إلى نقطة متفجرة. وفي اثنا ذلك كان فيلبي يعود إلى الرياض مع ابن سعود ليجد تعليمات جديدة بانتظاره. فقد عاد كوكس من لندن مزوداً بتقييم استراتيجي مختلف للموقف، اذ لم يعد هناك من حاجة لدور فاعل يؤديه ابن سعود في وسط الجزيرة العربية.كذلك كان عليه ان يتبلغ إخفاقه في الحصول على 1000 بندقية وذخائرها التي كان قد وعد بها:

"كيف لهم، بعد ذلك، ان يثقوا بك؟ لم ارغب بمهاجمة حائل وانتم ضغطتم علي من أجل ذك، والآن تطلب مني التوقف. وانت تريد الآن ان تزودني، على مرأى من شعبي، باسلحة لا قيمة لها"!

"ورد فيلبي في منتهى الصراحة: لم يكن عندي ساق لاقف عليها، لم يكن عندي جواب".

وقبيل مغادرة فيلبي إلى الخليج، عقد معه ابن سعود افطارعمل بين فيه موقفه بوضوح:

"انا غاضب من اجل شعبي الآن. لقد وقفت ضد ميولهم الطبيعية، محاولاً اقناعهم ان صداقة البريطانيين هي لمصلحتهم تماماً. ولكن ماذا في وسعي ان اقول لهم الآن".

ما سيقوله ابن سعود لشعبه سيتضح بعد قليل، كما يمكن استنتاج منحى تفكيره الآن من ملاحظة لفيلبي ليلة مغادرته:

"هي مسؤولية الشريف في هذه العاصفة التي تهب علي، لقد خدع حكام مصر، واذا استمرت حكومتك بمعاملتي هكذا، لا لشيء انما لترضيه، فليس امامي غير مهاجمته".

تحركت الحكومة البريطانية بهدوء لتسوية المسألة وتهدئة ابن سعود، وذلك من خلال دعوته لزيارة لندن، في جملة الدعوات التي وجهتها إلى حلفائها في الحرب، وهي دعوة ستكتسب جديتها بعد ما تجاوز الصراع بين الهاشميين وقوات ابن سعود حدود المناوشات وليبلغ حد المعركة الكاملة، حيث تعرضت قوات حسين ابن علي لمجزرة كبرى.

وقع الالتحام بين الطرفين في تراب على الحدود بين نجد والحجاز، واشترك فيها كل القادة العسكريين في الجانب الهاشمي وصولاً إلى عبد الله بن حسين نفسه، الذي اصبح فيما بعد ملكاً للاردن. كانت المنطقة المحيطة ببلدة كرما قرب ترابا موضع نزاع منذ ان خلع حسين بن علي امير المنطقة خالد بن لؤي عن مركزه لاتباعه عقائد الشيخ. في ايار 1919 وصل عبد الله إلى المنطقة على رأس قوة من 5000 رجل مدعومين برشاشات ومدافع ميدان. وزاد الطين بلة إعلان عبد الله ان هدفه ليس كرما وترابا. هدفه مع اقتراب شهر الصوم، أن يعيد في قلب نجد.

واستدعى هذا الاعلان المتكبر رداً حاسماً وسريعاً من ابن سعود: فقد أمر قوة إخوان عتيبة ان يتحركوا من مستوطنتهم في "غوت غوت" إلى ترابا.

قطع الاخوان مسافة الثلاثمائة ميل في سرعة قصوى وتقدموا ليلاً إلى معسكر الهاشميين. فانقضوا على المخيم الغارق في النوم، قبيل الفجر، وذبحوا كل من وصلت إليه ايديهم، ونجا عبد الله نفسه بثياب النوم متخفياً في زي آخر. وللمرة الاولى كانت صرخة الحرب عند الاخوان مسموعة: "ان رياح الجنة تهب، فمن يبتغيها!" وللمرة الاولى في حياة ابن سعود يظهر على أرض الواقع مقدار القوة التي يبعثها الايمان المطلق.

اعتذر ابن سعود عن عدم تلبيته الدعوة لزيارة لندن: لأن الوضع داخل بلاده وحولها مازال مضطرباً وقلقاً جدأ، فأناب عنه فيصل وعمره يومذاك 14 سنة. كما رتب مرافقة احمد بن ثنيان له كمستشار سياسي، وليدخل نيابة عنه في مباحثات مع الحكومة البريطانية . كما ارسل ابن سعود معهما تاجراً نجدياً معروفاً هو عبد الله القصيبي ليحاول استيراد التكنولوجيا الحديثة، ومن ضمنها السيارات، إلى نجد. كان وصف زيارة فيصل إلى لندن وصفاً مسهباً، على الدوام، وكان في ذلك بالتأكيد الكثير من الفائدة له. فبالرغم من البداية المتعثرة للزيارة، بسبب إخفاق الحكومة البريطانية بإعداد الاستقبال اللائق. الأمر الذي استدعى التدخل الشخصي للملك جورج الخامس شخصياً لتدارك الموقف بدعوة فيصل والوفد إلى قصر بكنغهام، بالرغم من ذلك إذن، كان لفيصل دخول إلى العالم الغربي بعد الحرب العالمية الاولى ومن الباب الواسع. فبالاضافة إلى لندن، كان لفيصل زيارات إلى مؤتمر السلام في فرساي وميادين المعارك في شمال فرنسا ومنتزه الفينيكس في دبلن، والى مدن مرسيليا، وكولونيا، وستراسبورغ. أما موضوع العلاقات السعودية _ البريطانية، فقد كانت

هناك مباحثات مع كيرزون الذي صار الآن وزيراً للخارجية، ولكن من دون أي نتيجة عملية، لأن فيصل واحمد بن ثنيان قد غضبا من جراء معاملتهما كالاطفال. والمباحثات في فرساي انتهت إلى ما هو أسوأ. وكل المحاولات لجمع السعوديين والهاشميين انتهت إلى حائط مسدود. ويغمز فيصل بن حسين من قناة الإخوان ومرجعيتهم فيسأل: من هم هؤلاء الإخوان؟ لقد اخبرت انه غير مسموح لهم حلق لحاهم!" ومع ذلك، كان حسم هذا الامر سيجري بعد قليل وفي مكان آخر. (18).

عاد فيصل إلى نجد في شباط 1920، ليجد ابن سعود في استقباله بالهفوف وقد اعد له استقبالاً مميزاً ورد فيوصف شاهد أتيح له ان يبقى على مقربة من ابن سعود في الثلاث والثلاثين سنة التي تلت، وهو هارولد ديكسون "harolk dickson" المعتمد السياسي الجديد في البحرين. كان ابن سعود مبتهجاً ان يرى كم تغير ابنه بعد تلك الزيارة الطويلة، سره ان يحمل له، من الملك جوج الخامس، رسالة كان على ديكسون ان يقرأها مترجمة على ابن سعود غير مرة، وان يستوضحه عن غير فقرة فيها. وأقيمت وليمة ضخمة ونحرت الخرفان.

الا ان تبدلاً ما حدث في الجو بعد الغداء، وذلك حين ارسل ابن سعود في طلب ديكسون. فقد علم للتو من احمد بن ثنيان مدى مرارة المحادثات التي أجريت في لندن وفرساي فبدأ أكثر إحباطاً وغضباً حين علم باستمرار المراوحة والتسويف مع آل سعود من جهة واستمرار تدفق الدعم للهاشميين بالمقابل من جهة ثانية.

"انكم تدعمون عموداً مكسوراً" (19) خاطب ابن سعود ديكسون. وليضيف مشيراً بعصاه: " ما أعرفه انا بالتأكيد هو ان ايام الريف معدودة".

لكن الحرب مع الشريف لم تكن لتستأنف الآن، ذلك أن ابن ثنيان، كما يقول بعض الكتاب، قد أكد، في محادثات باريس باسم ابن سعود، أن "لا حرب لثلاث سنوات، واياً تكن الاسباب." (20). وبحسب ما يقوله براي bray ، فقد أقسم ابن سعود ان كلمة ابن ثنيان قد اعطيت من دون استشارته. ولكن ربما كان الامر بخلاف ذلك: اذ من الممكن ان يكون ابن ثنيان قد استنتج مثل سيده، من تحليل ابعاد الموقف برمته أنه ليس من باب الحكمة الهجوم على الحجاز في هذا الوقت. فقد كان البريطانيون على صلة دائمة بالهاشميين كما ان العالم الاسلامي لن يقبل، في مطلق الاحوال، استيلاء الوهابيين على الاماكن المقدسة.

وفي كل الاحوال فقد كان لابن سعود قضايا أخرى بحاجة إلى معالجة ومتابعة، وبخاصة العلاقات مع الكويت، والعراق ومنطقة الحدود مع اليمن في عسير، اضافة إلى استمرار مشكلة آل رشيد في حائل. وكان على الإخوان ان يلعبوا دوراً حاسماً في هذه المسائل جميعها.

فقد وقعت خلال عامي 1919، 1920 مصادفات بين القبائل الكويتية وإخوان قبيلة المطير، في ارتاويا. فتبعاً لمعتقداتهم، التي لا تعترف بالحدود الجغرافية، حاول هؤلاء إقامة مستوطنة لهم في ارض هي تقليديا أرض كويتية. وعندما طردهم الكويتيون عادوا بأعداد أكبر وشنوا غارة على مدينة الكويت. وكان للكويتيين متسع من الوقت أتاح لهم إقفال اسوار المدينة لرد الاخوان. ولكن، بعدما دفعوا ثمناً باهظاً، إذ سقط لهم 200 قتيل وذلك في تشرين الأول 1920 في الجهرة. ولم تجد هذه المسألة حلاً حتى وفاة الشيخ سالم بن مبارك. بعد ذلك بادر خلفه جابر بن أحمد، الذي كان مسافراً إلى اوروبا مع فيصل سنة 1919، إلى لقاء ابن سعود في نيسان 1921 وأصدر إعلاناً اعتبر فيه أن لا حاجة لتعيين الحدود بين بلدين تربطهما علاقات حميمة مثل نجد والكويت. وكان ابن سعود قد علم أن تحركات بريطانية معينة قد جرت للتدخل دفاعاً عن الكويت، عند الضرورة.

ونشأ مع العراق وضع مشابه لهذا ومنذ 1920، فرض البريطانيون الانتداب على العراق، وواجهتهم على الفور انتفاضات في عدد من المدن وبين عدد من القبائل في الفترة الممتدة من من تموز إلى كانون الأول 1920. فقد بدأ الإخوان بعبور الحدود الناشئة حديثاً بين نجد والعراق، والتي كان من المستحيل تحديدها بدقة، وسادت بالتالي حال من الفوضى والاضطراب. ولجأ البريطانيون إلى المراقبة الجوية ودوريات الشرطة لردع الغزوات عبر الحدود، وبمبادرة فردية تقريباً من ضابط شاب اسمه جون باغو غلوب. إلا ان الحدود بقيت، رغم ذلك،أقرب إلى حال الفوضى.

اما منقطة عسير، فتمثل قضية مختلفة تماما، إذ كان للمنطقة، في الغالب،وضع سياسي محدد. فقد بقيت على نوع من الحكم الذاتي منذ اواسط القرن الثامن عشر تحت سلطة الاسرة الادريسية. إلا انه، وبعد انسحاب الاتراك، حاول حسين بن علي مد سلطته على السهل الساحلي لمنقطة عسير. وتحرك الاخوان من منقطة ترابا لمنع المحاولة الهاشمية، وذلك سنة 1919، وخلال وقت قصير، كانت سيطرة آل سعود على المنقطة موضع إعتراف إلادريسيين وترحيبهم. وكانت هذه الحملة شبه الحربية بقيادة فيصل ، من معرفته بالمنطقة الأمر الذي يبرز سياسة ابن سعود حيث يحتل التفاوض فيها موقعاً واضحاً.

في شهر تشرين الأول 1921، وفي موضوع الرشيديين، تولى ابن سعود شخصياً، قيادة تحرك ضد حائل وضع حداً لحكم الرشيديين في جبل شمر. وكان الداعي إلى هذا التحرك سقوط الرشيديين من جديد في صراعات داخلية دموية. ففي ربيع 1920، تورط سعود، حاكم حائل، في مبارزة دموية مع افراد عائلته بسبب ملاحظة جارحة تناولت ابن عمه عبد الله بن طلال الذي رد غاضباً باطلاق النار عليه فأرداه قتيلا. ورغم ان القاتل عاد فقتل بدوره على ايدي رجال الحاكم، فقد أصبح

مصير الرشيديين من جديد في مهب الريح، وخصوصاً ان عمر الحاكم الجديد لم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة.

انضم إلى ابن سعود، خارج حائل، قوة من الاخوان بقيادة فيصل بن دويش: القائد نفسه، والرجال أنفسهم الذين أفشلوا حملة سابقة، وسط دهشة 1918. لكن الاخوان هذه المرة لم يكونوا في وارد العودة إلى الديار، وانما كانوا مصممين على الفوز بحائل.ومن جديد لجأ ابن سعود إلى وسائله الخاصة. فقد تمكن من التوصل إلى تفاهم سري مع نائب حاكم المدينة بفتح بواباتها شرط عدم التعرض للسكان. وهو ما حدث تماماً، اذ فتحت البوابات وجرى الدخول إلى المدينة ووضع حد نهائي لحكم الرشيد في حائل(2).

ومن جديد، كانت سياسة ابن سعود التي تترك حيزاً كبيراً للدبلوماسية والمصالحة تؤتي نتائجها، رغم أنها لا تنطلق بالتأكيد من غيرية مجردة، وانما هي شكل من أشكال الممارسة ينم عن بعد نظر وحكمة سياسية عالية. وظهرت سياسة ابن سعود المتسامحة هذه في زواجه من أرملة الحاكم القتيل، ثم احتفاظه بالرشيديين بكامل احترامهم ضيوفاً عليه في الرياض(22).

وبسقوط حائل في يد ابن سعود، امتدت سلطته الآن شمالاً، وليصبح على تماس مع النفوذ البريطاني في صفحة أخرى من صفحاته إذ ان نظاماً جديداً كان قد رسم للشرقين الأدنى والأوسط بدءاً من آذار 1921، والفضل في ذلك يرجع إلى وينستون تشرشل.

فبعد استيضاحات وأسئلة رفعها أعضاء في مجلس العموم، سعى وزير المستعمرات الجديد إلى التحقق من طريقة عمل معتمدي بريطانيا في المنقطة، واسباب دعم بريطانيا، مثلاُ، وفي آن معاً لحاكمين اثنين في شبه الجزيرة متقاتلين حتى الموت. عقد تشرشل مؤتمراً للمعنيين العسكريين والسياسيين، في القاهرة لوضع الخطوط العامة لترتيبات جديدة في المنطقة. فقد جعل فيصل بن حسين، الذي كان قد فقد عرش سوريا بعدما هزمه الفرنسيون في معركة ميسلون سنة 1920، ملكاً على العراق، وعبد الله بن حسين، قاد عراضة مسلحة باتجاه سوريا اثناء انعقاد المؤتمر، كوفئ بإمارة شرق الاردن الناشئة، وهكذا ترك ابن سعود وسط الاحساس انه محاصر بين هذا العدد من الاخصام والاعداء.

إلا أن حكم ابن سعود كان قد غدا، وبعد احتلاله حائل، أكثر متانة، واستقطب بالتالي من انتباه البريطانيين. ثم جاء اعلان ابن سعود نفسه سلطاناً لنجد وتوابعها ليفتح نقاشاً حول المدعى الذي ستبلغه طموحات ابن سعود. هل تكون طموحاته بلا حد؟ هل يسعى إلى نشر المعتقدات الوهابية كما فعل أجداده؟ هل شرق الاردن بمنأى عن طموحاته؟ هل الكويت آمنة؟ هل يسيطر ابن سعود فعلاً على الاخوان؟ وان لم يكن ذلك هل هو سعيد بوجود هذه الثغرة وبالافادة من نتائجها؟

وجرت بالفعل محاولة لضبط الوضع على الحدود العراقية وذلك حين اشترك مفاوضون سعوديون في المباحثات التي أدت الى اتفاقية المحمرة في آيار 1922، لكن ابن سعود رفض التوقيع على الاتفاق الذي تم التوصل إليه.

كذلك، استمرت غارات الإخوان عبر الحدود مع شرق الاردن واستدعت بالتالي ردوداً بريطانية عنيفة. فبعد غارة للإخوان في تشرين الأول 1920، تدخل الطيران الملكي البريطاني وحاصر قوة الإخوان في العراء، وكانت المحصلة الدموية ان ثمانية فقط من اصل 1500 تمكنوا من النجاة والعودة إلى نجد.

لقد كان مفهوم حدود شرق الاردن آنذاك بعيداً عن أن يكون أمراً واقعاً ومسلماً به، ويتضح ذلك جلياً من الحادثة العرضية التي تورط فيها فيلبي، والذي كان يشغل في هذه الفترة مركز المفوض السياسي لشرق الاردن. ففي آيار 1922، تجاوز فيلبي من جديد، التعليمات المعطاة له، وقاد بعثة رسمية إلى منطقة الجوف حيث وجد نفسه ورفاقه رهائن لدى قبيلة الروالي. وكي يؤمن إطلاق سراحه ورفاقه وقع باسم حكومة صاحب الجلالة على اتفاقية تحالف دفاعية هجومية ضد ابن سعود، أطلق سراح فيلبي ورفاقه، الا ان لجوء حكومته إلى التنصل من الاتفاق شكل المسمار الاخير في نعشه كموظف رسمي. فكان عليه ان يترك على الفور الحياة الوظيفة، ليلتحق بعد تقلب وتردد ببلاط ابن سعود.

بدأ، لبريطانيا، من جملة هذه التطورات ان اهدافاً كبرى تضيع وخسائر لا لزوم لها تتكرر، وانه يجب بالتالي وضع حد للعداوات الضاربة في المنطقة. وتقرر بالتالي الدعوة إلى مؤتمر إقليمي ثان، على غرار مؤتمر القاهرة الاول. ودعي ابن سعود إلى لقاء سير بيرسي كوكس sr percy cox، الذي كان يشغل الآن مركز المفوض السياسي للعراق، في ميناء الحجير جنباً إلى نب مع ممثلي الكويت والعراق.

كان هذا المؤتمر الذي استغرق اكثر من اسبوع شيئاً مشهوراً في احداثه ونتائجه، مع ملاحظة انه كان لدينا هناك شاهد عيان نقل من التفاصيل أكثر مما يسمح بخروجه عادة عن هذه المؤتمرات الرسمية.لقد كتب ديكسون، الذي حضر المؤتمر بوصفه معتمداً سياسياً، كتب بالتفصيل عن مشاهداته وملاحظاته في غير موضوع تطرق له المؤتمر، الا انما لم يستطع ديكسون عرضه تناوله تفصيلاً أمين الريحاني، الكاتب الاميركي، اللبناني الاصل.

ركز الريحاني معظم جهوده على نشر فكرة الوحدة العربية، وأخذ على عاتقه زيارة كل الزعماء الفاعلين في الجزيرة العربية سعياً لقبول دعوته للوحدة، وهو موضوع عدة كتب نشرت له بالانجليزية والعربية. الا اننا كذلك، مدينون للريحاني لا بوصفه لوقائع المؤتمر فحسب، وانما بوصفه أيضاً

جوانب كثيرة من شخصية ابن سعود وحياته العامة والخاصة ووصفه لمدينة الرياض التي دعاه اليها ابن سعود بعد انتهاء المؤتمر. كان الريحاني في الحجير في انتظار وصول ابن سعود من الرياض. وكان يمكن معرفة اقتراب قافلة ابن سعود عن مسافة كبيرة بينما حرسه الكبير المؤلف من ثلاثمائة رجل ينشدون دون توقف نشيد آل سعود يا سعيد .... Yaa suayyid وقد قدم الريحاني وصفه للمشهد وانطباعاته:

"أي سحر سماوي كانت تملكه تلك الصرخة التي تسمعها آتية من خلف الكثبان تحملها قبرات الليل (23) . ويمضي الريحاني ليصف كيف أن اصوات 200 رجل من سائقي الجمال اعتلوا سنان جمالهم ينفخون في مزامير من قصب "كرش المطر على نخيل".

كان اللقاء الأول بابن سعود مبعث رهبة حتى لرحالة محنك مثل الريحاني .

فقال:

"كانت جلستنا الأولى على الرمل، تحت ضوء النجوم، حيث انتشر عدد من المشاعل. قامة طويلة ملوكية، بالأبيض والبني. قوي الحضور وواضح السلطة: ذلك هو انطباعي الأول .... أخذ يدي بيده فيما نحن نمشي باتجاه خيمتنا الصغيرة .... جلس على بساط من جلد الغنم متكئاً بساعده الأيمن على سرج قريب، وفي الخارج نار مشعلة تضيء وجهه المجعد يقطعه فم لا يهدأ، ملآن ولكن من دون ثقل، وعيون ناعمة".

وفي أواخر ذلك الليل،حين دلف الريحاني إلى نفسه، كان يسجل هذه الكلمات: "لقد التقيت الآن كل ملوك الجزيرة العربية، ولم اجد واحداً منهم أكبر من هذا الرجل. كبير في كلمته، في ايماءاته، واسلوبه، كما في مقاصده وثقته بنفسه. شخصيته مركبة، فالطريقة التي يحرك بها يده او التي يضرب بها الازمنة بعصاه، كلها تعلن سمات الرجل المتناقضة". وكيما يكون قريباً من المسرح، رتب الريحاني أمر حضوره المؤتمر مترجماً لابن سعود ومستشاراً له.

كان موضوع المؤتمر الرئيسي هو الوصول إلى تفاهم حول حدود نجد مع كل من الكويت والعراق واصطدم النقاش حول الموضوع بمفهومين مختلفين للحدود مفهوم الحدود ذات النمط الاوروبي ومفهوم رجال القبائل في ضم هذه المنطقة او تلك البئر.وبعد اسبوع من النقاشات (24)، كان ابن سعود خلالها أقرب إلى المفهوم القبلي للحدود. ولما لم يأت ذلك بأي نتيجة، فقد كوكس صبره واختلى بابن سعود ملقياً اللوم عليه بلهجة أستاذ مدرسة، فاستجاب ابن سعود معلناً والدمع في عينيه ان كوكس هو بمثابة والد (25)، وانه يترك له بالتالي قرار رسم الحدود وتفاصيله. ويصف ديكسون ما حدث بعد ذلك.

"أخذ سير بيرسي، وعلى مرأى من الجميع، قلماً احمر ورسم بثبات ووضوح على خارطة الجزيرة العربية خط حدود مستقيماً من الخليج الفارسي إلى جبل عنيزان قرب حدود شرق الاردن، وهو ما أعطى العراق منطقة واسعة تدعي نجد ملكيتها".

وكيما يرضي ابن سعود، حرم بيرسي الكويت من حوالي ثلثي اراضيها، واعطاها لنجد، وكانت حجته في ذلك أن وجود آل الصباح في الصحراء الآن هو اقل نفوذاً عما كان عليه الحال حين وقعت الاتفاقية التركية _ الانجليزية سابقاً. كذلك ترك جنوبي الكويت والمنطقة المحايدة العراقية. ثم اقتربت الترتيبات من المسألة التي ستكون مركزية في العلاقات بين ابن سعود والبريطانيين. فقد طلب احد المستشارين اضافة بعض مناطق الرعي للقبائل السعودية: "لماذا بربك سأله كوكس"، هل انت متشوق لأن تذهب هذه المنطقة إلى نجد؟

"بصراحة، اننا نعتقد ان البترول متواجد فيها اجاب المستشار. وكان رد كوكس حاسماً:

"لهذا بالضبط جعلتها منطقة محايدة، وكل طرف يأخذ نصيباً فيها".

وقبيل اختتام مؤتمر الحجير، كما يروي ديكسون، كان ابن سعود يلتقي كوكس والدمع في عيني كليهما. فقد طلب ابن سعود لقاء كوكس ولما حضر أجهش ابن سعود في البكاء لفقدان مناطق شاسعة من نجد للعراق. واغرورقت عينا كوكس أيضاً بالدمع وهو يحاول تهدئة مشاعر صديقه القديم: " ياصديقي، انا اعرف تماماً مشاعرك الآن، ولهذا السبب اعطيتك ثلثي اراضي الكويت، ولا اعرف كيف سيستقبل ابن الصباح هذه العاصفة؟ "

ويقدم الريحاني رؤيته الخاصة لمداولات المؤتمر ويصف دوره في ترجمة بعض الوثائق لابن سعود (26). وهو يتحدث عن برقية ارسلها كوكس إلى تشرشل يقترح فيها اضافة بعض الاراضي لابن سعود بين نجد وشرق الاردن، قرب الجوف، مع ملاحظة ان "هذا جزء من التعويض الذي يجب ان يكون لابن سعود ... لقد أخذنا من ابن سعود لنرضي العراق. ونأخذ من شرق الاردن لنرضي ابن سعود".

وكنتيجة لمؤتمر الحجير، قامت تسوية وسط، وكان لبعض الترتيبات التي اتخذت وخصوصاً المنقطتان المحايدتان، ان تدوم لفترة طويلة، وفي حدود نهاية سنة 1922 كان ابن سعود قد وضع يده على كل الواحات الرئيسية في شبه الجزيرة العربية: بدءاً من الهلال الخصيب وصولاً إلى الربع الخالي. والى ذلك فهو قد أنجز نقلة أخرى مهمة بتحويل حركة دخول البضائع إلى نجد وخروجها منها من مرفأ الكويت إلى مرافئ الأحساء، الخطوة التي تشير بوضوح إلى تردي العلاقات بين نجد والكويت. إلا أن التغيير الأهم الذي أحدثه المؤتمر هو إدخاله مفهوم الحدود الحديثة إلى العلاقات بين نجد وجيرانها، ولكن من دون ان ترضي أحداً. وستشهد هذه الترتيبات في العقد التالي، تحديات

اكثر خطورة وتحديداً رفض الاخوان لمفهوم الحدود هذا، وكانوا يسطرون بذلك أخطر صفحة في تاريخ ابن سعود.

كان الموضوع الضمني للمؤتمر، حضوراً وحساسية، وهو احتمال وجود النفط في المنطقة. فمنذ اكتشاف النفط في بلاد فارس سنة 1908، وتحول سفن البحرية الملكية إلى ناقلات نفط، عني البريطانيون دون كلل بمصادر انتاج هذه المادة، والمصدر الاقرب والرئيسي ألا هو منطقة الخليج والعراق. فإضافة اراض جديدة إلى مناطق نفوذ الانتداب البريطاني على العراق انما بأخذه بالحسبان احتمال وجود النفط في الموصل والتي جعلت لذلك، ربما، خارج إدعاءات كل من فرنسا (المنتدبة على سوريا) والجمهورية التركية (وريثة السلطنة العثمانية). لقد جعل صانعو السياسية البريطانيون أهمية خاصة لإمكانية اكتشاف النفط في الأراضي العربية المحاذية للخليج، وتمثل جزء من ذلك في عقد اتفاقيات منفصلة مع مشيخات الخليج، وعلى ذلك. فقد كان كوكس حساساً جداً تجاه اشتراك المايجور فلانك هولمز ،صياد الاكتشافات النفطية في المؤتمر. وقدر لهذا المستكشف النيوزلندي ان يحتل مكانه في تاريخ ابن سعود لا لحضوره مؤتمر الحجير في الوقت المناسب، فحسب، او لدخول إطار الصور برقة صانعي الحدث آنذاك، وإنما تحديداً لانه أتيح له بنتيجة هذه الفرصة ان يعقد أول اتفاقية للبحث عن النفط في الاراضي السعودية.

وقد كتب ابن سعود إلى الريحاني في آب 1923 يخبره فيه أنه وقع عقداً مع هولمز. وكان ذلك حدثاً بالغ الاهمية لان الريحاني يعرف تماماً أي ضغوط بذلها كوكس على ابن سعود طيلة انعقاد المؤتمر لرفض عروض هولمز او اقتراحاته. إلى ان أرسل له أخيراً ملاحظة تتضمن الموافقة على انجاز العقد مع هولمز، مع ما في ذلك من إشارة لهولمز ان لا اتفاق يعقد قبل موافقة الحكومة البريطانية. فرفض ابن سعود التوقيع حتى اللحظة الأخيرة، ولكن كان عليه في النهاية الموافقة لأن البريطانيين كانوا في الواقع مصدر كل عون مادي. كانت المساعدة السنوية تبلغ 60000 جنيه، وكانت خزانة ابن سعود في اشد الحاجة لهذا المال.

وفي 31 آذار 1923، اعلنت الحكومة البريطانية انها تزمع إنهاء المساعدة المالية السنوية لابن سعود خلال عام من تاريخه، وكان كافياً كي لا يستنتج ان الخطوة هي بمثابة عقوبات اقتصادية. وكان المستفيد الأول من الوضع الجديد هو المايجور فرانك هولمز، كما كان هناك شعور لدى ابن سعود بتحرره من أي قيود في تعامله مع مسألة الهاشميين، محميي بريطانيا الآخرين.

وبين تشرين الثاني 1923 ونيسان 1923 ونيسان 1924، انعقد في الكويت، بناء على دعوة من بريطانيا، مؤتمر سعى إلى حل اشكالات الحدود بين شرق الاردن والمناطق النجدية الجديدة في المدى الذي بلغته (والتي وصلت الآن إلى شمال وادي سرحان)، وكيما تحل بالتالي كل مشاكل

الحدود بين ابن سعود والهاشميين. لاقت الفكرة قبول ابن سعود، إلى جانب وفود تمثل فيصل بن حسين من العراق، وعبد الله بن حسين من شرق الاردن، الا ان الشخصية الرئيسية الغائبة انما كانت ملك الحجاز حسين بن علي الذي لم يحضر ولم يرسل وفداً يمثله.انتهى المؤتمر إلى الفشل رغم استمراره أشهرا، وذلك لسببين اثنين على الاقل: اولهما ان الشخصية الهاشمية الرئيسية، حسين بن علي، رفض المشاركة فيه، وثانيهما ان ابن سعود، وقد توقفت عنه الإعانات المالية، لم يعد لديه ما يجبره على التنازل او المهادنة. وهكذا كان على كل المسائل العالقة بين ابن سعود وحسين بن علي ان تحل بالقوة، في خلال سنة 1924، والتي انتهت فصولها الدموية بان حل ابن سعود محل حسين بن علي سيداً على مكة في شهر تشرين الأول من ذلك العام أو وفق صيغة ابن سعود نفسه في قوله الريحاني:

"ما من أحد يستطيع فرض شيء علينا (27). لا، والله! ما كان حقاً لأسلافنا هو حق لنا. واذا لم نستطع استرجاعه بالحسنى، استرجعناه بالسيف".

**الحياة العائلية**

في هذه الفترة ولد لابن سعود ابناء من زوجاته التالية:

1_ بزه ،bazza، التي تزوجها في حدود سنة 1919، ولدت له ناصر، الذي غدا حاكما للرياض إلى ان استبدل سنة .1947

2_ جوهرة ،jawhara ، بنت سعد السديري، والتي كانت أرملة أخيه سعد، ولدت له ثلاثة ابناء.

3_ حسا، hassa ، من عائلة السديري، تزوجها ابن سعود مرتين، الاولى سنة 1913 وكانت في الرابعة عشرة، ثم مرة ثانية بعد طلاقها، سنة، 1920 وقد كانت ، في ما بين التاريخين، متزوجة من أخيه محمد، ولدت لابن سعود سبعة ابناء، اكبرهم الملك فهد، ولد سنة 1921، وكان له منها كذلك سبع بنات، وطفلها الاخير ولد في الأربعينات.

4 _ شهيدة، shahida ، والتي ولدت له منصور، الذي غدا وزيراً للدفاع إلى حين وفاته سنة 1951، وقد وصفتها عن قرب؟؟ مسر دام، زوجة أحد المرسلين الطبيين الاميركيين بما في ذلك أصولها النصرانية (28).

5 _ الفهدة ،alfahda، أرملة أحد الرشيديين الذين هزموا سنة 1921، وهي ولدت له عبد الله، ولي العهد، سنة 1923.

6_ بزه،bazza، زوجة ثانية بالاسم نفسه: ولدت له بندر وفواز.

وخارج هذه الزيجات المذكورة، تمثل سنة 1919 سنة مأساوية لابن سعود من وجهة عائلية. فقد ماتت زوجته المفضلة جوهرة بنت مساعد، والدة محمد وخالد، بوباء الانفلونزا، ومات به كذلك ابنه الاكبر تركي وابنان صغيران آخران له.

وشهدت الفترة كذلك ولادة أخوة لابن سعود، من امهات أخريات، أحمد ومساعد وسعد والذين لم يلعب واحد منهم، بحسب فيلبي، أي "دور في الشأن العام" والأمر عينه يقال في سعود، المولود حوالي سنة 1890 الأخ الأخير الذي عاش عهد الشباب.

## الفصل الخامس

## الامام في مكة 1924 _ 1928

في سنة 1925 سمعت من هوغارت، أو د. هوغارت لاحقاً، وهو شاهد عيان موثوق به ودقيق في قضايا شبه الجزيرة العربية، سمعته يقول: أن لا شيء سوف يدهشه اكثر من أن يرى، في خمس سنوات او نحوها، ان الوهابيين قد انزاحوا عن الحجاز وعادت عائلة الشريف إلى السلطة.

ك. وليمامز، ابن سعود، 1933، ص7.

الأماكن المقدسة محكومة الآن لعائلة متمرسة بالنهب والغزو والعدوان والمجازر

الملك عبد الله ملك الاردن، مذكرات، 1954(حول ابن سعود)

حذار أيها الإخوان! لا تتطاولوا على حقوق غيركم.

لقد اخذناكم بالسيف، وبالسيف إن شاء الله نبقيكم ضمن حدودكم.

ابن سعود، عن الريحاني، "ابن سعود" 1928، ص 214.

ونحن، إذ نروي قصة ابن سعود، لا نستطيع الا ان نبقى مع امين الريحاني أطول فترة ممكنة. فقد أتيحت له فرصة نادرة مكنته ان يبقى، لستة اسابيع، برفقة ابن سعود بعد مؤتمر الحجير. لقد أتيحت له فرصة نادرة مكنته ان يبقى، لستة اسابيع، برفقة ابن سعود بعد مؤتمر الحجير. لقد سافر إلى الرياض في قافلة السلطان، عبر الصحراء، وهو يراقب ويدوم ملاحظاته وانطباعاته. وما يزيد من قيمة ملاحظات الريحاني، وهو يراقب ويدون ملاحظاته وانطباعاته. وما يزيد من قيمة ملاحظات الريحاني: مقاومته الواضحة لإغراء ان يذهب به الاعجاب بعيداً. كان ابن سعود، بالنسبة له، رجلاً كبيراً بالفعل، وهو لو قدر له ان يولد في اوروبا لكان ملكاً ذا شأن تاريخي رفيع، لكن من الملاحظ أن ابن سعود نفسه يغدو مزعجاً حين تذهب كلماته بعيداً(1).

ورغم نصرانية الريحاني، فقد أسعده سماع الترتيل القرآني،بينما كانت قافلة ابن سعود الضخمة تتحرك عائدة بابن سعود إلى الرياض، وخلفه حوالي 300 أعرابي يهزجون باراجيزهم الموقعة "فيما الجمال نفسها كأنما هي توقع حركاتها على أزمنة الهزيج وتوقيت حركات الجسد والصوت".

ثم يقف ابن سعود نفسه،بعقاله الحريري، وقامته العالية، يراقب الحاشية منها. حتى جملة العماني الأحمر كان اكثر ارتفاعاً عن سائر الجمال.

ويلاحظ الريحاني، في الجانب الديني، كيف كان ابن سعود يقرأ له مقاطع من ثلاثة كتب هي تحديداً: 1_ مجموع أحاديث الرسول،2 – تاريخ العرب الكبير للطبري و3 _حياة الرسول. وكانت مقاطع من هذه الكتب تقرا في مجالس ابن سعود العامة.

ولا يسع المرء هنا الا أن يلاحظ، بالاضافة إلى تدينه، مهاراته الفائقة في ما يسمه اليوم بالعلاقات العامة. كان لديه بطبيعته مهارة اختيرا اكثر الوسائل تاثيراً في نشر الرسالة التي يرغب بايصالها او نشها. وكان للريحاني، في رفقته لحاشية ابن سعود، وقت مكنه من تبادل الحديث مع مرافقيه، واتاح له سريعاً أن يعلم منهم أن معظمهم كان تعباً بفعل الطريق الطويل من الرياض إلى الحجير، ثم مرابطتهم طويلاً حوله في الحجير. وصارحه هؤلاء دون خجل، باكثر ما يزعجهم: "لقد كنا نفكر بالنساء طوال الوقت". ومن يعرف حياة الصحراء وظروفها لن يجد في ذلك مفاجأة تذكر، ولكن الذي يجعل لملاحظة الريحاني كامل معناها هو اضافته: "أما الإمام [ ابن سعود ] ، فقد كانت رغبته هي الأقوى بين اولئك جميعاً" (2). وحين حطت القافلة في الرياض،كانت دهشة الريحاني واضحة حين رأى الجامع الكبير الذي بدا عملاً معمارياً أصيلاً وخيباً في وقاره(3): "لم أر شبيهاً له في أي مكان". والوقار في أي حال هو السمة الطاغية على هذه العاصمة غير العادية: يلاحظ الريحاني أنه طوال اقامته، لم ير، زهرة واحدة، أو نبتة عطرية واحدة داخل الأسوار الطينية للرياض.

وهو إلى ذلك، لم يجد شعب الرياض مضيافاً على مثل ما هو عليه حاكمهم: إن حرارة السلطان وكرمه لم يعلما مواطني العاصمة شيئاً(4)".

ويلاحظ الريحاني كذلك خشونة "العلماء"، حتى مع ابن سعود نفسه. بل ان ابن سعود نفسه يفسر للريحاني: "العلماء لا يتنازلون للحديث حتى معنا(5)".

لكن ابن سعود لم يكن ليجعل هذا الجفاف والنكد يؤثران فيه، إذ يروي الريحاني وقائع نزهة مبهجة مع ابن سعود وحاشيته، وحين أصبح الجميع خارج اسوار الرياض. تلفت ابن سعود حوله ثم قال: "لا اخوان معنا الآن، من له صوت حسن فليسمعنا".

ورغم سلوكه المطمئن، فقد كان لا يغفل، او يترك حرسه يغفلون لحظة، وفق ملاحظة الريحاني. لقد غدت عنايته بالجانب الأمني شيئاً غريزياً فيه، وجزءاً من تقاليده وتقاليد حاشيته. فحين يؤدي الصلاة يكون كبير حراسه واقفاً يراقب(6)"، او كما ينقل عن لسان ابن سعود: "علي أن أكون حذراً في جماعتي الأقرب الي، فالخونة الذين اكتشفناهم كانوا بين الأقرب من حلفائنا". وحين كان

ينصب مخيم لقضاء الليل، كانت خيمة ابن سعود تنصب في وسط المخيم لا يميزها شيء عن سائر الخيام، المنسوجة من وبر الجمال والمطرزة الحفافي.

ولم يكن ابن سعود وحده في هم الأمن هذا، فقد لاحظ الريحاني كيف أنه، في احدى الأمسيات، اندفعت عامة الرياض في شبه فوضى، لأن ابن سعود لم يرجع ذلك المساء، بعد ما كان قد غادر عصراً بالسيارة مع حراسه ومرافقيه. ولسبب ما تأخرت السيارات،ولم يتأخر كبار العائلة، فور عودته، عن لومه للاضطراب الذي أحدثه بين مواطنيه ومحبيه(7).

لم يبادل ابن سعود الحب بالحب، او على الأقل لم يبادل الرياض حباً بحب. وينقل عنه الريحاني قوله: إنه يحس أنه غريب في عاصمته، وانه لا يبقى يوماً واحداً في الرياض لو لم يكن حاكماً للبلاد(8).

كانت الرياض عاصمة للسعوديين، لكنها كانت كذلك القفص المذهب "لآل رشيد،" ضيوف آل سعود. ويلتقي الريحاني عدداً منهم في الرياض، من ضمنهم فيصل بن رشيد، وعبد الله بن متعب، ويلاحظ حريتهم الواضحة في المجيء والرواح إلى مجالس ابن سعود والتجوال في نطقاها أو خارج هذا النطاق. لكن الريحاني يلاحظ كذلك مدى حرص ابن سعود، وهو يقدم أقصى درجات الضيافة، أن يبقى الرشيديين تحت مراقبته الدائمة. وفي أحد مجالسه يتوجه ابن سعود بالحدي إلى الرشيديين فيقول.

"انتم آل رشيد بمنزلة أولادي. تعيشون معنا كما أعيش، لا أحسن ولا اسوأ، ثيابكم مثل ثيابي، وطعامكم كطعامي، وخيلكم ربما كانت خيراً من خيلي".

وأمام دهشة الريحاني، كانت الدموع تملأً مقل الحاضرين من آل رشيد: " اعطيتكم الأمان على كتاب الله وحياة الرسول شرط ان تكونوا في جانبنا، وأن لا تدعو لسانكم أو ايديكم أو وجودكم ان تكون ضدنا او تتآمر علينا(9)".

وكان من حظ الريحاني أن يكون في الرياض شاهداً على معنى جديد يبصر النور من خطط ابن سعود.

ففي شباط 1923،يعود فيصل، ابن السلطان، إلى الرياض فارساً على رأس القوات التي أرسلها ابن سعود في حملة أخرى على عسير. فبعد عملية الإخوان على عسير سنة 1920، عزز السعوديون قبضتهم على المنطقة من خلال حملة ثانية قادها فيصل. وقد أعد له ابن سعود، فور عودته، استقبالاً رائعاًً فقد أخذه شيء من الفخار الأبوي فمشى إلى جانب فيصل، بل خلفه بقليل في حين كان فيصل على حصانة يستعرض خيالته وسط هتاف: الله واحد لا إله إلا الله! وبدا للحظة (10)، "وسط كل ذلك الجلال والعظمة" كما أن القائد يستقبل احد جنرالاته.

وبرر ابن سعود ذلك للريحاني، في ما بعد ، قائلاً: إنه ما كان بوسعه ان يبقى شاهداً على المنصة، وأنه لو فعل، لكان بكى فخراً واعتزازاً.
كذلك شاهد الريحاني تبلور جزء آخر من سياسة ابن سعود تجاه الإخوان،اذ أنه، بينما هو في الرياض، استمرت غارات الإخوان على شرق الاردن. وجرى الإبلاغ عن غارة وحشية بلغت جوار عمان(11)، وشاهدنا فيلبي. فبعدما ذبح الاخوان افراد قبيلة بني ساكر لاحظ سلاح الجو الملكي البريطاني القوة الاخوانية المغيرة ثم حاصرا في العراء وافناها عن بكرة ابيها تقريباً.
وشاهد الريحاني، عن قرب غضب ابن سعود للغارة ثم أمره باعتقال المسؤولين عنها لثلاثة أشهر لتصرفهم بغير إذنه.
ثم ينقل كلام ابن سعود القوي والبليغ الذي خاطب به الإخوان قائلاً:
"لا تنسوا أنه ما من واحد منكم لم نذبح لهاباً أو أخاً أو عماً! غي والله! طوعناكم بحد السيف، وما زال السيف فوق رؤوسكم.حذار أيها الإخوان ان تجاوزوا حقوق غيركم (12)".
ان جزءاً كبيراً من أحداث السنوات الأربع التالية غنما هي التطورات والتعقيدات التي كان الإخوان خلفها  بقرار من ابن سعود حيناً او بلا قرار، كما يبدو، حيناً آخر.
وقبل تناول أحداث هذه الفترة، ربما كان ضروريا الالتفات إلى رحالة انجليزي آخر يجيد العربية، والالتفات إلى ما سجله من ملاحظات حول ابن سعود والمنطقة في حدود سنة 1924ن وقبيل الهجوم على الحجاز.
كان ر. ي. شيزمان، obe، رحالة انجليزياً مغرماً بالطيور وبمتابعة حركتها، بلغ الأحساء سنة 1924، فصادف وجود ابن سعود فيها فكان له معه أحاديث مطولة في غير موضوع واتجاه.
كان شيزمان في الهفوف في شباط 1924، وقيض له أن يشاهد حدث وصول ابن سعود الى الهفوف قبل ساعتين من مغيب الشمس، في موكب ضخم ضم حوالي 350 رجلاً اعتلوا جمالهم، ثم كيف انعقد مجلس ابن سعود حتى ساعة متأخرة من الليل يستقبل كل الذين توافدوا للترحيب به .
ولما جاء دور شيزمان، وجد ابن سعود يستوضحه نتائج الانتخابات العامة الأخيرة في انجلترا، وهل حلت مشكلة التعويضات بين فرنسا والمانيا ثم يخلص إلى أنه: "لم يستطع أن يضيف إلى ما يعرفه ابن سعود فعلاً في أي من الموضوعين(13)".
ورأى شيزمان أن في بلاط ابن سعود اشياء أخرى، غير الشؤون الرسمية، كذلك. فقد كان من المعتاد، حين يأتي ابن سعود إلى الهفوف، أن تقع على عبد الله القصيبي مهمة تقديم المأكل واحتياجات الإقامة. وكما يحدث في الغالب، وجد القصيبي نفسه مطالبأن وخلال وقت قصير، باطعام عدد كبير من الأفواه.واعتقد هذا انه وجد حلاً للمشكلة بوجود مؤونة كبيرة من مربى

الخوخ،إلا أن ما كان ينقصه هو الخبز.فاسقط في يده، ولم يد حلاً غير التسلل من باب جانبي والاختفاء. لكن المسكين ما لبث أن جلب إلى ابن سعود الذي هدأ من روعه، مضيفاً أنه لا لزوم لذلك كله.

قضى شيزمان بضعة ايام بصحبة ابن سعود، واستخلص،بالتالي، مجموعة ملاحظات ونتائج تتفق مع ما رأيناه في غير جانب، ومن ذلك حذر ابن سعود وعنايته بالأمن.

فقد تحدث ابن سعود إلى شيزمان بإسهاب عن الخلافات القاتلة بين الإخوة طمعاً في السلطة .

ولأن هذا يحدث عند آل سعود، كما عند سواهم، فقد جعل ذلك ابن سعود حذرا، وجعله كما يقول شيزمان، حريصاً على بقاء أولاده معه في كل الاوقات درءاً لوسواس الطمع او الطموح الزائد في ما بينهم (14).

كان لابن سعود، حتى أواخر حياته، أن ينسحب، بين الحين والحين، من همومه وشواغله وقضاياه الكبرى والكثيرة لينال قسطاً من الراحة او التسلية الخفيفة، وهو ما يتضح من ملاحظات شيزمان حول الأيام القليلة تلك.

فقد سأله ابن سعود أنيريه مجموعة الطيور التي لديه،ثم إنه، وسط دهشة شيزمان، شرع يحدث بالتفصيل وبعمق عن انواع الطيور وخصائصها وبدت معرفته "اكثر عمقاً وشمولاً من أي خبير عربي قابلته حتى الآن (15)".

ثم بحث مع شيزمان في أنواع مختلفة من السيارات وكان يتوقع تسلمه سيتروان وشاحنات كاتربيلر تصلح للصحراء وأخبره أن لديه في الرياض مجموعة سيارات فورد وواحدة أخرى كبيرة.

ويروي شيزمان، بعد ذلك، أنه وإثر تلقيه نسخة من جريدة التايمز، كان قادراً ان يعتذر لابن سعود عن فشله في امتحانات المعلومات الأولى، وانه يقدم له بالتالي معلوماته الجديدة .

فشكره ابن سعود بلطف قائلاً: إن النتائج قد بلغته فعلاً من خلال جرائد دمشق.

ويعبر شيزمان عن أسفه لعدم تمكنه من رؤية ابن سعود في الأيام الأخيرة لأنه لا يستقبل زواراً، بينما هو يستعد للسفر في رمضان. ولكن ابن سعود، قبل المغادرة إلى الرياض، استقبله وأتيحت له بالتالي فرصة إخباره أن أول حكومة عمالية في تاريخ بريطانيا قد تشكلت الآن.

عاد ابن سعود إلى الرياض، ليبلغه نبا انتخابات من نوع آخر، شدت انتباهه كما شده العالم الإسلامي بأسره, وهي انتخاب الخليفة في اسطنبول. لقد كان ذلك مؤشراً إلى قرب نهاية حكم الهاشميين.

لقد أنهيت الخلافة العثمانية بإعلان انتخاب الزعيم الجديد للجمهورية التركية مصطفى كمال( كمال أتاتورك)في مطلع العام 1924.

وفي آذار 1924، زار حسين بن علي ابنه الامير عبد الله في شرق الاردن، فأشار هذا عليه بضرورة الرد على إعلان اسطنبول. وفي الخامس من آذار، فاجأ حسين بن علي العالم الاسلامي بنبأ إعلان نفسه خليفة للمسلمين أي الزعيم الروحي والزمني لأمة الإسلامية. ومع أن الإعلان لم يستثر عمليا حماسة تذكر في أي مكان، عدا الأسرة الهاشمية، فانه أوى ، بالمقابل إلى غضبه عارمة لدى القبائل النجدية.

كان للوهابيين في نجد أسبابهم الدينية التي تبرر غضبهم الزائد ، فقد منعهم ملك الحجاز من أداء فريضة الحج خوفاً من تسلل مقاتليهم إلى الحجاز، اولئك الذين ذبحوا افراد حملة ابنه عبد الله على تراب. وهكذا انعق\ في الرياض، بعيد ذلك بقليل، مؤتمر حاشد حضره زعماء القبائل الرئيسية "والعلماء"، وجرى اتخاذ قرار غزو الحجاز، وكان ذلك في حزيران 1924، وبات في وسع ابن سعود أن يثبت الآن أنه محق في قوله" إنه، لو سمح الانجليز، لكان سيطر على الحجاز في اسبوع واحد.

وفي أواخر آب، تحرك إخوان قبيلة عتيبة بقيادة خالد بن لؤي صوب الطائف، التي كانت تحميها قوات هاشمية بقيادة علي بن حسي،آخر ابناء حسين في الحجاز.

كان ت . ي.لورنس قد حكم بضعف شخصية علي(16)، وكذا تقارير الممثلين البريطانيين المتعاقبين. إلا أن البرهان الساطع على ذلك لم يأت الا من علي نفسه، الذي بادر إلى الانسحاب مع قواته من الطائف تحت جنح الظلام في ليلية 4 أيلول 1924،تاركاً الطائف من دون حماية لقمة سائغة للإخوان.

وحدث، بالتالي، ما يتوقع حدوثه، فقد وقعت مذبحة رهيبة خلال ساعات،وذلك حين أعملت السيوف في رقاب المدنيين من سكان البلدة. فذبح ما لا يقل عن 300 شخص، ونهبت البيوت ودمرت، وقطعت الأعناق، ولم يسلم من المصير عينه لا قاضي المدينة نفسه، ولا علماؤها الذين كانوا قد احتموا بالجامع فسحبوا خارجاً وقتلوا.

انتشرت أنباء المذبحة، مضخمة، في مدن الحجاز كافة، فحدثت حالة من الهلع واسعة النطاق، وفر من يستطيع الفار إلى "بور سودان" التي شهدت زيادة ضخمة في سكانها بسبب طوفان اللاجئين الذين تدفقوا عليها، والى ان استكمل ابن سعود استيلاءه على الحجاز، واستعاد حبل الأمن والاستقرار في المنطقة. ولم تستغرق هذه العملية غير بضعة أشهر.

وكان من نتائج مجزرة الطائف وما تلاها أن اجتمع سكان جدة يقودهم أكبر تجار المدينة، عبد الله علي رضا، وتشاوروا وقرروا لقاء الملك حسين بن علي. وفي 3 تشرين الأول1924، التقى الملك وفداً منهم حمل إليه التماس ان يتنحى ويسلم السلطة إلى ابنه علي. وكان هؤلاء يأملون أن علي

هو أقل عناداً وعداوة لابن سعود من والده، وانه سيكون هناك فرصة بالتالي لإعادة القبائل النجدية من حيث أتت بمزيج من الترغيب والترهيب.

ووسط دهشة الوفد، أبدى الملك موافقته الفورية على التنحي. وقبل مضي أسبوعين، كان حسين يغادر الحجاز إلى الأبد، حاملاً معه كميات ضخمة من الذهب كان قد اشتراها بالمال الذي قدمته له بريطانيا قبيل إعلانه الثورة العربية في حزيران1916 وبعدها.

كان موقف بريطانيا من محميها حسين يسوده، هذه المرة، قدر كبير من الاحباط، لا لكونه عارض بكل الاشكال ترتيبات التسوية التي تلت الحرب _ ومنها فكرة اقامة ون قوي لليود في فلسطين _ وإنما لأنه غدا بالتدريج رمزاً متهافتاً عاجزاً عن انتزاع حتى احترام ابنية في العراق والاردن. وبلغ الامر بدبلوماسي بريطاني أن يوصي منذ حزيران 1922، وهو يتحدث في مسائل الخليج والجزيرة، "أن هناك شعوراً متزايداً وأنه ربما كان امراً حسناً لو استطاع ابن سعود مد سلطته إلى مكة(17)". والآن، وبينما كان ابن سعود على وشك الدخول فعلاً إلى مكة، بدا واضحاً ان البريطانيين ليسوا في وارد إرسال بوارجهم لحماية حسين بن علي. وهكذا دخل الإخوان مكة، بلا مقاومة، في 16 تشرين الثاني 1914، ليجدوا مدينة شبه خالية بعدما فر معظم سكانها. وفي أقل من شهر واحد، كان ابن سعود يغادر الرياض قاصداً مكة، على طهر جمل كعادته. وكانت هذه هي المرة الأخيرة قبل ان يتحول إلى السيارات. واستغرقت رحلة ابن سعود إلى مكة 23 ليلة، تخللتها استراحات كثيرة كان ابن سعود يقضي معظمها مصغياً إلى ترتيل الشيخ عبد الله بن أحمد الحجيري. وفيما وردت على ابن سعود ان في وسعه الاعتماد على حياد الدول الكبرى(18) صلى إلى الله شاكراً، لأنه بات في علم اليقين ان ما كتب قد كتب.

أدت سياسة حسين بن علي في مقاطعة أعمال عصبة الأمم حول مسألة الانتداب، بسبب المسألة الفلسطينية، إلى تركه علياً مندون أي حماية دولية. فلم يكن هناك اذاً فائدة ترجى من مناشدة جنيف. كما ان البلدان الإسلامية لم يكن لديها لا الدافع ولا الوسيلة لمساعدته، والعمل الوحيد الذي قام به البريطانيون هو إرسالهم برقية إلى ابن سعود يذكرونه فيها بالحاجة إلى تأمين سلامة مواطنيهم وسلامة الحجاج المسلمين من البلدان الواقعة تحت إدارتهم.

كان ابن سعود يدرك تماماً مدى الأهمية التي يعلقها العالم الإسلامي على أداء فريضة الحج في ظروف ملائمة من الأمن والاستقرار للحجاج، وابن سعود نفسه دخل مكة في مطلع كانون الأول 1924 في ثياب الحج التقليدية، أي في قطعتين متساويتين من القماش الأبيض غير المشغول. ثم جعل طريقه على الاقدام نحو الجامع الكبير وهو يردد: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، رب ها أنذا بين يديك، ألبي دعوتك، واستجيب لطاعتك".

ورغم ان ابن سعود قد أخذ مكة بلا إراقة دماء، ولم يكن هناك أدنى تهديد للوجود السعودي الجديد في مكة، فلقد كان حريصاً جداً، مع ذلكن على كسب موافقة العالم الاسلامي على التغيير الذي حدث، والتأكيد، بالتالي على أن الترتيبات التي جعلت للاماكن المقدسة غنما هي لخير الاسلام والمسلمين. وفي الواقع، فان الشواهد كانت تؤيد موقفه هذا، فواقع الحال الذي كان سائداً في عهد حسين بن علي لم يكن مطمئناً: فالحاج الذي يسعفه الحظ بالوصول إلى مكة من دون تعرض البدو لهن كان يقع فوراً ضحية جشع جامعي ضرائب الشريف، هذا عدا حالات الوفيات ولأوبئة المعية التي كانت تنتشر في موسم الحج بسبب عدم تأمين الخدمات الصحية الضرورية وعدم توفير العناية الطبية المطلوبة.

ومضى ابن سعود قدماً في سياسته الجديدة، فقد أصدر بعيد أخذه مكة، إعلاناً إلى العالم الإسلامي يطلب فيه ارسال ممثلين للتداول في مستقبل الترتيبات المعدة للاماكن المقدسة. ويتفق هذا تماماً مع ما يورده الريحاني من أن ابن سعود لم يخطط يوماً لحكم مكة والمدينة.كانت تلك هي نواياه الفعلية، حقيقة، كما بدا من الوقائع التي تلت. فقد سطر غير رسالة، وأدلى بغير تصريح: أنه لا يخطط أو يسعى لتأسيس حكم وهابي على الاماكن التي كان قد بلغها سابقاً اجداده. وهذا ما جعل كاتباً يقول إن هناك فرقاً جلياً بين سياسة ابن سعود الخارجية وسياسة أسلافه، وأن فترة نفيه إلى الكويت كانت كافية للتعديل او التخفيف في حدة العامل الديني(19) في الانتشار السعودي، وفي التكيف مع القيود التي يفرضها الوجود البريطاني الطاغي في المنطقة. كما أن حساباته، وفق رأي البعض، كانت تؤكد أنه أياً تكن الترتيبات الاسلامية العالمية التي قد تقترح للاماكن المقدسة، فهي لن تنال، في النهاية، من السيطرة السعودية المطلقة على هذه الاماكن.

وتعوزنا، بالتأكيد، الوثائق الكافية كيما نحكم بطريقة صحيحة على تفكير ابن سعود في هذه الفترة(20)، كما،في كثير سواها،وذلك بشأن سياسته التي حملت في هذه النقطة بالذات، كما في غيرها، قدراً عالياً من المبادرة والجرأة، أو بشأن ردود الفعل التي قوبلت بها مبادرته تلك.

وفي مطلق الاحوال، لم يكن هناك شك في جدية وجهة نظر ابن سعود حول ضرورة إحداث تغييرات اساسية في الحجاز، وبخاصة في مكة. وكانت له آراء معروفة في أهل مكة.

"أهل مكة دبش، سكانها رابيش"(21).

وقد أسر مرة إلى الريحاني أنه لن يتزوج امرأة شيعية او امرأة من مكة، وأنه يشارك معظم أهالي نجد رأيهم في ان مكة، التي يجب ان تتميز قبل سواها بقيمها وأخلاقها والتزامها الدقيق، انما يغلب على معظم اهاليها الحيد عن ذلك كله.

ولعل من الضروري الإشارة، هنا، إلى ذكاء ابن سعود ومهارته في معالجة هذه القضية الدقيقة.لم يكن هناك استبعاد كلي للمؤسسة الدينية، بل حرص على تأكيد ان الخط الديني المتشدد لأهالي نجد ورجال الدين في مكة يجب أن يتوصلا إلى التفاهم.

عالمياً، لم يكن هناك من استجابة فعلية لدعوته سوى من الجماعة الإسلامية في الهند،وتحديداً من لجنة الخلافة الهندية. ارسلت اللجنة ممثلين لها إلى مكة، إلا أن ما أنجزوه كان قليلاً إذ انهم صرفوا معظم هدهم في محاولة عقيمة لمصالحة السعوديين م الهاشميين.

لقد كان مسعى لا أمل فيه: فالسلام وحده كان الفصل في حسم المشاكل العالقة بين ابن سعود وعلي بن حسين آخر الهاشميين على الحجاز. فكان حصار علي في جدة لاثني عشر شهراً كاملاً(22)، فابن سعود كان يفضل ابن يتحقق نصره من دون اللجوء إلى الهجوم المباشر والعنف، وسعى الى ذلك رغم أن لا أمل كبيراً فيه (23). لقد جعل ابن سعود شقيقه عبد الله بن عبد الرحمن على راس القوة التي حاصرت جدة،والتي جعلت تضيق الخناق على المدينة تحت تغطية القصف السعودي من جانب، ومحاولات القوة الجوية الحجازية الملكية فك الحصار، من جانب آخر. لكن هذه القوة كانت في الواقع بعيدة عن الوصول إلى أي من أهدافها لأن طياريها، وهم من الروس البيض واللاجئين الألمان، كانوا معنيين بسلامتهم الشخصية وليس بأي شيء آخر(24).كذلك لم تفلح القوة الهاشمية التي أرسلت من شرق الأردن في تحقيق شيء لسببين: فالعربات العسكرية لم تستطع حتى إشهار مدافعها، والجنود كانوا قد قبضوا رواتبهم.وحده ابن سعود كان يستطيع، اذا رغب خرق الحصار، وذلك باجرائه اتصالات سرية، وترتيبه إمرار الطعام وحاجات اخرى إلى السكان المحاصرين المحتاجين في الداخل، وذلك كسباً لودهم ويكمما يكون مقبولا لديهم عندما يحين الوقت المناسب لدخول المدينة .

وبينما كان حصار جدة قائماً، كان ابن سعود يتخذ اجراءات اخرى ضد المراكز الرئيسية الأخرى. فارسل قوات اللإخوان لفرض الحصار على المدينة وميناء ينبع، ولكن مع تعليمات صارمة بتجبن أي مذابح، كما عزز قبضته على مكة. ففي شباط 1925،أعلن عن تأسيس مجلس الشورى ، او المجلس الاستشاري، الذي أصح بعد ذلك أداة حكم مكة سنة 1925 ولاقت سياسته تلك، وترتيبات الحج لموسم حج السنة التي تلت، نجاحاً وقبولاً منقطعي النظير.

وأعلن ابن سعود، في شباط 1925، انه بغياب جدة كميناء للحجاج، فإن استقبال الحجيج سيجري في ما كان يومذاك مجرد مرافىء صيد سمك صغيرة مثل ليث، ورببع، وقندوفة. ولأن حجيج ذلك العام، ومعظمه من شبه القارة الهندية، كان قليل العدد فان التقارير والملاحظات التي حملها هؤلاء بعد عودتهم كانت تجمع على حسن التنظيم والأمان مع الحد الأدنى من حوادث السلب. وتركت

هذه الأخبار سمعة طيبة لابن سعود واسهمت في محو تلك الصورة المرعبة التي بعثتها مجازر الطائف.

كان من الواضح، في المعيار السياسي الدولي، ان الغلبة في الحجاز ستكون للسعوديين فبدأت،بالتالي، الأطراف المعنية بالوضع هناك بالاحتياط لآثاره المستقبلية واتخاذ الخطوات المناسبة.

تحرك عبد الله أمين شرق الاردن ذلك الصيف واحتل منطقة عمان والعقبة نازعاً عنها السيادة الحجازية او السلطة السعودية التي ستخلفها. وستغدو هذه المسألة قضية خلافية أخرى في العلاقات بين ابن سعود وبريطانيا التي لولا موافقتها لما كان عبد الله قد قام بخطوته تلك. وفي تشرين الأول1925، كان ابن سعود يتفاوض، وللمرة الاولى، مع كلايتون clayton، ممثل بريطانيا يساعده جورج أنطونيوس الذي غدا في ما بعد، مؤلف كتاب "يقظة العرب". كان البريطانيون متأكدين أن علي قد انهى وعلى ذلك، فان المفاوضات يجب أن تقوم مع الحكم الجديد وكان لكلايتون معرفة بالعربية، وخبرة واسعة بالشؤون العربية، بفعل عمله فترة طويلة في صفوف المخابرات البريطانية في مصر والسودان. ولم يتأخر كلايتون في أن يحكم على ابن سعود بأنه: "رجل حسن الطلعة، طويل جداً وقوي البنية ... وجيه نظيف جميل.. ومظهر يوحي بالقوة والسلطة. تعابير وجهه تخفي حزناً .. لكنه يضاء على نحو جذاب حين يبتسم".

وكان ابن سعود، ليلة اللقاء الأول بينهما، مضيفاً بالغ الكرم، حيث جلست شلة صغيرة من العرب وانجليزي واحد إلى مائدة من "ثلاثة خراف او اربعة مطهوة تماماً محشوة بالأرز والمطيبات وسواها".اما ابن سعود فكان شخصياً "الاكثر ضيافة وكرماً يختار أرق الطعام ويقدمه بيده" إلى ضيوفه.

ثم ينتقل كلايتون إلى الحديث في صميم الموضوع فيقول:

"من واجبي أن أسجل أنه شخصية قوية، ولكن توسع ملكه قد جلب له مشاكل وتأثيرات جديدة وغريبة عليه في آن، وما أخشاه هو انه لجهله ربما يقع في ايدي مستشارين متهورين".

ومناسبة هذا الكلام الحذر هو: أن كلايتون بدأ يلتقي،وللمرة الأولى(25)، ظواهر جديدة،لا في الجزيرة وحدها وانما في سائر العالم العربي، تمثلت في وجود مستشارين من الخارج للحكام ينطلقون في خلفيات معادية بوضوح لوجود القوى الاجنبية في العالم العربي.

وهكذا جرت مفاوضات تفصيلية،لامع ابن سعود فقط، وانما مع مستشاريه كذلك حافظ وهبه ويوسف ياسين. كان الأول مصرياً وترك مصر بسبب معارضته للبريطانيين ، وكان مطلوباً في الحقيقة للعدالة هناك. وقد غدا أكثر مستشاري ابن سعود ثقة وبقاء في خدمته، ثم كان سفيره في

لندن لسنوات.أما يوسف ياسين، فكان من منطقة اللاذقية في سوريا، فر هارباً من ملاحقة الانتداب الفرنسي، ثم أصبح أقرب الثقاة إلى ابن سعود في الشؤون الداخلية، وبجانبه دائماً تقريباً، في تماس حميم وعميق مع كل فكرة وحركة من افكار ابن سعود وحركاته، حتى قيل فيه: إنه لو كان في الصين فسيكون قادراً أن يخبرك على وجه الدقة بماذا يفكر ابن سعود وماذا يفعل.كانت المحادثات مع البريطانيين في بحرا وحدا أول محادثات مباشرة له مع البريطانيين والتي سيقدر لها ان تستمر 30 عاماً بالتمام والكمال، أي الى سنة 1955 حين انهارت العلاقات بين البلدين بسبب تفجر أزمة واحة البريمي.

خاض كلايتون جدالا عنيفاً مع مستشاري ابن سعود محاولاً تثبيت سيادة شرق الاردن على منطقة شمال وادي سرحان حيث كان الاخوان قد اغاروا غير مرة، قبل ان يخلوا المنطقة .

ووقع كلايتون مع ابن سعود اتفاقيتي بحرا وحدا التي نظمت بالترتيب العلاقة بين نجد والعراق (وخصوصاً في مسألتي جمع القبائل والحدود) وبين نجد وشرق الاردن، والتي نال ابن سعود بنتيجتها الاعتراف بسيادته على وادي سرحان. وقبل، ولو على مضض، خسارة منطقة معان والعقبة.

ومع التسوية التي تمت مع بريطانيا، صار في وسع ابن سعود التقدم باتجاه وضع حد نهائي للوجود العسكري الهاشمي في الحجاز. ففي الخامس من كانون الأول، استسلمت المدينة لابنه محمد، الذي عمل بتوجيهات ابن سعود المباشرة، كي لا يكون للإخوان دور كبير أو أساسي. واستسلمت ينبع في الحادي والعشرين من الشهر عينه، وأعلن في الوقت نفسه عن انسحاب علي بن حسين من الحجاز وهكذا، وفي الحادي والعشرين من كانون الأول 1925، كان جوردان قنصل بريطانيان يصطحب مسؤولي جدة إلى معسكر ابن سعود حيث أعلن عن استسلام المدينة. وفي اليوم التالي، أبحر آخر ملك هاشمي على الحجاز لينضم إلى أخيه فيصل في العراق.

وفي الثالث والعشرين منه، دخل ابن سعود جدة رسمياً. وفي الخامس والعشرين من كانون الأول، أي يوم عيد الميلاد، أعلن رسمياً عن نهاية الحرب النجدية الحجازية. وفي الثامن من كانون الثاني 1926،أعلن ابن سعود ملكاً على الحجاز وسلطاناً لنجد وتوابعها، ليتلقى، بعيد صلاة الظهر، مبايعة أعيان الحجاز.

وهكذا أمكن لإبن سعود، وبعد 24 سنة تقريباً من استعادته الرياض، ان يمد حدود حكمه لتصل إلى الساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية. وشغل ابن سعود، في الأشهر الثلاثة التي تلت بتلقي الاعتراف الدولي، واحدا تلو الآخر، من الاتحاد السوفييتي أولاً، ثم بريطانيا، فرنسا، وهولندا، والقوى

الكبرى التي تقع تحت إدارتها جماعات إسلامية كبيرة.اما على الصعيد الداخلي، فقد كان ابن سعود يدخل في السنوات الاربع الاكثر خطراً في المنطقة.

ففي اللحظة التي كان يدخل فيها مكة، كانت الاحداث تتوالى على الحدود مع العراق، والتي بينت هشاشة السيطرة الحكومية. ففي الخامس والعشرين من كانون الأول1924 أصيب الملازم الشاب "غلوب"،المسؤول عن قوة الحماية من هجمات الاخوان، بذعر شديد بسبب التهديد الحاصل من افراد قبيلة المطير لمجموعات الرعاة في منقطة الحدود، مما دعاه إلى قطع إجازته ليتابع الوضع ميدانياً(26). ركب غلوب مع مجموعة صغيرة من رجاله،وأوغل في داخل المنطقة المضطربة مع علمه بالمخاطر التي قد يتعرضون لها، والتي قد تصل إلى الذبح على يد الاخوان. وبعيد الفجر بقليل سمح له ضوء النهار ان يتيقن من أن اسوأ ما يمكن توقعه كان يجري فعلاً. ففيما هو ورفاقه على تلة صغيرة مشرفة تكشف الصحراء، تبدى أمامه "شعب بكامله من الرعيان يخف الخطى هرباً نحو الشمال ويملأ، كالنمل، وجه الصحراء". وكانت صرخاتهم مسموعة بوضوح "يا الله، يا محمد، يا علي، انقذنا". كانت استغاثات الرعيان وعائلاتهم تقترب بينما كان غلوب ورفاقه يحدقون ليتبينوا موقع المهاجمين وليروا الإخوان يطبقون على الرعاة وطلقات النار تتطاير من حولهم.لم يكن في يد غلوب أي حيلة نافعة سوى الاستعانة بمساعدة القوة الجوية الملكية. ورغم ان طلبه لم يستجب له الا بعد يومين فان الطائرات حضرت في النهاية، وهاجمت الاخوان وشتتتهم فانسحبوا فرادى او جماعات صغيرة، إلى داخل حدودهم حاملين معهم ما تيسر من أسلاب وغنائم.

تلخص هذه الواقعة نوع المشاكل التي واجهت ابن سعود حتى سنة 1930،فقد دخلت القوات المسلحة البريطانية على الخط الآن كقوة ضامنة للحدود التي رسمها سير بيرسي كوكس في مؤتمر الحجير سنة 1922.

ورغم أن في إنفجار غضب غلوب جانباً شخصياً حاداً، اذ لمس عياناً مخاطر السلب والذبح التي رآها مسلطة على رقاب الرعاة المسلمين الذين أحبهم، ومع أنه كان يائساً من قلة الفهم والتجاوب التي كان يلقاها في دعوته وضرورة اتخاذ اجراءات عملية لكبح جماح الاخوان، فان الأمر، مع ذلك كان أخطر بكثير، وكان سيحدث في كل الاحوال، بوجود غلوب او بدونه.

أصبح الاخوان، بعيد أخذ الحجاز، قوة خارجة عن السيطرة. وحالما أعلن ابن سعود ملكاً للحجاز وسلطاناً لنجد وتوابعها في مطلع العام 1926، ايقن الاخوان أنهم لن يكافأوا على الجهود القتالية التي بذلوها، كما كانوا يتوقعون ويرجون. فقد كان ابن سعود حاسماً في إعلانه أنه لن يعين أي قائد اخواني حاكماً في أي مدينة حجازية، مما أغضب قادة القبائل الرئيسيين، وبخاصة ابن بجاد من عتيبة، الذي كان يأمل ان يصبح حاكماً لملكه، وابن دويش الذي كان يطمح للمدينة.

ومع عودة الإخوان إلى نجد،وبسبب من الاحباط والغضب ذلك،اضطرب حبل الأمن من جديد وازدادت الغارات عبر الحدود. ومما زاد في خطورة هذه الغارات انها استتبعن خلال سنتي 1927 و1928، ردوداً بريطانية عنيفة من القوة الجوية الملكية، فبلغت في بعض غاراتها المناطق الداخلية في نجد. وكان على ابن سعود الآن ان يتخذ الموقف المناسب الذي يؤمن حماية مواطنيه الذين تجري مهاجمتهم داخل اراضيهم. استؤنفت المفاوضات مع البريطانيين وعاد كلايتون إلى الحجاز للتداول في الحلول الممكنة.احتج ابن سعود في تلك المفاوضات، في آيار 1928، بشدة على هجمات الطيران البريطاني على مواطنيه.ورغم رفض ابن سعود فكرة إقامة حصون على الدود للحد من حركة الإخوان، فانه بدا مقتنعاً تماماً أن الاخوان انما يعرضون حكمه الجديد للسقوط، وانهم يقدمون للعالم الخارجي صورة تنم عن وحشية لا حد لها.

كان في رفقة كلايتون، في جدة، غلوب الذي كان يلتقي ابن سعود للمرة الأولى. وكان لصراحة الملك وانفتاحه وضيافته أثرها العميق في نفس غلوب، إلا أنه، وكما هي الحال مع سائر المبعوثين البريطانيين الذين قابلوا ابن سعود،فقد صدم بالمستشارين المصريين والسوريين والفلسطينيين المحيطين بالملك لكونهم قانونيين دقيقين، بل حرفيين حتى العظم،الملاحظة التي لا يمكن إلا ان تشير إلى طريقة ابن سعود نفسه في توجيه الأمور. ويكتب غلوب في وصف خاتمة المفاوضات فيقول:

"أمس التقينا ابن سعود للمرة الثانية.كان مزاجه مختلفاً كثيراً عن لقاءاتنا الأولى. لقد بدا أكثر قنوطاً ومرارة. ثم وجه حديثه إلى كلايتون فقال: عندما جاء الانجليز في البدء إلى العراق هنأت شعبي، فأخذت الدهشة هؤلاء وسألوني لماذا؟ قالوا لي بأنك نعت الأتراك دائماً بانهم غير مؤمنين حقاً، فما بالك بهؤلاء وهم غير مسلمين في الاساس! اما الآن فيجب ان اعترف ان ظني قد خاب بالانجليز وبشعورهم المنكوشة(27). غادر الوفد البريطاني دون تحقيق تقدم يذكر، لكن غلوب كان مقتنعاً بان ابن سعود قد فقد السيطرة على الاخوان.

وبوصفه جندياً محترفاً، كان في وسع غلوب ان يلحظ ترتيبات ابن سعود الأمنية الصارمة. ورغم أخذه على حرسه ارتداءهم البزات الفاخرة، الا انه امتدح عمق انتباههم وحرصهم على تفتيش كل مبنى سيدخله ابن سعود، حتى الأرض التي سيجلس عليها.

كان ابن سعود يتابع مشاكل الإخوان عن قريب، والتي لم تسلم منها حتى الأماكن المقدسة، اثناء موسم الحج للعام 1926، فقد كان ذلك موسم الحج الأول الذي يحضره مسلمون من اقطار العالم كافة، إلا أنه ، وفي وسط هذه الاحتفالات، وقعت مذبحة أخرى تسببت عن موقف الاخوان من

جديد. نشأت المشكلة حول المراسم التقليدية المتعلقة بالكعبة ، قلب تقاليد الحج ومركزها. فقد كانت كسوة الكعبة، وهي من القماش المطرز بعناية بالأسود والذهبي تبدل كل عام.
وقد جرت العادة أن تصنع الكسوة في مصرن وتجلب في احتفال كبير يحملها الحجيج المصري ويحميها حرس المصري خاص مسلح ومجموعة مرافقة. وبينما جلبت الكسوة وسط حشود الحجاج في مكة، محمولة على محمل خاص، حدث هياج تسبب عن صراخ الاخوان ورفضهم مرافقة الموسيقى، ثم قذفهم الحرس بالحجارة، فما كان من هؤلاء غير الرد باطلاق الرصاص، مما تسبب بمقتل ما لا يقل عن اربعين حاج، ولم تنته الا بتدخل ابن سعود شخصياً لوقف المذبحة.وكان من نتائج إهراق الدماء في محيط الكعبة قطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر لعشر سنوات.
عاد ابن سعود من الحجاز إلى الرياض بعد انتهاء حج 1926، ومن الاهمية تسجيل أنه عاد، هذه المرة، بالسيارة. الا ان حاشيته كانت تحتاج إلى تسع سنوات أخرى كي تتخلى، هي أيضاً، عن الجمال الى السيارات، وستتحول السيارات بالتأكيد إلى وسيلة أمان أخرى لابن سعود في مواجهة المخاطر الشخصية المحتملة، ومن الاخوان خصوصاً.
ففي تشرين الأول 1926، اجتمع في أرتاويا زعماء القبائل الكبرى الثلاث التي اعدت التمرد ضد ابن سعود، وكانت التهم التي ساقوها ضده تتضمن تهمة ارسال اولاده في زيارات الى البلدان التي يسودها الشرك والكفر، أي إلى مصر التي زارها ابن سعود نفسه، وانجلترا التي زارها فيصل مرة ثانية سنة 1926 برفقة مستشار ابن سعود للشؤون الخارجية الدملوجي، ثم لاستخدامه منتجات الشيطان والكفرة، وتحديداً السيارات والبرقيات والتلفون. وهو كذلك قد سمح لقبائل شرقي الاردن برعي اراضي المسلمين، أي مراعي الاخوان، إلى الضعف والتردد في أداء واجباته الدينية بقعوده عن نشر دعوة الشيخ بين شيعة الأحساء .
وكان رد ابن سعود تنظيمه، في كانون الثاني 1927، مؤتمراً في الرياض لقادة علماء الإخوان، حضرته معظم الشخصيات الرئيسية باستثناء ابن بجاد من عتيبة الذي أعلن مقاطعته. وجرى في المؤتمر الاعلان المباشر عن بعض المطالب الإخوانية من مثل منع الحرس المصريين من دخول الحجاز باسلحتهم ومرافقة المحمل، وحمل الشيعة على تلقي بعض التعليم الديني على ايدي دعاة وهابيين. وكان ابن سعود إنساناً مرناً، فقد ارتأى تأجيل المواجهة النهائية مع المنشقين من الاخوان. لقد كانت هناك مسائل دولية يجب استيضاحها اولاً، فكانت الخطوة الحاسمة الأولى في أيار 1927 عندما وقعت اتفاقية جدة مع بريطانيا. فقد أعطت هذه تأكيداً على مضامين اتفاقيتي بحرا وحدا، واعطت فوق ذلك لكه اعترافاً علنياً بوضعه كحاكم مستقل ذي سيادة، كما الغت اتفاقية الحماية المعقودة مع بريطانيا في كانون الأول 1915.

ففي أواخر سنة 1927ن ضغط البريطانيون على ابن سعود ملمحين إلى الحاجة لتقييد حركة الإخوان،متذرعين بتفسيرهم لواحدة من اتفاقيات بروتوكولات الحجير في كانون الأول 1922، والتي تقول في فقراتها الثالثة: (28) "تتعهد الحكومتان بمنع استخدام اماكن المياه والآبار الواقعة بجوار الحدود لأي غرض عسكري مثل بناء الحصون عليها، ولا تتمركز أي قوات في جوارها".

ففي ايلول 1927ن بدأ العمل بناء مركز شرطة على آبار بوسايا busaiya، على بعد 115 كلم داخل الحدود العراقية. ووفق التفسير البريطاني للنصين الانجليزي والعربي،كان مثل هذا الاجراء مشروعاً تماماً، لكن الاخوان اعتبروا الأمر على خلاف ذلك. وعلين، فقد قام أفراد من قبيلة المطير في الخامس من تشرين الاول بقيادة فيصل بن دويش بمهاجمة المركز الذي كان قيد البناء، فذبحوا كل من كان هناك، مشوهين في الجثث على نحو بشع، كأنما هي اشارة مقصودة للفت انتباه ابن سعود والبريطانيين والعراقيين في آن معاً. كذلك تسبب الاخوان بحالة هلع في مدينة الكويت باغارتهم على الاراضي الكويتية غير البعيدة عن مدينة الكويت نفسها.

كانت هذه التطورات على الحدود مع العراق والكويت النتيجة الحتمية الأخيرة لمجموعة مسائل متناقضة: مثل التنافس السعودي _ الهاشمي، تناقض نظام الانتداب مع المؤسسات المحلية القائمة على نظام حقوق القبائل. وأخيراً، وربما الأكثر ضغطاً،تنامي الانشقاق داخل نجد على قاعدة المسافة الآخذة بالتباعد بين الاخوان وابن سعود.

يجب الاستدراك بالتأكيد أنه لم يشترك لك الاخوان في التمرد ضد ابن سعود، والذي أخمد في كانون الثاني 1930. الا انه، حتى اولئك الذين لم يشتركوا في اعمال التمرد المسلح، عبروا عن عدم رضاهم على العديد من سياسات ابن سعود. فالارتباط بقوة مسيحي، الارتباط بالانجليز، هو ارتباط مشبوه جداً عند الكثير من النجديين وفق ما سجله فيلبي سنة 191نوحتى اثناء مفاوضات الحجير سنة 1922، والتي مررنا بها، حذر عبد الله القصيبي ابن سعود من وضع عنقه في المقصلة البريطانية.

وكان غير دليل وملاحظة يشير إلى نوايا الانكليز تلك، كتثبيتهم على شرق الاردن والعراق، العائلة نفسها التي طردها الاخوان من الحجاز. والواقع انهم ، أي الانكليز، يحدون اليوم من حرية القبائل في ارتياد آبار المياه. وهو دليل على مناورتهم بهدف اذلال الأعراب. وهؤلاء ايضاً، الذين اعتمد عليهم ابن سعود، هم الذين جلبوا الآلات الجديدة الشيطانية مثل التلفون والسيارة والاتصال اللاسلكي. لقد واجه ابن سعود وطوال عامي 1927 / 1928 معارضة علنية صريحة لكل التغيرات التي ادخلها، تقريباً، مع انه لم يكن في وسعه مثلاً قيادة الحملة الاخيرة على منقطة عسير سنة 1927 من دون المحطة اللاسلكية التي بناها ماركوني في قنفيده qunfdha.

هذه الاجتماعات جعلت ابن سعود يدرك ان هناك معارضة حتى لابسط اشكال التحديث: فعلى الرغم من انه لم يكن هناك في البلاد، سنة 1926، اكثر من دزينة من السيارات، او نحو ذلك، فان التفكير السائد والمهيمن بلغ درة احراق اول شاحنة شوهدت في منطقة حوطه(29).

في حدود سنة 1928، لم يعد في وسع ابن سعود الا الرد على ادعاءات الاخوان وتهمهم. فنظم في تشرين الثاني 1928 مؤتمراً في الرياض لزعماء القبائل حضره حوالي800 من قادة الاخوان والعلماء وقادة المستوطنات. كان هدف ابن سعود في المؤتمر دعوتهم لعرض مطالبهم ومطالعاتهم، فأصغى اليهم وتناقش معهم لأكثر من تسعة أيام.

جرى الإعداد للمؤتمر بدقة وعناية كبيرة، وخصوصاً من حيث أماكن الجلوس لثمانمئة شخص واحتياجات هؤلاء الأشخاص. وما ذلك الا لشعور ابن سعود انه مؤتمر حاسم.

وجاءت مقاطعة أهم زعماء الاخوان، بن دويش من المطير ،بن بجاد من عتيبة وحثلان من العجمان، لتوضح ان المؤتمر سيكون بطريقة او بأخرى نقطة تحول فاصلة في ادارة ابن سعود للعلاقات مع الاخوان.

كانت استراتيجية ابن سعود سياسية تلقائية ومباشرة، بلغت حد عرضه التنازل عن الحكم لتحرير مواطنيه من واجب الولاء له وليختاروا من شاؤوا من اسرته خليفة له.

وكان رد فعل الحضور كما يصفه الزركلي كالآتي:

"صرخ الاخوان، نحن براء أمام الله مما فعله دويش لقد اطعناه هو ومن معه.

ونحن على استعداد لمهاجمته وانزال العقاب به.

عبد العزيز... نحن نبايعك الولاء والطاعة.سنحارب من ترغب بمحاربته على شمالك وعلى يمينك..... وحتى لو دفعتنا إلى البحر سنذهب... نحن نتعهد بالولاء لك، نحارب من يحاربك ونعادي من يعاديك.... سنكون معك ما دمت تحكم بشرع الله بيننا(30)".

وربما كانت أهم نتائج المؤتمر رفض الاخوان ان في وسعهم اعلان الجهاد دون العودة إلى الامام، أي إلى ابن سعود.

وابن سعود الآن يرث لقب الإمام من دون تحفظ إثر وفاة والده في حزيران 1928 بينما هو في مكة. وحين بلغه النبأ كان وقع ذلك مشهوداً كما يصفه شاهد عيان مرموق، هو يهودي بولوني ومراسل اجنبي سابق تحول إلى الاسلام ليصبح فيما بعد لا كاتب سيرة ابن سعود فحسب، وبل مندوباً لباكستان في الأمم المتحدة كذلكن محمد اسد، الذي كتب انه "لن ينسى تحديق ابن سعود غير المصدق بينما هو ينظر لثوان في حامل نبا وفاة والده، ولا ينسى اليأس الذي ملأ تدريجاً وبوضوح قسمات وجهه التي كانت في العادة جادة ومتماسكة".

قفز ابن سعود مزمجراً:

"والدي مات!"

ثم خرج راكضاً من الغرفة، عباءته على الارض خلفه..عبر المدخل بين دهشة رجاله، لا يعرف هو نفسه الى أين، او لماذا، بل يصرخ ويصرخ: "مات أبي مات أبي".

لقد كان هناك على الدوام اجماع بين عارفيه على عمق احترام ابن سعود لوالده .ولنا شهادة موضوعية من شاهد قدير، هو القنصل الهندي في جدة سنة 1926،الذي كان حاضراً عندما وصل عبد الرحمن إلى جدة بعيد تسليمها لابن سعود.

ويسجل فاندر مولن كيف ركع قاهر الحجاز على التراب إلى جانب حصان والده،ثم كيف نزل العجوز عن حصانه مستنداً إلى كتف ابن سعود قبل ان تصل قدماه إلى الأرض. حينما كان ابن سعود يدخل الرياض، كان يرسل دائماً مستأذناً والده في الدخول إلى العاصمة.

كان بان سعود، كما يروي محمد أسد، شديد التواضع امام والده، فكان يرفض مثلاً الدخول الىغرفة في الطابق العلوي من قصره اذا عرف ان عبد الرحمن هو في بهو الاستقبال. وكان يقول" :كيف اسمح لنفسي ان أسير فوق رأس والدي. كان لوفاة والده وقع الصدمة الكبرى عليه فبقي ليومين يرفض ان يرى أحداً، او ان يتناول أي طعام او شراب، بل صرف الليل والنهار في الصلاة.

ولعل الاكثر دلالة هو ما اشار إليه الزركلي من ان ابن سعود كان يزور قبر والده بانتظام مع العلم ان المدافن في تقاليد الوهابيين لا يجري تمييزها بشيء،ولا حتى ببلاطة الرأس.

كان ابن سعود يستشير والده على الدوام في كل المسائل المهمة،اما الآن فهو من دون هذه الاستشارة في واجهة الازمة الناشبة مع الاخوان. وبعد مؤتمر الرياض كان مركز ابن سعود الجديد قد شق طريقه بقوة إلى المزيد من الثبات، وفي الوقت نفسه كان الاخوان قد بدأوا وللمرة الأولى بمهاجمة النجديين.

ففي كانون الأول 1928، هاجمت جماعة من عتيبة تجار جمال من منطقة القصيم غير مسلحين فقتلوهم جميعاً وأخذوا جمالهم بمثابة غنائم. وكان ذلك منتهى التحدي. ففي مهاجمتهم الآن لمواطني ابن سعود فهم انما يضربون بذلك أسس الدولة السعودية ومظاهر القانون والنظام فيها.

وهكذا فقد بدا **ان** مهلة التفاوض معهم قد انتهت.

**الحياة العائلية**

لم يتزوج ابن سعود في هذه الفترة بزوجات أنجبن له أولاداً ظلوا على قيد الحياة.

ما يجب تسجيله هنا أنه، والى نهاية حياته، كانت نسبة وفيات الأطفال في نجد نسبة عالية، يقدرها فيلب، سنة 1918، ب 75% إلى 80% (30).

وليس هناك من دليل على أن ابن سعود قد عدل في هذه الفترة عن سياسة الزواج او مصاهرة القبائل.

اما الابناء الذين ولدوا له في هذه الفترة فهم:

1_ عبد المحسن، آخر ولد لعبد العزيز من زوجته جوهرة، أرملة شقيقه سعد.

2 _ مشعل،الذي خلف منصور في وزارة الدفاع بعد موته سنة 1951.

3 _ سلطان، الذي يشغل وزارة الدفاع منذ سنة 1962.

4 _ متعب، الذي ولد سنة 1928.

كذلك فاننا لم نشهد، في هذه الفترة، زيادة عدد أبنائه فحسب، وانما ازدياد أحفاده كذلك.

ففي فترة العشرينات هذه، ولد لسعود وفيصل، الملكين بعد ذلكن أبناء وبنات.

**الفصل السادس**

## ابن سعود في الخمسين

لقد فرضت مملكتي بسيفي، وبجهودي، فليضع ابنائي من بعدي جهودهم أيضاً

(ابن سعود)

عن محمد أسد، الطريق إلى مكة، لندن 1954، ص178

من يعمل في طاعة الله، لن يكون صعباً عليه فرض الطاعة لنفسه

(ابن سعود)

عن د.فاندرمولن، ابار ابن سعود لندن1957،ص 61

امشي إلى المعركة واثقاً من نصر الله.

لتكن واثقاً من عونه وتأييده.

( ابن سعود)

عن الزركلي، الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز في اربعة اجزاء( بالعربية) بيروت 1970 ص984

رغم أن ابن سعود "يعتبر متشدداً في الالتزام بالفرائض الدينية إلا أن التعصب الذي طبع الصور الاولى للوهابية يبدو غريباً عن طبيعته.

الموسوعة البريطانية، ط 14، نجد، ص 301

يمكن اعتبار السنة التي مات فيها والد ابن سعود نقطة ملائمة لتبين شخصيته وانجازاته والتوقعات المحتملة، وذلك بعد خمس وعشرين سنة من تسلمه قيادة آل سعود وستمر خمس وعشرون سنة أخرى حتى وفاته.

ومع افتراض ان ابن سعود ولد سنة 1876،فانه الآن يكون في الخمسين من عمره. إنه حد استثنائي في حياة الفرد، مع احتمال ضئيل في ان يكون قد اتيح لابن سعود ان يحسب سنوات عمره، او ان يتوقف عند هذا اليوم الخاص في حياة كل انسان. الا انه بالمقابل وفي هذه الحقبة، بين 1926،1928، كان لديه غير مناسبة للتأمل، وغير لحظة للتفكير في كيفية تثبيت موقعه كحاكم. ففي حدود سنة 1928، كان قد انجز ما يمكن اعتباره الصفحة الأخيرة في فصول تأسيسه لمملكته: فقد وقع للتو اتفاقية مع بريطانيا اعترفت فيها بالاستقلال الكامل للملكة. ولعل، في لحظة من اللحظات استرجع أهمية هذا التغيير في علاقته ببريطانيا إذا ما قيس بما خبره في مطلع ربع القرن الثاني من عمره، حين التمس آل سعود ود بريطانيا وقربها للحصول على وضع الحماية وتجاهلت هي ذلك على الدوام، في حين أنها الآن مشغولة، وفوق أي شيء آخر، بالحد من طموحات ابن سعود ومنع التمدد من نجد والحجاز باتجاه المناطق الهاشمية التي غدت مناطق انتداب بريطانية.

في وسع ابن سعود ان يتأمل كذلك هذا الانتقال في مراكز القوة على المسرح الدولي، فقد شهد انهيار الامبراطوريات الروسية والهنغارية _ النمساوية والالمانية، ثم كان طرفاً في انهيار الامبراطورية العثمانية. ( وقد تساءل ابن سعود(1): هل كانت ملايين عبد الحميد نافعة له؟) ولم يفته بالتأكيد حس السخرية في ملاحظة أن الدولة الأولى التي سارعت إلى الاعتراف بالمملكة النجدية _ الحجازية الجديدة هي روسيا السوفييتية، الدولة الشيوعية الملحدة. كان لابن سعود على الدوام حسه الثاقب الخاص في ابداء التقدير المناسب في الوقت المناسب، لعامل القوة المتمثل بالمال والسلاح. والأهمية الكامنة في نجاح الثورة البولشفية في تحقيق نقلة كبرى على مستوى دولة عظمى لم يفت ابن سعود، مثلما فات سواه من الحكام والسياسيين. لقد كان لديه ما يشبه ذلك، او يقترب منهن فعدم الاستقرار يسود أجزاء كبرى من مملكته على الحدود ومع القبائل في الداخل. كما ان اختبار القوة الكبر مع الخوان كان في الطريق ليجعل سنة 1928 السنة الاكثر حسماً في دفع المواجهة مع الإخوان إلى مستوى التحدي العلني والمفتوح لحكمه من قبل القادة القبليين المتمردين الثلاثة: قادة المطير وعتيبة والعجمان.

ولم يكن هناك بالمقابل من استقرار على أي من حدود مملكته. فالغزوات عبر الحدود مع العراق مستمرة، والخلاف مع الكويت قديم ومتجدد وطويل، ويتجسد، راهناً ، بتمجيد السعوديين للتجارة معها. والحدود مع قطر وابو ظبي لم تكن، في يوم من الايام، أقل تحديداً مما هي عليه اليوم، وهي مثار صعوبات ومشاكل مع بريطانيا والحكام المحليين في آن.اما عمان فقد كانت العلاقة معها مختلفة نسبياً، وذلك إلى، الداخل نفسه كانفي حالة اضطراب، بينما كان للسعوديين مطالب

داخلية في مد نفوذهم قدماً إلى مسقط نفسها. والى الجنوب الغربي، كان هناك اضطراب دائم في منطقة عسير، كما هي الحال على الحدود مع اليمن نفسه.

يستطيع ابن سعود ان ينظر، بكثير من الرضى، إلى ما حققه من هزيمته للأتراك وسط الجزيرة وشرقها، وطره للهاشميين من الحجاز، وتغلبه في الصراع على السلطة مع آل رشيد في حائل ومع سواهم، الا انه، مع ذلك،لا يستطيع أن يأمن الا للأتراك الذين لا أطماع لديهم الآن. فالهاشميون لا يخفون عداءهم،وهم لم يخفوه إلى يوم وفاة ابن سعود. وآل رشيد في حائل، ورغم كل مروءة الملك وشهامته، فمن غير المتوقع ان يكونوا قد تخلوا عن كل طموح: فافراد العائلة الباقون يجب ان يظلوا ضيوفاً مكرمين وبالقرب مه على الدوام.

لقد غدا ابن سعود الحاكم الأقوى في الجزيرة، الا أنه مازال مبكراً استنتاج أن مملكة نجد _ الحجاز محصلة نهائية "لقدر ملائم" وان امتدادها من البحر إلى البحر هو انتصار نهائي وثابت لها "كمملكة". وبالاضافة إلى المشاكل الداخلية والضغوطات الخارجية، كان على ابن سعود أن يواجه أيضاً وأيضاً مشكلته المزمنة وهي النقص في الموارد المالية والطبيعية لبلد مترامي الأطراف.

والعجيب أن يبقى ابن سعود، وقد واجهته كل هذه المشاكل على الهدوء نفسه،

والعجيب أن يبقى ابن سعود، وقد واجهته كل هذه المشاكل على الهدوء نفسه، والسمات التي وصف بها في هذه المرحلة. إن جزءاً كبيراً من لا مبالاته الظاهرية لا يمكن تفسيره الا من خلال ابن سعود الديني العميق، وسيكون هناك القليل مما نستطيع إضافته حول عمق معتقده, وحول العلاقة بين الايمان والصبر. ووفق أحد الكتاب، فالأدلة أكثر من أن تحصى على أن ابن سعود لم يغر لحظة واحدة بساطة آرائه في أن الإسلام هو الكشف الالهي الأخير للبشرية، وأن منتهى سعادة الانسان ان يكون مسلماً حقيقياً. ولقد شاء الله النصر للاسلام ومن ينصره الله فلا غالب له (حتى وهو يعطي موافقته على توقيع الاتفاق النفطي مع الاميركيين سنة 1933، كان يقول لوزير ماليته: "توكل على الله ووقع"). وكان لابن سعود لذة حقيقية في الانصات باستمرار إلى ترتيل القرآن وقراءة الحديث، وسيرة الرسول، أو القراءة عنه، بل كان يعظ في مسائل الدين كما يسجل الريحاني. وحين ينعقد مجلسه كان يقترح موضوعاً دينياً للنقاش ثم كان يوجه النقاش ويتدخل فيه بين الحين والحين لتصويبه.وقد ظل على ديدنه هذا حتى الأيام الأخيرة من حياته تقريباً. لقد بهرت بساطة معتقداته الدينية وعفويتها مختلف زائريه ومحاوريه، طوال حياته، ومنهم الرئيس روزفلت الذي التقاه سنة 1945. وقد وجد الرئيس ان منتجات هوليود غير مقبولة بالكامل أنها تحرف مواطني الملك عن اداء واجباتهم الدينية .

ان طبيعة ابن سعود الدينية الصارمة هي فوق كل نقاش. غير أن ذلك لا يتعارض مع كونه يبقى انساناً على الدوام ففي حدود سنة 1928، كان ابن سعود قد قضى25 سنة ملأى بالاضطراب والتوتر والقتال الدائم الذي اشترك فيه شخصياً" والمرة الاخيرة التي كان عليه ان يتولى فيها القيادة الميدانية، شخصياً، جاءت بعد عامين من هذا التاريخ. وكان من الطبيعي، بالتالي، أن يكون لهذا التوتر المستمر انعكاسا وتأثير في سلوكه بين الحين والحين.

ويقدم الريحاني بعضاً من اكثر الملاحظات وضوحاً حول الحالات التي كان منها ابن سعود في حالة غضب وعلى درجة من العنف يشعر مشاهده معها بنوع من الرعب: "يصبح فمه كالحديد، شفتاه مشدودتان شاحبتان ترتجفان .. يذهب كل سحر لملامحه لتحل محلها تعابير قاسية ووحشية" (2). ويكمل الريحاني فيقول" من المرعب أن ترى ابن سعود وهو في سورة الغضب هذه ، إلا ان العاصفة كانت دائمة تمر سريعة. يمكن للعاصفة ان تمر سريعة، ولن، والى أن تنتهي، كانت تبدو شيئاً غير اعتيادي، تطغى على سلوك ابن سعود بكامله، وعلى نحو قد يؤذي كثيراً موضوع غضبه. ففي اول لقاء لفيلبي مع ابن سعود سنة 1918 أخذته الدهشة وهو يراه يضرب بشراسة فهد،ابن الحاكم الأكثر إخلاصاً له، ابن جلوي، لانه اعتدى بالضرب على أحد حراسه. لم يكن الزركلي، كاتب سيرة ابن سعود، في اربعة مجلدات، يتوقف كثيراً عند سورات الغضب هذه من مثل ضرب خدمه، لكنه يؤكد ان مثل هذه الحالات كانت تستتبع فوراً بالهدايا(4).

ولعلنا لا نتهم بالكفر اذا قلنا انه على المستوى الانساني فان اسماء الله الحسنى التسعة والتسعين(5)، والتي يستعيرها المسلمون كأسماء علم شخصية، يمكن ان تقسم إلى نوعين، تلك التي تبعث على الخوف والرهبة، وتلك التي تبعث على الود والتأثر. ويمكن النظر إلى مواقف ابن سعود وردود فعله تحت هذين العنوانين تماماً .

الا ان الصفة الاكثر رهبة في ابن سعود تبقى، من دون شك، وصيته في انقاذ حكمه ومن خلال اقصى العقوبات. فقد كانت سمعة ابن جلوي في تطبيق القانون والنظام في المنقطة الشرقية(6)، عبر أساليب من القسوة البالغة، قد بلغت مدى واسعاً، لكنه في الحقيقة كان يطبق ارادة ابن سعود نفسه. لم يكن عند ابن سعود ادنى شك في الطابع الرادع للعقوبات حتى وإن بدت أحياناً قاسية او بشعة. ولقد رأينا الريحاني ينقل عنه قوله في بعض الاخوان سنة 1922: "لا تنسوا، ليس بينكم من لم نذبح له اباً أو أخاً أو عماً. أي، بالله، لقد طوعناكم بحد السيف(7)".

ويروي الدكتور دام، dame من البعثة الطبية الاميركية في البحرين، انه قد اسعف شخصاً كان في حالة إغماء إلى حد الموت، بعد مشاهدته للمرة الاولى، لعملية قطع راس في الرياض. ونفذت

عملية قطع الرأس حين اقتيد الرجل للجلد، او هكذا قيل له، ولم يعلم البتة أن الملك قد امر بتغير الحكم وقطع الرأس(8).

لقد كان لصيت ابن سعود القاسي هذا أثره في دفع العديد من اخصامه لقبول ابتسامته ويد المصالحة التي يمدها لهم. تلك هي الحال مع بعض المنشقين من آل سعود وبعض قادة القبائل، ومع آل رشيد في فترة ما قبل 1928. أما بعض الاخوان الذين لم يأخذوا هذا الامر في الاعتبار فكان عليهم ان يواجهوا مجتمعاً دموياً لا يبقى معه مكان للاسرى. في حدود سنة 1928، كان لابن سعود الوقت اللازم ليفرض على الحجاز حكام القانون والنظام والردع الصارم لأي مظهر من الفلتان شبيه بما شهدته نجد والاحساء لسنوات. ويعطي كاتب سيرته ومترجمه، محمد الماني، امثلة عدة على كيفية فرض الحكم الجديد على مناطق الحجاز التي كانت عرضة للاضطراب، حتى في ايام الهاشميين الأكثر قوة، وبخاصة تعديات البدو على الحجاج أو المسافرين العاديين. ولعل مثلاً واحداً نورده يكفي.

فقد اعتقلت القوى الامنية التابعة للامير السعودي حاكم المدينة قاطع طرق موصوفاً عرف لسنوات بسلبه الحجاج في العلن، فربطت ساقا الرجل معاً، وقيدت يده، ثم رمى إلى عليقة وترك في الشمس يموت ببطيء. ثم القي الجسد المتحلل بعد ذلك على قارعة الطريق عبرة لمن يرى(9). وهكذا تمكن ابن سعود، ومثل هذه الوسائل، ان يعطي الحجاج إلى بيت الله، أخيراً الشعور بالأمان التام.

لم تكن شجاعة ابن سعود واحتماله المشقات من بنات خيال المؤرخين، بل كانت وقائع لا تحصى بلغت درجة القتال المباشر في سنوات حملاته الكثيرة حتى سنة 1930. اما الاسئلة حول الدوافع أو الافكار التي تقف وراء ذلك كله فما من اجابة محددة او واضحة عليها،ولا حتى تصريحات ابن سعود نفسها تساعد في حلها.

ينقل أمين الريحاني عنه قوله انه دفع نفسه إلى عملية احتلال الرياض بسبب الحزن الذي شعر به لفقدان زوجته الاولى (10): " وهكذا تركت الكويت إلى نجد انشد الوحدة والنيسان".

كان ابن سعود متميزا طوال حياته بالسعادة التي يجدها في صحبة النساء اللواتي يرحنه، سواء أكن زوجات، أم محظيات، أم شقيقات، أم قريبات، ولعل ملاحظته إنما تفهم في هذا الاطار، والحاجة إلى نيسان الحزن ربما كانت عاملاً مساعداً (مع أن ابن سعود كان مخطئاً حين تحدث عن زوجة اولى، فالمقصود زوجته الثانية التي صرف معها سنتين في زواج سعيد إلى ان كانت وفاتها) ليس من داع للاسهاب في أن الدافع الحاسم لابن سعود لقيادته الهجوم على الرياض واستعادتها انما هو ذلك الذي ذكر به في مناسبة عرضنا له حين قال: "لا والله، ما

كان حقاً لأجدادنا هو حق لنا، فان لم نستطع الحصول عليه بالحسنى عليه بالحسنى حصلناه بالسيف"(1).

وبناء على هذا القانون الذي أرساه، كان على قوة يمناه، وعلى مهارته كقائد أن تحل مشكلة الحقوق تلك، وكان له في ذلك شجاعة مشهودة في غير مناسبة. وقد كان جسده حتى وفاته، كما تبين، يحمل آثار الجراح التي أصيب بها في غير معركة منذ سنة 1902، وكان أحدها جرحاً بالغاً كنا قد رأينا، قبل بعض الوقت، خبر موقعته الشهيرة قبل الحرب العالمية الأولى حين اصيب في معدته. وكيما يثبت لرجاله أنه مازال بخير وقادراً على القيادة، استمر بينهم يصدر أوامره ثم ليأخذ "عروساً له في لظى المعركة". ويروي طبيبه، رشاد فرعون، بعد حين، ضروباً من شجاعته وقسوته وكيف انتزع له رصاصتي مدفع رشاش من أسفل بطنه. وبينما كان الطبيب يحضر المخدر، سأله ابن سعود ماذا يفعل؟ فلما اخبره جعل يضحك "واخذ المبضع بنفسه" وأزاح به اللحم من على الرصاصتين ليتمكن فرعون من انتزاعهما(12).

وفي كل الاحوال يعترف ابن سعود ان الحظ لعب دوراً كبيراً في حياته وكان إلى جانبه، ولاحظ هنا هو اكثر من مجرد حسن الطالع، بل لعله بعض ما يعنيه "النصيب الذي يختاره العلي القدير"، والذي يعرفه تماماً اولئك الذين لم يكتب لهم ان يملكوه. والحظ الاكبر بالمعنى المادي، ربما، هو مصادفة ان يترامى حكمه فوق اعظم امدادات لنفط في العالم،الا ان الحظ كان يعني شيئاً آخر(13) لابن سعود في انتزاع الرياض من آل رشيد سنة 1902 وأياً تكن تفاصيل الجزء الاخير من العملية، فان من الواضح، ومع افتراض وجود أحسن الخطط وافضل المراقبة، فان انجاز ما انجز ما كان ليتم لولا الحظ. كان يمكن للعملية باسرها ان تفشل لو كانت جراح ابن سعود اكثر خطورة، او لو انه قتل، أو لو ان بوابة الحصن لم توصد.

وبعيداً عن امثلة نجاته في غير حمله له قبل الحرب العالمية الاولى، فان حظه كان حاصراً بقوة بينما كان يقاتل اعمامه سنة 1912، فبدلاً من أن تدخل قدمه في حلقة السرج، علقت بثيابه، فانطلق حصانه على هواه،واتجه صوب موقع خصوم ابن سعود، فما كان من جنوده، وقد رأوه مندفعاً إلى الامام، إلا ان خفوا خلفه فاحتلوا الموقع. وسرى بعد الحادثة تعليق طريف يقول: " انتصر ابن سعود بسبب خطأ فرسه".

وفي حملته ضد الهاشميين سنة 1991، كان من حظه أن يلطم عبد الله بن الحسين وجه خالد بن لؤي، القائد المستقبلي للإخوان. وقيل من جديد: إن الحظ كان بجانب ابن سعود، وان عرشاً سقط بفعل صفعة كف.

ومع نهاية حصار جدة، كانت قوات ابن سعود تشكو من الارهاق ونقص المؤن، وبخاصة الطعام ، ولما لم يكن هناك من سبيل لتلافي النقص، فقد توجه ابن سعود إلى قواته "من يرغب بالرحيل يستطيع ذلك. بالنسبة لي انا باق والله يفرج كربنا".

وعند هذا الحد، تضيف الرواية، جاء تاجر من ربيع ومعه عشرون جملاً محملاً طعاماً، وكان شقيق الرجل قد قتل على يد حسين بن علي، عدو ابن سعود وهكذا انتهت أزمة الطعام. واثناء حصار جدة كذلك، تروي حادثة اخرى تقول انه، في الايام الاخيرة للحصار، اراد قادة القبائل انهاء الحصار وشن الهجوم على المدينة. لكن ابن سعود أجابهم: أن لا عنف، وأنهم احرار في ان يرحلوا أو يبقوا ويتابعوا الحصار. وتدخلت اليد الخفية من جديد، فاذا الأنباء، في اللحظة عينها تقريباً، أن الملك علي بن حسين قرر اخيراً الاستسلام.

لقد جلب الحصار الطويل في الحجاز عدداً من الحوادث المتشابهة الاخرى، التي قد تكون او لا تكون صحيحة، لكنها أسهمت كلها في تعزيز أسطورة ابن سعود صاحب لاحظ السعيد. ومما يروى أيضاً: نجاة ابن سعود من الغارات الجوية (14) حين لجأ الهاشميون إلى قوتهم الجوية وطياريهم المرتزقة. وليس بعيداً عن ذلك قول ابن سعود: "اذا بعث الله لأولادي الحظ نفسه الذي بعثه لي، فسوف يكون في وسعهم حكم العالم العربي"(15).

وبين خصال ابن سعود البالغة التأثير، كرمه. وتبدو أخبار كرمه هذا أغرب من الخيال، اذ شاع عنه انه رجل عنيد ورجل كريم، وحتى حين تكون موارده في الحد

الادنى. ومن الصعب القول: إنه كان يعطي بلا حساب، أو من دون هدف. فلقد نقل عنه غير مرة قوله اننا نعطي البدو في ايام الخير فيردونه لنا أضعافاً في يوم حاجتنا،وفي كل الاحوال، فان ابن سعود نفسه قد أرسى معايير تقديم الهدايا إلى ضيوفه، بحسب درجاتهم كما أن العطاء كان مصدر سعادة له طوال حياته. كانت لعفويته في حديثه وتصرفه وابتعاده عن المظاهر الفارغة الاثر الطيب عند كل الذين التقوه او زاروه، اعلاهم وادناهم في آن.كان معتدلاً بسيطاً في مأكله لا يتغير تقريباً. فإفطاره من الخبز والعسل وحليب النوق، وغداؤه من اللحم والأرز المطهوين جيداً، مع قليل من الخضروات، أما عشاؤه، فيكون كالغذاء في الغالب، مع اضافة بعض الحلوى، وكان الحليب المفضل عنده حليب النوق(16)، وماؤه المفضل هو الذي يجلب من بئر في مكة يعود إلى عهد الرسول.وكان يشرب كميات كبيرة من القهوة، ولعله لم يشرب الشاي الا نادراً.

سحرت بساطة ابن سعود فيلبي منذ لقائهما الاول سنة 1917، ففي كتبه الكثيرة، ينقل الصورة عينها دونما تغيير. وأحد اجمل مشاهد تلك الصورة يعود الى سنة 1918. هذا المشهد يصفه فيلبي بالحفلة الملكية التي اقيمت في باحة القصر بالرياض(17)، وذلك بمناسبة موسم العناية بالجمال،

فقدم الطعام والشراب للعمال بينما ابن سعود وعائلته بينهم رواحاً ومجيئاً وكان ابن سعود شخصياً الأكثر ابتهاجاً والاكثر كرماً.

لم يبلغ ابن سعود السيادة والاستقلال بسحره وبساطته وكرمه بالتأكيد.بل إن خصالاً اخرى غير اعتيادية قد لازمته في أداء مهامه المستحيلة، والتي جعلته الحاكم الاوحد فيما لم يكن له يوم بدء مسيرته غير موطىء قدم صغير في الرياض وموارد لا تكاد ترى.

لقد كان له، قبل كل شيء، ذكاء هائل،وبصيرة فطرية، وقدرة على التفكير في موضوعات متنوعة وبسرعة عالية كان حاضر الذهن دوماً، ورغم محدودية تعليمه فقد أبدى دائماً معرفة واسعة جداً بموضوعات كثيرة وواسعة. ولقد رأينا للتو قوة تأثيره في جميع من قابلوه، غرترود بل. برسي كوكس، شيزمان، فيلبي، وغيرهم.

ورغم قناعته ان القرآن قد احتوى على العالم بأسره، الا ان ابن سعود كان في الواقع بعيداً جداً عن عقلية ذلك الاخواني الذي كتفي بتحريمه التدخين وتحريمه قراءة الجرائد. لقد كان دائماً متشوقاً أن يعرف آخر الأخبار والمستجدات، واستخدم الوسائل المناسبة لتأمين ذلك، من الرسل والصحافة الأجنبية قبل الحرب العالمية الأولى، إلى الراديو ورويتر بعد الحرب، إلى وسائل أخرى كذلك.

أما حقيقة تفكيره الواسع والدائم، فلا أدل على ذلك من رصد تصرفاته وسط سياسات المرحلة. فقد كان، منذ سنة 1903، على تماس وصلة لا مع البريطانيين فقط،وانما مع الروس ايضاً، كما ان خطواته، في قلب الجزيرة العربية بعلاقتها بالاتراك، كانت مبنية دوماً على حسابات ذكية لحدود قدرته أن يكتفي بالحد الأدنى من النوم والطعام، وطاقته الجبارة، وتفسيره السريع، وسلوكه العملي والقدرة على الاطلاق لخصومه في فترة حملاته العسكرية. ويستدرك فيلبي أن ابن سعود، في سنواته الأخيرة بات معتاداً على روتين من التصرف المفاجيء والمغادرة غير المتوقعة. وكان من نتيجة ذلك ان يظل بلاطه وحاشيته في حركة لا تهدأ، للخروج إلى الصيد مثلاً وتحضير الاحتياجات كلها في لحظة. واذا بدا في ملاحظة فيلبي ما يشير إلى رغبات ابن سعود الجامحة والمزعجة، كما يظن، فان امرين اثنين يجب ان يذكرا لتصحيح هذه الصورة.

فالتقلب اوالتغيير المفاجئ في الخطط امر يعرفه تماماً كل من اعتاد على حياة البدو. والى ذلك، فانما هو استثنائي عند ابن سعود ليس التغيير المفاجيء في روتينه، وإنما الطريقة التي يخرج بها من الروتين إلى العمل، او التي يؤكد بها على الروتين، وإنما الطريقة التي يخرج بها من الروتين إلى العمل، او التي يؤكد بها على الروتين، اينما كان، في الرياض، أو في الحجاز، او في الصيد (والذي غدا اكثر جاذبية له مع توافر السيارات). يمكن اعتبار ابن سعود، بطريقة ما، سيد التصرف

بالوقت، راسماً بالتالي مقاربة إعرابية للمسألة تختلف جذرياً عن النمط الذي تطبقه مثلاً، إحدى الشركات الحديثة العملاقة.

كان ابن سعود يمارس مهام لا تحصى _ الملك، الزعيم، القبلي، القائد العسكري، رأس العائلة، الزعيم الديني، رجل السياسة الدولية، مسؤول الرفاه الاجتماعي، المعلم، وزير الخارجية، وزير المالية _ وكان تقليد ممارسته لهذه المهام جمعياً قد تأسس تدريجاً في الحقبة التي توقفنا عندها لنعرض انجازات الرجل. واللافت حقاً هو الطريقة التي كان يفرض بها الروتين نفسه على البلاط حتى حين يكون في حركة. لقد أملى ابن سعود نفسه هذا الروتين، واستمراريته. ولا مراء في ان تأسيسه الشخصي الديني العميق هو الذي يقوم خلف هذا النمط من الأداء الدقيق والمتنوع.

يتمحور روتين ابن سعود اليوم حول مواقيت الصلاة وفي ما بينها. فمن صلاة الفجر، حوالي الساعة الرابعة صباحاً، إلى صلاة العشاء الاخيرة، تبدو مواقيت الصلوات نقاطاً ثابتة يرتب ابن سعود شؤون نهاره في ضوئها او بينها. وكان اليوم اقل ما يعنيه، ينام الساعات الاربع التي تلي إنتصاف الليل، ثم لساعة بعد صلاة الفجر، وحوالي ساعة اخرى بعد الغداء. هذه العوامل مجتمعة، من نوم خفيف وحمية صحية وإيمان ديني عميق واستغراق في العمل، سمحت لابن سعود ان يمارس، وهو في الخمسين، مستوى من النشاط والقيادة لا تلحظه عموماً الا لدى من هو دون ذلك بخمسة عشر عاماً.

ولم يكن ابن سعود، جسدياً في أحسن الاحوال(18): ان مشاكل صحية مزمنة كانت تغمض عينه اليسرى تقريباً كما انه فقد بعض التوازن في حركته نتيجة لمشاكل في ركبته تسببت بها جروحه. ورغم ذلك، فان ارتداءه الدائم لنظارتيه، وصعوبة حركته، لم يتحولا قيداً يحول دون نشاطه وحرية رواحه ومجيئه. فالمبعوثون الطبيون الذين زاروه في الثلاثينات رسموا صورة زاهية لشخص في احسن حال رداً على الاقاويل التي شاعت، وخصوصاً في الحجاز، حول سوء وضعه الصحي. وكذا غلوب باشا الذي التقاه سنة 1928 فوجده في احسن صورة: "كان شخصية مذهلة كما لو انه رئيس حكومة في أي بلد في العالم (19).

ربما كانت السنتان التاليتان، من 1928 إلى 1930، السنتين الاكثر خطراً على حكمه، وذلك حين تعرضت سلطته للتحدي المباشر والعلني من قبل متمردين يقودون وحدات مهمة من الاخوان، الأمر الذي بلغ به، كما رأينا حد اعلان استعداده للتنازل عن العرش، كذلك كانت علاقته ببريطانيا، وبسبب من الاخوان، على قدر كبير من التعقيد.

كان ابن سعود في هذه الفترة بالذات، في حاجة إلى كل المهارات والخبرات والدروس التي اكتنزها في الخمس والعشرين سنة السابقة، وبخاصة مهاراته كاستراتيجي حربي وكزعيم قبلي وكدبلوماسي.

**الفصل السابع**

## وتأسست المملكة 1928 – 1932

سعود! لقد تركت صحرائي ومشيختي وضحيت بثروتي بحثاً عن مرضاة الله ومقاتلاً في سبيله.

فيصل بن دويش إلى سعود بن عبد العزيز في 6 حزيران

1929 هلمز تماسك العربية السعودية، ص 261.

اعتقد انه، في داخله معاد لكل النفوذ الغربي بما فيه النفوذ البريطاني، لكنه عرف ان صداقة بريطانيا شرط لبقائه.

سيرا، رايان، اول مفوض بريطاني في بلاط ابن سعود آخر الشراح ص 83.

اذا أمكن لأحدهم ان يقدم لي الآن مليون جنيه فسيحصل على كل الاتفاقايات التي يريدها في بلادي.

ابن سعود، لفيلبي، 1921،في "ايام العربية" لفيلبي، ص 291

في تشرين الثاني 1928، أعطى عدد كبير من زعماء الاخوان ولائهم العلني لابن سعود ضد فيصل بن دويش وحلفائه. ومع ذلك فقد كان يدرك أن هناك ما لتأكيد الانطباع الذي ينسب اليهم الشدة والتعصب. فقد هزموا، في الماضي قوات تفوقهم عدداً، كما جرى في معركة ترابا سنة 1919، وهم سادة فن الانقضاض المباغت. كما انهم متمرسون تماماً، وفق ما رأينا في المسيرات الليلية وغارات الفجر. ثم لا خوف لديهم من الموت وبخاصة في المعارك ضد البدو الآخرين: فقد تعلموا دروساً قاسية في مواجهة الطائرات والمدافع الرشاشة، وباتوا يحتاطون لها. إلا ان لديهم، في مواجهة قوى بدوية أخرى احتقاراً أعمى لاحتمال الموت.

وعلى ذلك، فقد اتخذ ابن سعود كل الاجراءات الضرورية لمواجهة المتمردين. فجرت اتصالات مع البريطانيين في الهند وقدمت طلبات مساعدة بشكل اسلحة وذخائر. وبنتيجة ذلك، تسلم ابن سعود، في شباط 1929، وبواسطة قبيلة العوازم في شرق شبه الجزيرة، ألفاً وخمسمائة بندقية نص آلية مع ذخائرها. وبدا أن البريطانيين قد حسموا رأيهم بأن حال الاضطراب والغزوات السائدة حال خطرة على الجميع، وأن الطريق الأمثل لانهاء الحالة هي تمكين ابن سعود من سحق التمرد الإخواني.

وفي ربيع 1929، كان الاضطراب قد عم اجزاء واسعة من نجد وسواها. ويصف محمد أسد، اليهودي البولوني الذي اعتنق الاسلام، والذي كان في الرياض يصف المناخ السائد آنذاك فيقول: "رسل سريعون يركبون الهجن المسرعة من قبيلة إلى قبيلة. اجتماعات سرية يعقدها زعماء القبائل عند الآبار البعيدة .... لقد أصبح وسط الجزيرة العربية وشمالها مسرحاً لحرب عصابات واسعة. وأغلب الظن أن استقرار البلاد، الذي زاغ صيته سابقاً قد ولى وحلت محله فوضى كاملة في نجد:

فعصب من متمردي الاخوان تنتشر في كل الاتجاهات، تهاجم القرى والقوافل والقبائل التي استمرت على ولائها للملك"(1).

في وسعنا الآن متابعة خطوات ابن سعود وجولاته في هذه الفترة كما سجلها محمد الماني، الذي انضم حديثاً إلى حاشية ابن سعود كمثقف ومترجم بعد اكتسابه معرفة بالانجليزية اثناء اقامته في الهند وكتب ذكرياته حول الفترة الممتدة بين 1929 _ 1935. وعلى الرغم من وقوع اخطاء عديدة، بسبب الاعتماد على الذاكرة، فان مذكراته تلك تقدم إضاءات مهمة جداً حول خطط ابن سعود وطرائق عمله في هذه الفترة(2).

يصف الماني كيف أدار الملك حركته، بعدما اطمأن إلى حصوله على الأسلحة الضرورية من البريطانيين، فقد بعث برسائل إلى أمير كل بلدة وقرية يطلب منهم القدوم إلى الرياض مع رجالهم تحت رايات الجهاد. ثم اتخذ الخطوة المهمة وهي إعفاء المقاتلين الذين قدموا من فريضة الصوم في رمضان، وهو تقليد إسلامي في ايام الحرب ينص، حتى، على إثم من يستمر في صيامه بعد صدور الفتوى. وحين اصر بعض المقاتلين على الاستمرار في صيامهم أمر ابن سعود بحجزهم تمشياً مع قانون العقوبات الاسلامي. وكان الحجز في الواقع شكلياً لا أكثر كيما يجري تنفيذ الاوامر من دون، عنف، ناهيك عن القتل.

تقدم ابن سعود بعد ذلك في حاشية كبيرة من الرياض إلى منقطة القصيم ليؤكد سيطرته على بريدة. ويلاحظ الماني أنه، رغم أن القوة المرافقة كانت على الجمال فان الملك نفسه كان في سيارة، والى بريدة فقط، إذ ان طبيعة الأرض بعد بريدة، هي اصلح للجمال منها للسيارات.

والى كسبه السلاح والسيارات، فان اهتمام ابن سعود كان منصباً بفعل ذكائه وخبرته على محاولة كسب إعلام المعركة، الأمر الذي يصفه المانا، ولكن دون التعمق المطلوب. فقد وصف المانا الاحتفالات الضخمة التي اقامها الملك لرجال القبائل، وكان بينهم يحادثهم ويمازحهم بعفوية ظاهرة: "لقد أتيح، ربما، لكل فرد من هؤلاء ان يبدي رأيه في قوة العدو، ومن معه من قبائل او اجزاء منها ... وتوافرت للملك بذلك كمية معلومات ضخمة .... ليكون في ضوئها صورة شاملة للموقف العسكري".

واستمرت حركة التعبئة على هذا المنوال:

"في أثناء سفرنا، استمر ابن سعود في التحدث إلى اكبر عدد ممكن من قادة القبائل ورجالها. وكان هدفه الحفاظ على حال من التعبئة العالية، التي يتقنها جيداً، لإرضاء فضوله الجامح في تحصيل أي معلومات جديدة متوافرة"(3).

ويسهب المانا في وصف مقدمات معركة سبيلا sibilla في آذار 1929، ويوضح بجلاء، أن ابن سعود كان يرغب في تجنب سفك الدماء فحاول حمل القبيلتين المتمردتين، المطير وعتيبة، على قبول حكم الشريعة في أعمال القتل المرتكبة ضد سواقي الجمال وغيرهم. ويصف المانا التوتر في معسكر الملك في الوقت الذي بدأ فيه تبادل الرسائل بين معسكر المتمردين، إلى أن اتفق على ان يأتي زعيم المطير فيصل بن دويش نفسه غير مسلح إلى معسكر الملك في سبيل حل النزاع الناشب.

وصل ابن دويش في الصباح يرافقه ثمانية حراس شخصيين. ويصف المانا، الذي كانت خيمته بالقرب من خيمة ابن سعود حيث كانت تجري المفاوضات، يصف الإجراءات الامنية المتخذة كما لو انه فيلم من افلام المافيا:

"كان لخيمة الملك أربع فتحات واحدة على كل زاوية وكان على كل منها اثنان من حرس الدويش بكامل استعدادها وقد أرخوا ستائر الفتحات الأربع تماماً حتى يتحقق الوصول إلى اتفاق او ليحولوا، اذا لم يحدث ذلك، دون أي عملية اغتيال محتملة(4).

تحادث ابن سعود وابن دويش على انفراد لمدة ساعة، خرج بعدها دويش ليطلب من حراسه تسليم اسلحتهم، كما لو ان اتفاقاً قد عقد. ثم دعاه الملك إلى الغداء كضيف معزز مكرم، وحضر من ثم عرضا للقبائل الموالية لابن سعود. ولم ينج من الاحراج حين مر به خيال موال لابن سعود وصرخ به غاضباً: "الموت لاعداء الشريعة، فليروا غضبنا".

ومع المغيب صلى ابن سعود ودويش معاً، ثم قضى دويش ليلته في خيمة ملاصقة لخيمة ابن سعود. ومضت مفاوضات اليوم التالي في محاولة ابن سعود اقناع دويش بقبول حكم المحكمة الشرعية. وكان رد دويش: "سوف اتكلم إلى ابن بجاد (من عتيبة) وربما رجعنا غداً. ولكن حذار، اذا لم نأت، فغيابنا يعني الحرب". ويروي المانا أنه سمع من معسكر الاعداء كيف ان دويش نقل لرفاقه المتمردين تفاصيل المناخ السائد في معسكر الملك. قال لهم إن جيش الملك مليء برجال من المدينة سمينين، لا قيمة لهم اذا اتت المعركة الحقيقية، وان "نفعهم هو كنفع سرج جمل بلا أحزمة(5)".

وكان لغريزة ابن سعود في مسألة الامن ان تفعل فعلها في تلك الليلة، فجعل اعداداً مضاعفة من الحراس تحسباً لهجوم مباغت. ولما طلع الفجر ولم يحدث الهجوم، امر الملك بالاستعداد للمعركة. ارتدى ثياب الميدان، وأمر بكميات إضافية من المياه ليضمن طاقة كاملة لمقاتليه. وأشرف على اعطيات مالية لزعماء القبائل وافرادها: ست اونسات ذهباً لكل زعيم وثلاث لكل فرد.

ولما فشلت آخر محاولة لاستئناف المحادثات، اعتلى الملك صهوة حصانه ونادى "اتكلوا على الله واستعدوا للحرب".

ترجل ابن سعود وانحنى، ثم ملأ كفه رملاً ونثره في اتجاه العدو، وهو الرمز التقليدي لأعراب الصحراء يعلنون به بدء القتال، ويقال انه استخدم حتى في عهد الرسول. لم تستغرق المعركة مع المتمردين أكثر من نصف ساعة، اذ حسمت سريعاً باستخدام نيران المدافع الرشاشة في اللحظة المناسبة، وذلك حين حوصر المتمردون في العراء، فسقط منهم ألف إصابة، نصفهم قتلى، في حين أن القوات الموالية فقدت حوالي 200 رجل فقط.

اختفى فيصل بن دويش أثناء المعركة، وكذلك ابن بجاد زعيم عتيبة، ورغم ان الاستسلام فرضته نساء قبيلة المطير حين رمين أنفسهن امام ابن سعود، الا ان ابن دويش نفسه كان قد لجأ إلى مستوطنة المطير في أرتاويا. واستعد ابن سعود لمهاجمة ارتاويا لكن عبد العزيز بن فيصل بن دويش توسل إليه الا يهاجم المستوطنة ووعده بتسليمه والده.

وصعق معسكر ابن سعود في اليوم التالي، حين جلب دويش على حمالة، بعد ما كان قد أصيب، كما يبدو، في اثناء الهجوم، فأمر ابن سعود طبيبه أن يعالج جراحه. وقال له انت لست نداً لي. انا قوي جداً لقد عفوت عنك. اذهب انى شئت وسأعطيك ما تحتاج إليه. ولكني سأراقب اعمالك في المستقبل، حسنة هي أم سيئة، وسأحكم وفقاً لذلك.

طلب دويش ان يذهب إلى الكويت، فوافق ابن سعود، وكتب إلى معتمده هناك بتلبية احتياجاته. لكن عفو ابن سعود لم يشمل زعيم عتيبة أيضاً. فحين قدم ابن بجاد إليه، مأخوذاً ربما بالمعاملة التي حصل عليها ابن دويش، أمر الملك باعتقاله، وأرسله إلى الرياض مقيداً بالسلاسل، فسجن هناك ولم يخرج حياً. انتهى تمرد الإخوان في الظاهر وأكد ولاة ابن سعود في الاحساء وحائل، حيث كان يخشى ان يتحرك اعداؤه القدامى، العجمان وشمر، أكدوا هدوء الاحوال واستقرار الامور. واستعد ابن سعود للتحرك إلى حائل ثم الحجاز بمناسبة موسم الحج، لكنه كان مصراً قبل ذلك، على توجيه اشارة سياسية تعلن رغبته في طي صفحة ما حدث.

تحرك أولاً إلى بريدة وعنيزة، ليعبر عن عرفانه لتضامنهما معه، وفي عنيزة أخذ عروساً من الشبيليين وهي عائلة معروفة في المدينة. ثم تحرك بلاط الملك شمالاً إلى حائل قبل التقدم إلى مكة لأداء مناسك الحج، ولكن دون ان يبقى طويلاً في الحجاز. فبينما هو في جدة وردته إشارة إلى أن تمرد الاخوان قد اندلع من جديد. ففي آيار 1929، قرر العجمان أنه ربما كان من الافضل، بعد النصر الذي حققه ابن سعود في سبيلان إجراء اتصالات بالمنتصر. رتب دحيدان بن حثلان. زعيم العجمان، لقاء مع فهد بن عبد الله بن جلوي ابن خال ابن سعود وحاكمه المخلص على الاحساء.

وفيما كانت المفاوضات مستمرة، اعتذر ابن حثلان عن تلبية دعوة فهد ليبيت ليلته هناك قائلاً انه إذا لم يعد فسيأتون لاخذه. استشاط فهد غضباً من كلماته تلك واعتبرها تهديداً ، فأمر ان يوضع ابن حثلان في السلاسل ورغم اعتذار ابن حثلان عما بدر منه، فقد أصر فهد على موقفه، وزاد بان امر أنه اذا جاء العجمان يسألون عن زعيمهم فليذبحوا. وبعيد منتصف الليل،خف العجمان إثر سماعهم اطلاق النار، فقد قتل ابن حثلان بناء لأوامر فهد، ثم قتل فهد بعده مباشرة كما يبدو على أيدي عناصر عجمانية في حاشيته. من وجهة نظر ابن سعود لم يكن هناك ما هو أكثر سوءاً مما حدث. فابن حثلان كان يحمل صحائف الأمان من الملك شخصياً، كما يحملها من عبد الله بن جلوي وابنه الذي أرداه قتيلاً وكيما تزداد الامور سوءاً فان ابن دويش لم يشف من جراحه فحسب، بل عاد ليقود قبيلته من جديد ضد ابن سعود. وكذا عتيبة، فعلى الرغم من ان مستوطنتهم في كوت قد سويت بالارض وزعيمهم معتقل، فقد نهضت ثانية ضد ابن سعود. وبسيطرة عتيبة على المنقطة الواقعة بين الحجاز ونجد، فان ابن سعود غدا، عملياً، عالقاً في الحجاز.

وبدءاً من هذه النقطة كان يمكن للوضع الجديد أن يتحول إلى كارثه. وغدا من المبالغة القول مع كاتب سيرة غلوب، "إنها مسألة وقت فقط قبل ان يجتث ابن سعود الاخوان"(6). كان على ابن سعود ان يعود أولاً إلى الرياض، أي ان يمر حكماً بمناطق يسيطر عليها المتمردون، وعليه فإن وصوله ما عنده من خبرات ليتجنب الوقوع ضحية مناوارات أعدائه. والمشكلة الاولى التي كانت تواجهه هي تأمين إمدادات المياه اثناء الطريق وتمكنت عتيبة من خلال ذلك تأخير وصول بضعة أيام أخرى. ولم يكن ذلك بالوسائل العسكرية، وانما ببساطة بسبب رميهم حميراً ميتة أو حتى شخصاً ميتاً في آبار المياه. وكانت الكمائن المحتملة، وخصوصاً على رؤوس الجبال، خطراً آخر. ولتجنب ذلك، كان على ابن سعود أن يقود مسيرة طويلة لمئات الكيلومترات ليصل إلى الواحة التالية على طريق الرياض.

وعلى الرغم من صعوبة الوضع، فإن ابن سعود كان يتمتع في الواقع بأفضليات كثيرة، وكان يجب ان توضع كلها الآن قيد الاستعمال، ومنها خبرته الطويلة كقائد عسكري، والمال الذي يستطيع به ضمان ولاء القبائل، والأسلحة والذخائر التي كان يستطيع الحصول عليها من البريطانيين في الهند، واستعمال اللاسلكي لتنسيق عملياته والآليات. بعد طول المسير، وبحذر كلي، وصل ابن سعود أخيراً إلى الرياض. ورغم نجاحه في العودة إلى عاصمته، فانه كان من الناحية العملية، محاطاً بالاعداء. فالأحساء في حالة اضطراب شاملة بعد تمرد العجمان، وحتى ضابطه الاكثر إخلاصاً، عبد الله بن جلوي، بات بلا نفع بعد انهيار اصابه إثر سماعه نبأ وفاة ابنه فهد. ثم ان

نجد نفسها ليست مضمونة: فالرياض الآن "جزيرة في بحر من المتمردين، يجتاحها البدو جيئة وذهاباً، وما من أحد يعرف حقيقة ولائهم"(7).

تحرك ابن سعود شرقاً ليضمن اولاً سيطرته على الاحساء فأرسل ابنه سعود في قافلة مؤللة ليتسلم مسؤولياتها المباشرة من ابن الجلوي. لكن العجمان اوقعوا القافلة في كمين، وتمكنوا من أخذ بعض الأسرى. أما سعود نفسه، وحسب المانا، فقد وصل سالماً بفضل اول استخدام المرسيدس في الجزيرة العربية للافلات من كمين العجمان. كانت السيارة لإبن سعود في الواقع، وكان من حظ سعود أن يستعيرها ليتمكن بواسطتها من النجاة والوصول إلى الهفوف.

ومن قاعدته في الهفوف، كان عليه أن يواجه تحالف قوى عجمان ومطير بقيادة دويش نفسه الذي كان مصصماً على بسط سلطته على كامل المنطقة. وليس هناك من شك تقريباً في ان دوافع طموحات دويش كانت غير دوافع سائر زعماء الاخوان. مخططاته كانت في غاية الوضوح في أنه يسعى للحصول على تأييد البريطانيين وحاكم الكويت لمشروعه ذلك(9).

هزم دويش في منطقة الاحساء على أيدي العوازم، الذين كانوا على ولاء مطلق للملك بعدما حررهم من وضع القبيلة الدونية المجبرة على دفع الخوة للقبائل الاقوى. كما كان هؤلاء أفضل تسلحاً وتجهيزاً بفعل حصولهم على بنادق وذخائر مصدرها الهند. وكانت النتيجة إجبار الدويش على التراجع عن منطقة الواحات نحو الشمال في اتجاه الحدود الكويتية. وفي منتصف صيف 1929، لجأ ابن دويش إلى تكتيك آخر، بجعله ابنه عزيز على رأس قوة مؤلفة من بضع مئات أغاروا على الجزء الشمالي من البلاد، فأصابوا القبائل الموالية للملك وعادوا بكميات ضخمة من الاسلاب، إلا أن القدر كان يخبئ لهم فاجعة مرعبة. فلأن الصيف كان في ذروته كان على هؤلاء أن يعودوا إلى قواعدهم في شرق البلاد، مروراً بالطرق التي تحتوي على آبار ماء.ففي أم أرادوا ما وجدت القوة التي بقيت تحت إمرة عزايز، إذ أن فصائل أخرى قد انفصلت عن القوات ورفضت سلوك هذه الطريق، وجدت نفسها وجهاً لوجه في مواجهة قبائل الشمر الموالية المقيمة على هذه الآبار. لم يكن هناك من خيار أمام عزايز وقوته إلا الهجوم على المدافعين عن الآبار. فوقعت مذبحة رهيبة للطريفين، لكن الإخوان هزموا وردوا في النهاية، إذ سقط لهم اربعمائة وخمسون قتيلاً بينهم عزايز نفسه وأكثر من 250 أسيراً في منتهى العجز والارهاق. وحين قارب القتال نهايته كان حاكم حايل قد هرع إلى المنطقة للمساعدة فأعطى أوامره بقطع رؤوس الأسرى في المنطقة عينها.

وبينما كان عزايز يقود غارته الضخمة، كان ابوه دويش يقوم بمجموعة مناوشات في نجد. ورغم ضخامة موارد قبيلة دويش، فانه يجب أن يكون لها حدود في النهاية. فمن اين تأتي هذه الموارد التي لا تنضب؟ هو ذا ما كان يلمح إليه الملك(10) في الاشارات التي ينقلها عنه محمد أسد:

"العائلة الشريفة تكرهني. وابناء الحسين هم دائماً على كرههم لي، لأنهم لم ينسوا أني اخذت الحجاز منهم. هم يتمنون انهيار حكمي لأنهم سيعود، إذ ذاك إلى الحجاز .... وأصدقاؤهم الذين يتظاهرون بالصداقة لي، يودون كذلك أن يتسببوا لي بالاضطراب لجعلي بعيداً عن حدودهم".
كان محمد أسد يدرك تماماً خلفيات ترتيبات الحدود التي رسمت في العشرينات ناهيك عن التذكير بالمؤامرات المشبوهة "للانكليز" لتحييد شريط من أراضي المقاطعات الشمالية، لتأمين اتصال بين منطقة الخليج والمتوسط، وربما كذلك للخط الحديدي حيفا _ البصرة.
ويسهب محمد أسد في ربط كلمات الملك الحذرة حول "هذه المصادر السرية لتجهيز الدويش. لدي شكوكي تجاههم، ربما اكثر من شكوك، لكن ما أريده منك هو العثور على أكثر من مجرد الشكوك، فلعلي كنت مخطئاً(11). نلاحظ من رواية محمد أسد اهتمام ابن سعود ليس بالحصول على المعلومات فحسب، وإنما اهتمامه كذلك بحسن التقييم للمعطيات. لذلك اراد من محمد أسد ان يذهب سراً إلى الكويت ويتحرى عن مصادر اسلحة دويش واموال "وسيكون في وسعي إخبار العالم حول حقيقة تمرد دويش .... واظن انك قادران تجد لي الحقيقة".
إذا صحت رواية محمد أسد، فهو قد جعل طريقه إلى مدينة الكويت بمساعدة أدلاء أصلوبا الذين طلبوا بدلاً عالياً لقاء مخاطرتهم بدخول الاراضي التي يسيطر عليها دويش.واستخدم اسد كل مهاراته كصحافي منقب، وخبرته كعارف بالمنطقة يجيد العربية وعلى معرفة واسعة بالاسلام فهو، بالتالي، قد توصل إلى رسم صورة لمصادر أسلحة دويش وأمواله، ولائحة باتصالاته بزعيم قبيلة الروالى المنشقة، وربما مع الانكليز انفسهم.
استند ابن سعود إلى المعلومات التي تجمعت لديه بواسطة محمد أسد ليحتج ، لدى البريطانيين، على الحرية التي كان يتمتع بها دويش في شراء السلاح والذخيرة من الكويت. لكن البريطانيين أجابوا، وفق ما يقوله محمد اسد، ان الكويت بلد ذو سيادة وهو ليس أرضاً بريطانية. وعليه، فان الحكومة البريطانية غير مسؤولة عن ذلك.
لقد بدا الآن، وأكثر من أي وقت مضى، أن الأمر لا يمكن حسمه الا بقوة السلاح، فكانت معركة حفر الباطن آخر فصل في الحملة على دويش حيث طبق مقاتلو قبيلة حرب اساليب الاخوان نفسها، ولكن ضد دويش هذه المرة. فقد أخذوا قواته على حين غرة، بينما هم نيام، فجرى أسر معظمهم بينما تمكن دويش نفسه من الفرار واللجوء إلى الكويت.
تحرك ابن سعود الآن شمالاً يرافقه ابناه محمد وخالد، وكل منهما يقود طابوراً آلياً. ووقعت في الطريق بضع مصادمات دموية، ولم يكن هناك أسرى: اذ وقعت حالات قتل لعدد من معتقلي الإخوان بالأسلحة الرشاشة او بقطع الرأس(12).

حوصر الاخوان الباقون بين قوات ابن سعود الزاحفة شمالاً والقوات البريطانية التي تقف على حدود الكويت والعراق. وبعد عشرة أيام من المفاوضات، جرى التوصل إلى اتفاق على مسائل التعويض عن الأسلاب والاضرار التي نتجت عن غارات الإخوان والخسائر التي لحقت بالنجديين من جراء غارات الطيران الملكي البريطاني، كما شمل الاتفاق مصير ابن دويش نفسه. وسلم البريطانيون في النهاية دويش إلى ابن سعود، بعدما وضع نساءه وابناءه في عهدة ديكسون، المعتمد السياسي. وهكذا انتهى تمرد الإخوان.

تحرك البريطانيون الآن بهدوء، لمعالجة وضع استطال وكثرت تعقيداته واصبح خطيراً للغاية. فخلال المراحل الاخيرة من المفاوضات، بين الممثلين البرطانيين وممثلي ابن سعود (وبينهم يوسف ياسين الذي يبقى الشخص غير المريح للبريطانيين)، وردت إلى الملك رسالة تسأله هل يوافق ان يلتقي للمرة الأولى في حياته فيصل بن الحسين ملك العراق. وافق ابن سعود على مبادرته المصالحة هذه وجرى اللقاء على ظهر السفينة "لوبان" ومعها سفينتان أخريان في مياه خليج الكويت. ورغم تبادل الكلمات المناسبة المنمقة، ورغم الصور التي اظهرت الملكين يبتادلان الابتسامات، فان اللقاءات تلك كانت عرضة للحظات من التوتر هددت بتحويل المناسبة إلى كارثة. فذكرى خسارة الحجاز كانت أصعب من أن تنسى وهو ما نلمحه في خطاب فيصل بن حسين الذي توجه به إلى ابن سعود متجنباً فيه تسميته "ملك الحجاز" ولم يستأنف الحوار الا بعد أن استجيب لشرط ابن سعود برفض استقبال أي رسالة او كلمة لا تخاطبه بصفته ملكاً للحجاز، فكان له ذلك.

أدى هذا اللقاء وهو أحد لقاءين اثنين فقط قابل فيهما ابن سعود كلاً من الهاشميين وجهاً لوجه، أدى إلى التوقيع لاحقاً على معاهدات جلبت بعض المعنى لكلمات المصالحة التي تبادلها الحاكمان. فقد أرست "معاهدة الصداقة وحسن الجوار" اعترافا كاملاً بالعراق من جهة، وبنجد والحجاز من جهة ثانية، مع تبادل التمثيل الدبلوماسي، ووضع حد للغارات القبلية. كما أسست لاتصالات لاحقة ولتشكيل لجنة دائمة للحدود والاشراف على التعويض عن الغارات السابقة. كان هناك قضايا أخرى لتناقش في السنوات التالية بين الرياض وبغداد، ولكن يبقى أن أهمية اللقاء الذي جرى إنما كان في نجاح ابن سعود بواقعيته وحنكته في توليد الانطباع المطلوب ومضمونه: أن في وسع البلدين ان يتعاملا بأذرع مفتوحة وليس فقط كأعداء ألداء.

بعد اللقاء المباشر بين ابن سعود وفيصل، عاد ابن سعود إلى الاحساء قرب البحرين لينجز فصلاً آخر من مصالحاته وكان المعتمد البريطاني في العراق قد سأله هل في وسعه استقبال غلوب؟ فرفض. لقد اعتبر دائماً ان لغلوب تأثيراً سلبياً على العراقيين وعلى افراد القبائل. ولكن مع تكرار

محاولة همفريز استجاب ابن سعود وتحقق اللقاء الا ان اللقاء، وكما يشير المانا، لم يتجاوز حدود البروتوكول الشكلي.

وصل ابن سعود بعد ذلك إلى البحرين، بعدما أرسل برقية بذلك إلى المعتمد البريطاني فيها، وليفاجأ بعيد وصوله، وحسب المانا، وجواباً عن برقيته، أن حاكم البحرين مريض ولايستطيع استقباله. ولما كانت حاشيته ابن سعود قد قضت الليل على ظهر المركب، فقد اتخذت الاستعدادات للابحار فوراً إلى الحجير، ولكن اذا بأبناء الشيخ عيسى يهرعون إلى المركب وقد عرفوا ان ابن سعود لن يرسو، ملحين عليه باسم والدهم ان ينزل وان والدهم لن يشفى إلا إذا قبل ابن سعود رجاءه.

نزل ابن سعود على الشاطيء، وذهب إلى زيارة الشيخ عيسى، الذي لم ير منذ قدومه إلى البحرين يافعاً من أجل المعالجة الطبية. قال الحاكم وهو يستقبله "ان في وسعه الآن وقد رأى ابن سعود ، أن يموت بسلام".

فرد ابن سعود أنه، بعد موت والده، "لم يبق عنده من يستشيره غير الشيخ عيسى".

ويلاحظ المانا، الذي كان مع الملك في كل هذه التحركات أن ابن سعود قد اشمأز من تصرف المعتمد البريطاني، وأنه لا يعرف لماذا حاول خداعه. ويمكن أن يكون وصول زعيم عربي كبير إلى البحرين، في اللحظة التي كانت الجزيرة تشهد حركة نهوض وطني، يمكن أن يكون هذا الوصول قد اعتبر أمراً لا يتناسب مع مصالح البريطانيين.ومع ذلك فالمانا يستذكر انه في سنة 1931، اتيحت للملك فرصة رد التحية بمثلها.

فقد طلب أرل أثلون وزجته الإذن بعبور البلاد من جدة إلى الحجير. وكلف المانا بارسال جواب الملك برفض الطلب على أساس أن عناصر القبائل المتمردة تجعل الرحلة غير آمنة، ويضيف أن الملك أمره باضافة الكلمات الضرورية للوم البريطانيين على هذا الحال. عندها تأكد البريطانيون من درجة استياء ابن سعود من حادث البحرين، فبعثوا رسالة اعتذروا فيها عن تصرف المعتمد البريطاني في البحرين، وسألوا هل يسمح بقيام جميع معتمدي بريطانيا في المنطقة بزيارته وتقديم واجب الاحترام. جرى اللقاء واستؤنفت العلاقات على أسس اكثر ودية.

ورغم عدم دقة المانا في تقديم تفاصيل حادث البحرين، فان اهميته تكمن في إشارته إلى استمرار الحساسية في العلاقات بين ابن سعود وبريطانيا وهي العلاقة التي كان في وسعه، كمترجم في البلاط، أن يراها جيداً. أما الاشارة الاخرى لذلك، فهي التي عرضنا لها وقد اتت من سير اندرو رايان اول مفوض بريطاني في جدة حين قال: اعتقد انه، في دخيلته معاد لكل النفوذ الغربي، بما فيه نفوذ بريطانيا العظمى، لكنه يدرك أن صداقة بريطانيا شرط لبقائه(13). ويظهر الآن على

مسرح سيرة ابن سعود وبقوة، صورة أخرى للوجود الانكليزي وهو فيلبي الذي سيستقر في جدة بدءاً من سنة 1926، بعد تركه الخدمة العامة في حكومة صاحب الجلالة.

فمنذ اتصاله الاول بابن سعود سنتي 1917 / 1918، لم يعدل فيلبي عن شعوره بالإعجاب الشديد به ، وتنبأ منذ البدء بانتصاره على الهاشميين. وحين بدأ حصار جدة، وجد فيلبي لنفسه وسيلة ليدخل الحجاز بتغطية من جريدة بريطانية مع محاولة فاشلة للعب دور الوسيط بين السعوديين والهاشميين. وكان بعض السبب في فشله المرض الشديد الذي أصابه، والذي استلزم رحيله للعلاج ومع وصوله إلى عدن كان قد أبل من المرض تقريباً لينزل زائراً على قنصل الولايات المتحدة فيها الذي كان يبعث لواشنطن أن ابن سعود شيعي. وكان القنصل من الامانة بحيث ارسل لواشنطن بعد ايضاحات فيلبي: أن ابن سعود ليس خارج الدوحة الإسلامية الأساسية كما سبق أن ذكر خطأ في تقرير سابق"(14).

في سنة 1926، كان لفيلبي بداية جديدة مع التصميم على الاستقرار في جدة، على أن يكسب عيشه من التجارة وسيلة اخرى تتيح له تحقيق حلمه القديم لاستكشاف الربع الخالي.

كان فيلبي، ونتيجة صلته السابقة بابن سعود، قادراً على استئناف علاقته معه، الا انه لم يكن ممكناً له ان يحظى بوقت أطول لديه لكونه غير مسلم. وعرف من أحاديثه مع ابن سعود نفسه، أنه لو كان مسلماً فسيكون قادراً على الدوام وهكذا اتخذ فيلبي خطوته التالية باعلان إسلامه في صيف 1930.

وجاء تحوله إلى الاسلام بلمسة خاصة حين اتصل به الملك من الطائف لموافاته إلى مكة. وطلب الملك من فوائد حمزة وعبد الله سليمان ان يرافقاه، وليعلن فيلبي في الجامع الكبير تحت ضوء القمر قبوله اسس الإسلام. وفي اليوم التالي في 8 آب 1930، قدمه الملك إلى البلاط تحت أسم عبد الله، وهكذا بدأت علاقة متفردة مع آل سعود استمرت إلى وفاة فيلبي بعد ثلاثين عاماً.

والبلاط الذي دخله فيلبي هو الآن اكثر تعقيداً، توزعت فيه المهام على مختصين معينين، مع استمرار ابن سعود في وسطه ابداً يوجه كل الاجراءات ويشرف عليها(15). وكان في خدمته الآن عدد من المستشارين في بلدان عربية مختلفة قدموا إليه إما بخيار شخصي او استدعوا، كذلك كان عنده أعداد من مسؤولي ادارته من نجد والحجاز. فقد كان محمد المانا في موقع نافذ وحساس لكنه كان بعد شاباً، اما عبد الله سليمان من عنيزة فكان يدير الشؤون المالية والتجارية كافة بعدما أبدى طوال سنتي 1929 / 1930 في توفير الشؤون والاحتياجات العملاتية كافة لحملات ابن سعود وتنقلاته. أما وزير خارجية ابن سعود مع ندوة استعمال هذا الوصف فكان عبد الله الدملجي خلفاً لأحمد الثنيان الذي مات باكراً بعيد تقاعده متعباً سنة 1928 في موطنه العراق. ومن الآن

فصاعداً، كان ابن سعود يعتمد بشكل واسع على نصائح حافظ وهبة نصري والذي مررنا به، وفؤاد حمزة، الدرزي اللبناني، ويوسف ياسين، الذي رأيناه في المفاوضات مع البريطانيين، من منطقة العويطة في سوريا، والذي كان محل هجوم شديد من الملك عبد الله في مذكراته. وكان من مسؤولياته الاخرى رئاسة تحرير الجريدة المكية "أم القرى". التي اعتبرت لفترة بمثابة الجريدة الرسمية.

كان لابن سعود، كما رأينا، احترام كبير للمشتغلين في حقل الطب، وظهر ذلك بالتدريج، موضع ثقة واستشارة، واستمر فرعون خصوصاً كمستشار موثوق في الشؤون الخارجية إلى ما بعد وفاة ابن سعود.

وكان للملك تداول مع ولديه فيصل وسعود، في الشأن الاداري العام للبلاد. فعين فيصل نائباً للملك على الحجاز، وسعود نائباً لوالده حين يكون غائباً عن الرياض، الا انه وفي كل الاحوال، استمر ابن سعود على صلة وثيقة بكل شيء يحدث في البلاد في نظام اشراف شخصي إلى درجة عالية. ويمكن رسم صورة لروتين ابن سعود اليومي في الفترة تلك كما سجله محمد المانا، في مذكراته، ووفق كتاب آخرين، وذلك لإيضاح نظامه الخاص الممتاز في تنظيم الوقت. كان ابن سعود ينهض قبل ساعتين من الفجر، يؤدي الصلاة بخشوع كبير. وكانت مشاعره من القوة بحيث كان غالباً ما تسمع مناجاته(16). وكثيراً ما وصفت صلواته من قبل شهود عيان اشاروا إلى عادة أدائه صلوات اضافية فوق ما يطلبه النص الديني الدقيق. ثم يخلد إلى النوم ساعة قبل أن يبدأ النهار. يبدأ العمل الساعة الثامنة صباحاً، حين يبدأ ابن سعود باستقبال زواره المهمين، يدخلهم بحسب درجة الأهمية، ابراهيم الجمعة ثم يتوسع الاهتمام باستقبال الزوار الاقل أهمية في مجلسه الخاص. ولاحظ كتاب كثر قدرة ابن سعود على إملاء رسائل مختلفة على غير سكرتير في آن بتسلسل وتماسك وربما ان تفقد واحدة منها خطها الخاص.

بعد ذلك، وعند الضحى تقريباً، ينعقد مجلسه العام، يبدأه ابن سعود بالاستماع إلى تلاوة من القرآن الكريم ثم يقترح موضوعاً للنقاش العام يديره ويوجهه شخصياً بالأسئلة والاستفهامات والاستنتاجات، وكانت تقدم للذين يحضرون المجلس هدايا تحت الاشراف الشخصي لابن سعود. وكان هناك في ادراة بلاط ابن سعود شخصية بقيت فيها طويلا وهي شلهوب، الذي كان مسؤولاً عن الخزانة حيث تحفظ كل الحاجات التي تقدم بمثابة هدايا. ولأنه كان في رفقة ابنه منذ تركه الكويت سنة 1901، فقد كان في وضع فريد يسمح له بالاطلاع على موارد الملك المالية. ويخبر شلهوب المانا انهم حين تركوا الكويت حمل الخزينة في كيس(17) اما الآن وبعد ثلاثين سنة تقريباً، فيعلق شلهوب

بخبث ان كرم الملك جعله الآن يقف وظهره إلى الحائط: "فكل ملك في العالم يعيش على تقديمات شعبه، عدا شعب نجد فهو يعيش على تقديمات الملك"(18).

لقد عرف الملك طوال حياته بكرم لا حد له، الا انه كان يعرف مع ذلك كيف يدير نظاماً من الاهداءات والتقديمات بحسب كل حالة على حدة.

ثم تأتي صلاة الظهر لتقدم استراحة طبيعية. وقبل ان ينعقد الاجتماع اليومي للجنة السياسية حيث الملك وحده، بحسب المانا، هو الذي يقترح جدول الاعمال.

ويمكن أن يلي اجتماع اللجنة غداء ربما يخلد الملك بعدها للراحة في جناحه الخاص.

في فترة ما بعد الظهر، يمكن أن تكون هناك جولة قصيرة حول الرياض مع صلاة المغيب، وتنعقد غالباً عند سفح صخري، اسمه ابو مقروق، كان يحيط به آنذاك امتداد صحراوي مقفر. وكان ذلك السفح هو المكان المفضل لديه، يرتاح فيه بعيداً عن البلاط، يضحك او يمازح أفراد حاشيته الذين يكونون في صحبته، وبعضهم في رفقته منذ عشرين عاماً، وقبل أن يعود إلى القصر لصلاة العشاء.

ويمكن ان ينعقد مساءً مجلس أقل اشاعاً تجري فيه قراءات دينية بواسطة الشيخ عبد الرحمن الكويز، بينما تدور قرب من حليب النوق على الحاضرين. بعد افضاض الملجس يقوم الملك بجولة في البلاط، يزور فيها عادة القسم السياسي، أي الشؤون الخارجية فيبحث في المسائل الفردية او يعطي توجيهاته بخصوص القضايا او المسائل التجارية التي تدفع إليه. وربما التقى بعدها بعض افراد الاسرة او الابناء الاقربين قبل ان يدلف في ساعة متأخرة إلى جناحه الخاص. يقدم المانا ايضاً ايضاحات حول كيفية اتصاله بعائلته الكبرى والمتنامية. فعند الساعة السابعة صباحاً يستقبل عادة كبار العائلة من الابناء اوالاقربين.ويعقد مرة في الاسبوع مجلساً للافراد الذكور في العائلة، ومجلساً آخر للافراد الاناث مرة كل اسبوعين. وكان الاطفال احراراً في ان يأتوا إلى المجلس الذي يرغبون فيه ومن دون اذن.

ويلاحظ المانا ان اللافت في روتين ابن سعود هو احتفاظه به حتى حين يكون البلاط في جولة حول البلاد، او وفق كلمات فيلبي، فان ابن سعود هو رجل القانون والعادة(19): فهو عموماً يمارس رقابة ثابتة ودقيقة على اداء رجال بلاطه من رسميين ومرافقين وخدم. وكجزء آخر يميز روتين ابن سعود طريقته في معاملة الافراد والإناث في عائلته. فقد رأى فيلبي أن الملك كان يسمح للنساء بالاستماع إلى القرآن ولآداب الحديث، ولكن معرفة القراءة والكتابة هي اضافة غير متناسبة في المرأة مع انها غير ممنوعة"(20). وملمح آخر في معاملته للجنس الآخر هو انه لم يشاهد امرأة تأكل في حضوره وبالنسبة للعلاقات الزوجية، كان ابن سعود صريحاً في قوله لفيلبي انه أقام،

ولغاية 1930، علاقات زوجية مع مئة وخمس وثلاثين بكراً وحوالي مئة أخريات، الا انه مصمم من الآن فصاعداً ان لا يكون له سنوياً اكثر من زوجتين اثنتين جديدتين. وهذا يعني المحافظة على قاعدة الاحتفاظ بزوجات أربع حداً أقصى، واربع محظيات، او زوجات كاملات عدا اللقب، يحتفظ بهن في قصر شبرا واربع فتيات مشرقات، او سواهن.

هذه الملاحظات لا يقدمها بالتأكيد غير مراقب خارجي. وبمعزل عن دقتها، فان اهميتها تكمن في اضاءتها لجوانب في معاملة ابن سعود لعائلته. والى ذلك، فلقد اعتاد الملك أن يعفي نفسه من كل الاحتفالات ذات الطابع العائلي الخاص، كالزواج والولادة(21)، في مثل هذه الاوقات كان يخرج في العادة إلى مخيمات خارج العاصمة ومن عادته ان لا يرى الاطفال الحديثي الولادة الا بعد مضي بضعة أيام على مولدهم.

ومع أن ملاحظات فيلبي هي كذلك، الا ان الارجح ان فترات مغادرة ابن سعود التي ذكرها في المقطع السابق انما تندرج في اطار التأمل او البحث في سبل الاستجابة الفضلى للمشاكل والحديات التي طرحتها تلك الحقبة. وأولى هذه المشاكل ربما كانت في كيفية تأمين مسلتزمات حكم بلاد شاسعة مع موارد مالية محدودة ودون المطلوب بكثير.

واضيفت إلى خزانة ابن سعود الآن موارد ضريبية جديدة! في نجد والاحساء، في الاراضي التي كانت سابقاً تحت سيطرة آل رشيد، وفي الحجاز التي لم تضف ضرائب عادية كسواها، بل أضافت بالتحديد، رسوماً على الحج، ووفق حسابات فيلبي، فان مداخيل ابن سعود في الثلاثينات كانت تقدر بمبلغ يتروواح بين اربعة ملايين جنيه سنوياً وخمسة، مقابل مائة الف قبل الحرب العالمية الأولى(22). الا أنه كان على ابن سعود أن يدخل في فترة صعبة جداً مالياً بسبب الازمة العالمية التي كانت بدأت قبل ذلك بقليل(23).

فعلى اثر انهيار سوق الأسهم في وول ستريت أواخر سنة 1929، لم تصل مفاعيل هذا الانهيار والأزمة العالمية التي تلته إلى شبه الجزيرة الا في حدود سنة 1931 وتمثل ذلك، على نحو دراماتيكي، في انهيار عدد الحجاج الذين يأتون لأداء فريضة الحج، فبينما كان العدد حوالي مئة الف سنوياً(24) سنة 1926، انخفض إلى اربعين ألفاً سنة 1930، والى عشرين ألفاً سنة 1932، واضطر ابن سعود، تبعاً لذلك، إلى مصادرة الكثير من الواردات وتولى عبد الله سليمان دفع مستحقات التجار الذين يتولون تأمين احتياجات البلاط في شكل سندات مؤجلة. حتى فيلبي نفسه لم يسلم من ذلك، فقد صادر عبد الله سليمان بضائع من شركته "الشرقية" بما يفوق 400 جنيه.

وكان مقدراً لابن سعود، مع القضاء على التمرد الاخواني،أن يزيد حاجزاً آخر أمام توسع موارده ليلبي الحاجات الكثيرة القديمة والمستجدة في تسيير شؤون الادارة والبلاط والقصور. وعلى سبيل

المثال، فقد كان للبلاط وحده، في هذه الفترة 800 جمل و85 سيارة. ودخول التكنولوجيا يمثل مباشرة باباً جديداً للانفاق لا للانتفاع، فقد استوردت في هذا الوقت أربع طائرات دي هافيلاند مع أطقمها، كما كان فيلبي يفاوض لنشر تجهيزات ماركوني اللاسلكية في كامل البلاد ويستعد لتدريب أطقم وطنية لتشغيلها. وكانت هناك دائماً ضغوط على الخزانة بهدف تلبية مطالب رجال القبائل، ولم يكن هناك بد من ذلك اذا ما اريد ارضاؤهم والحفاظ على حال الاستقرار. وفي مثل هذه الحال من المطالب الضخمة من جهة والموارد المحدودة من جهة مقابل، لم يكن أمام ابن سعود غير اللجوء إلى بيع عقود للتنمية داخل البلاد.

وكبيان اكثر وضوحاً لحالة ابن سعود المالية الصعبة في تلك الفترة، نلجأ إلى شهادة د. دام المبعوث الطبي في البحرين الذي توجه مع فريقه من الطائف إلى الرياض بالسيارة بناء على استدعاء الملك، فوصلوا إلى الطائف بعدما عالجوا طوال الطريق كل من احتاج إلى معالجة. استغرقت الرحلة يومين ونصف اليوم بينما كانت تحتاج، مع استخدام الجمال، إلى ما بين 30 و45 يوماً:

"كنا على مرآى من القصر حين قدمت سيارة تستقبلنا، وقبل نصف ساعة من غياب الشمس كنا ندخل بهواً ذا أرضية رخامية، في حين أن أدراجاً رخامية تقود إلى قاعة استقبال الملك"(25).

ولان الطبيب يعرف ابن سعود منذ أوائل العشرينات، فقد كان في وضع يسمح له بملاحظة مظهر الملك الآن، وهو في سنته الثانية التي لم ينخرط فيها بالقتال منذ احتلاله الرياض سنة 1902 بخلاف ما كان عليه سابقاً:

"لم يتغير الملك الا قليلاً منذ رأيته للمرة الاخيرة. كان ترحيبه رسمياً اكثر بقليل، وطوال الشهرين اللذين قضيناهما معه، كان باستمرار لطيفاً وودوداً. كان اكثر بدانة عما كان عليه قبل بضع سنوات، مع خصلات من الشعر الرمادي. وهو مازال يأسر زواره بسحره وكرمه، وبينما كنا معه في قاعة الاستقبال أعلن عن قدوم زعيم ديني متقدم في السن، لحيته بيضاء، وما ان دخل الزائر إلى القاعة حتى هب الملك من على مقعده، وخطا بضع خطوات نحوه، ماداً يده ببهجة واضحة، ليقوده بنفسه إلى مقعد على يمينه قائلاً إنه لم يعرف بقدومه الا هذا الصباح. كان من واجبنا ان نخف لاستقبالك وتقديم واجب الاحترام. انت الوالد عمراً وقدراً ...".

لم يكن الطبيب دام ليجهل ما يحدث في البلاط وهو يقدم جملة ملاحظات بالاستناد إلى ماشاهده وسمعه:

"أموال كثيرة أنفقت وتنفق على السيارات والوقود والاحتياجات الشخصية ....

موازنة الحكومة ما زالت كما هي منذ سنوات ولم يجر بعد التخفيف من النفقات".

يمتدح الطبيب اريحية ابن سعود وكرمه إذ "لا يرد للملك أن يكنز كميات الذهب التي كنزها سلفه ملك الحجاز".الا ان ما شاهده من قاعات رخامية، وسواها، قد أرهق خزانة ابن سعود. وهو ينقل عنه قوله لتجار من الحجاز اسرقوني قدر ما شئتم فغيركم يفعل مثلكم، ولكن لا تسرقوا الناس او تثقلوا كاهلهم(26)".

ويشير دام إلى تصميم الملك ودوره في دفع شعبه إلى التقدم، والى اعترافه أنه مازال عاجزاً عن تقديم التعليم الاولي لمواطنيه او ايفاد الشباب النابغين بينهم إلى الخارج ثم يضيف:

يبدو الملك متقدماً كثيراً امام مواطنيه، كأنه يدفعهم إلى حيث لا يرغبون.والرجال القادرون على مساعدته حقاً في توجيه شؤون الحكم وتنفيذها هم ندرة في بلده. وكل مستشاريه ومسؤولي إدارته هم تقريباً من السوريين في الوقت الحاضر مع بضعة مصريين ونجديين وحجازيين".

هذه الملاحظات نثرت في تلك المرحلة، ومع أن تقارير البعثة الطبية كانت معدة من اجل تداول محدود، الا ان هناك امكانية ان تكون التقارير قد كتبت وسط احتمال لفت انظار الملك إلى مضمونها، ومع ذلك يمكن القول: إنها ملاحظات مخلصة كتبها مراقب مجرب ليتحدث عن الاشياء كما يراها فعلاً.

ملاحظات الطبيب دام حول المستشارين تتكرر في اشارات ديكسون إلى لندن نقلاً عن مصدر له سنة 1922 فيقول.

"ابن سعود هو الرجل الاكثر كرماً والاكثر روعة في العالم. وهو، في الآن نفسه وبالمقدار نفسه، في المال والخداع والقسوة والانتقام ..."والرقص" الانجليزي مفهوم عنده تماماً بل لا يباريه أحد في ذلك.

والمستشارون حوله، مثل فؤاد حمزة ويوسف ياسين ليسوا غير مغامرين جعلوه تحت سيطرته تماماً. ولقد علموه أنه يستطيع كسر كلمته مع البدو.

وربما خفت حدة هذه الاحكام حين أدرك أن صاحب هذه الملاحظات هو احد زعماء العجمان(27)، الا ان قيمتها تبقى في انها تطل على ابواب الانفاق التي كانت تقلق ابن سعود في هذه الفترة، كما انها توضح أسباب الحاجة على زيادة مداخيله، حتى من بيع اتفاقيات التنقيب في البلاد.

وعبر هذا المدخل تحديداً كان الخلاص، او تأثير ذلك مستقبلاً وذلك حين التقى ابن سعود سنة 1930 وللمرة الاولى الانتربولوجي الأميركي تشارلز كراين .c.crane. وكان لكراين صلة واسعة بالشرق الاوسط وتعاطف عميق مع العرب مذ كان أحد أعضاء لجنة الملك _ كراين التي تقصت

باسم الرئيس ويلسون اتجاهات العرب في مصر والشرق الأدنى،قبل وضع المناطق العربية على انتداب القوى الغربية المتحالفة والمنتصرة.

واستمر كراين على اتصاله بالعالم العربي في العشرينات، وزار مناطق عدة في شبه الجزيرة العربية. قد ساعد الإمام يحيى في مسح المصادر المائية الجوفية وزار الملك حسين في جدة لبحث التطوير الزراعي، وكاد يقتل على د الاخوان. وكان ذلك قرب الحدود الكويتية في أحد ايام سنة 1928، عندما كان يقود سيارته وبرفقته المبشر الاميركي هذي بيلكارت.وباقترابهم من تجمع بدوي، فتح هؤلاء النار عليهم فقتل بيلكارت على الفور،ومع ذلك، تابع كراين رحلاته الانسانية. وفي سنة 1931، زار كراين "مجلس فواز سابقاً، ممثل ابن سعود في القاهرة، واستأذنه بزيارة البلاد، وذلك لمسح الموارد المعدنية. رد ابن سعود على برقية ممثله بالموافقة الفورية، واستقبل كراين في جدة من قبل الملك شخصياً في 25 شباط 1931، وكانت النتيجة إرسال كراين لائحة باسماء مهندسين أميركين قادرين على انجاز المسح. واختير من بين هؤلاء كارل س. تويتشل. وفي

إبريل1931،وصل تويتشل إلى البلاد للمرة الاولى، وبدأ بمسح مصادر الطاقة في الحجاز، ثم في الشمال وأخيراً في الاحساء، في شتاء 1931 / 1932. وبينما هو في الاحساء، جاءت أخبار التوقعات الإيجابية لاكتشافات النفط في البحرين التي انتهت إلى العثور على النفط بكيمات تجارية في صيف 1332. وكتب إلى ابن سعود، بكلمات دقيقة وموضوعية، أنه ليس متفائلاً بالعثور على النفط ولكن، بما أن جيلوجيا البحرين وساحل الاحساء المقابل متشابهان تماماً، فان هناك احتمالاً للعثور على النفط في الاحساء ما دام موجوداً في البحرين. وقبل أن ينتهي العام 1932،جرت الاتصالات الضرورية بين شركة زيت اميركية (socal) وتويتشل، فيبلي لاعلان عرض أسعار للتنقيب عن النفط في بلاد ابن سعود ولتفوز به شركة اميركية وهو ما نعرض له في الفصل التالي. وقبل انقضاء العام 1932، ايضاً، كان على ابن سعود أن يخمد عصياناً في الحجاز، محمولاً من قبل شرق الأردن، ويقوده ابن رفاده. وكانت لخدمات الامن ونظام مواصلاته اللاسلكية الفضل في إخماد العصيان في مهده وبهدوء وحزم في آن. فقد علم ابن سعود في مراحل مبكرة، بخبر الإعداد للعصيان، وكان له اتصال بزعيم قبيلة البلي شمال الحجاز، الذي تلقى الرد بالايجاب على دعوة ابن رفادة وتشجيعه لاعلان العصيان الذي سلحه ومولّه بتدبير من الامير عبد الله في شرق الاردن. وعندما بدأ العصيان كان قائد القوة السعودية مستعداً، وجاهزاً بالتالي لان يتدخل بسرعة وحسم بالمدرعات والخيالة، فأطبق على المتمردين بعد قطع كل خطوط النجاة، فذبح منهم 350 رجلاً بينهم ابن رفادة نفسه وولداه. ودفع رأس ابن رفادة للصبية يلهون به، قبل ان يعلق في السوق(28).

أما إعلان قيام المملكة العربية السعودية رسمياً، فكان في 23 ايلول 1932، وكان هناك قدر من الفضول حول التسمية. ويبدو أنه كان للانجليز دور في تثبيت اختيار الاسم(29). فقد تشاور حافظ وهبة، سفير ابن سعود في لندن، مع مسؤول قسم الجزيرة العربية في مكتب الخارجية حول رأيه في اسم "السعودية"، كان رأي راندل(rendel) ان اسماً كهذا من دون ايضاح لن يكون مفهوماً في الخارج، وانه يجب ان يتضمن تأكيداً على العربية وهكذا كان.

**الحياة العائلية**

تزوج ابن سعود في هذه الفترة من عدة نساء ممن ولدن له ابناء سيكون لهم أدوار مهمة في المملكة بعد وفاته.

ففي سنة 1930، تزوج مناير التي ولدت له طلال، وكان يرجع لها دائماً باسم أم طلال.وما تزال حية إلى كتابة هذه السطور. وكان لطلال في الثمانينات انجاز مهم في الوسط الدولي ارتبط برفاه الأطفال، وهو كان في الستينات أحد الأمراء الذين رفضوا الحكم وغادروا المملكة.

وامير آخر من هؤلاء كان بدر(الذي يشغل الآن نائب قائد الحرس الوطني السعودي) ابن هية السديري، تزوج ابن سعود منها في سنة 1932، وهية السديري كان شقيقة زوجة سابقة لابن سعود جوهرة بنت سعد السديري. وزوجة أخرى كانت لابن سعود في هذه الفترة وهي بشرى ولدت له مشاري، الذي طالب أبوه برأسه بعد ما قتل مواطناً بريطانياً سنة 1951.

والابن الآخر الذي ولد في هذه الفترة هو عبد الرحمن، الشقيق الكامل للملك فهد. وواحدة من زوجات ابن سعود في هذه الفترة هي إحدى ارملتي عزايز، ابن فيصل بن دويش. اما الارملة الاخرى فاصبحت زوجة عبد الله الشقيق الأصغر لابن سعود. لقد "كان ذلك شرفاً كبيراً للأرملتين، كما كان اشارة للعالم على انتصار الملك(30)".

**الفصل الثامن**

## السنوات العجاف 1932 _ 1938

ولد اطفال آخرون هذا العام ليضافوا الى التسعة والعشرين صبياً والثلاثين بنتاً.

الأميرة أليس، آذار 1928، في زيارة إلى العربية السعودية عن لا يسي، المملكة ص، 254

المشكلة الاكثر حرجاً التي يواجهها الملك هي الاقتصاد .... فنعمة السماء لم تشمل الجانب المادي.

ك. ويليامز، ابن سعود، ص 290.

ما زال الملك كما يبدو ديكتاتوراً، اكثر مما هو حاكم يمتع نفسه اواسط الصيف، بقتل الغزلان بالرصاص من المرسيدس _ بنز المسرعة.

تقرير بريطاني موثوق عن ابن سعود في الحجاز، 1932، في مذكرات جدة، ج 3 ص142.

في سنة 1933، كان للجاسوس كيم فيلبي اول سهم في عملية تعريف العالم بالملكة العربية السعودية. ففي ذلك العام نشر عبد الله فيلبي وقائع عبوره الربع الخالي سنة 1932، وكلف كيم kim البالغ واحداً وعشرين عاماً، كلفه والده بمراجعة النسخة الاخيرة، الامر الذي انجزه بعناية، ولكن ليس من دون أخطاء(1).

في هذا الكتاب، كما في سائر أعمال فيلبي استطرادات لا تقرأ، الا أنه كنز في معلوماته التي مازالت مرجعاً يستخدمه المختصون. ومن باب المقارنة مع معطيات العربية السعودية اليوم، ومهما كانت درجة تقصيره، يبقى انه اول كتاب يطبع باللغة الانجليزية ليصف اراضي المملكة والمدى الذي بلغته.

ترك فيلبي الرياض مبتدئاً رحلته ليصل إلى الهفوف في 25 كانون الأول، وليكتب في يومياته لذلك النهار عن عيد الميلاد، رغم تحوله إلى الاسلام.وبعد 90 يوماً من مغادرته الهفوف، في 7 كانون الثاني 1932، يصل مع بعثته الاستكشافية إلى مكة. وقد انفق من هذه الفترة 68يوماً يسعى بين كثبان الربع الخالي. جعل فيلبي طريقه عبر واحة جبرين ثم إلى ما يعتقد أنه آثار مدينة وبرا المبادة التي ذكرها القرآن، حسب ما أعده البدو لفيلبي، ثم اندفع جنوباً ليلامس الطريق الذي سلكه إلى الشمال وذلك للمرة الاولى. وبعد استراحة في واحة نايفة، تابع اندفاعه جنوباً إلى أن قال البدو إنهم لن يذهبوا أبعد من ذلك. فلم يجد بداً من الانحراف غرباً مع بدوه وليصل صلايل في مطلع آذار1932، وبعد مسيرة ثلاثة اسابيع وصل إلى مكة عبر ترابا حيث ما زال بالامكان مشاهدة بعض عظام جنود عبد الله بن حسين الذين ذبحهم الاخوان سنة 1919 في تلك الموقعة .

عارض ابن سعود طويلاً رجاء فيلبي الدائم في ان يكون أول من يسمح له باكتشاف الربع الخالي. ولانه، بسبب اعتناقه الاسلام، بات قادراً على حضور مجالس ابن سعود العامة. فانه لم يترك فرصة الا جدد فيها طلبه الإذن بعبور الربع الخالي، رغم معرفته بتحفظات ابن سعود، ومن الواضح أن رفض طلب فيلبي كان مرتبط بشكل اوبآخر، باحتمال فقدان الامن في بعض المناطق النائية وتكرر طلب فيلبي والحاحه مما حدا بابن سعود يوماً ان يقول له "إخرس"، وطلب إخراجه من مجلسه.

لزم فيلبي الصمت طوال سنة 1931(2)، مقوماً لا موقعه فقط وانما وضع ابن سعود كذلك، لقد كتب "من وجهة واقعية، يبدوا كما لو كان اسوأ من حسين. وهذا يكفي".

إلا أنه مع نهاية 1931، توالت الأحداث على نحو مختلف. إذ كان ابن سعود في مجلسه مع أقرب مستشاريه يناقش الخطط المتعلقة برحلة الامير فيصل إلى اوروبا سنة 1932، والامل بأن يستطيع الحصول على بعض القروض لحلحلة الوضع المالي الصعب للبلاد، فذكر فيلبي كأحد الذين يمكن ان يؤدوا دوراً في الموضوع، إلا أن ابن سعود تدخل فوراً مقاطعاً بالقول "كلا" فيلبي سوف يذهب إلى الربع الخالي(3)".

لم يتخذ ابن سعود قراره ارتجلاً، وخصوصاً بعدما نصحه عبد الله بن جلوي بصرف النظر عن الموضوع. لقد رأى ان فوائد كثيرة تكمن في السماح لفيلبي بالقيام برحلته، وخصوصاً تلك المتعلقة بتكوين قاعدة معطيات ثابتة وموثوقة عن البلاد. فمناطق شاسعة ما زالت بلا خرائط غير الربع الخالي نفسه، وبما انه يستورد السيارات والطائرات وأجهزة اللاسلكي، فهو يحتاج من باب اولى إلى المعلومات والخرائط. وكان فيلبي الشخص المناسب لهذه المهمة. فهو متعدد المهارات. في معلومات تفصيلية لا بالعربية وتاريخ البلدان والقبائل فحسب، وإنما بجملة علوم وتقنيات اخرى مثل إطيولوجيا، وعلم الحيوان، وعلم النبات، والفلك، والنقوش والمسح.

وهكذا، وبينما ابن سعود منهمك بمسائل مسح ثروات البلاد المائية والمعدنية، والنفط خصوصاً، فإن تقديم معلومات تفصيلية حول مناطق البلاد، وبخاصة النائية منها، هو أمر اكثر من ضروري.

وبناء لذلك كله اعطى ابن سعود موافقته وأرسل تعليماته إلى عبد الله بن جلوي ليعطي فيلبي كل المساعدة الضرورية لإتمام رحلته، وبعد تأخر بسيط، ومحبط، توافر لفيلبي وفريقه معظم ما يحتاجه في رحلته من خيام وأسرة وأطعمة معلبة، بل ورزم من التايمز اللندنية.

وكان عمل البعثة بحق أول توثيق دقيق لمعطيات المتعلقة بالمملكة العربية السعودية، وهي مهارة سيستكملها فيلبي في انجاز الخرائط وأعمال المسح، حتى بعد وفاة ابن سعود. وسيكون للاميركيين دورهم، أيضاً في وضع خرائط لأراضي ابن سعود بعدما ولجوا باب البلاد في مطلع سنة 1933، بوصول مفاوضين من شركة زيت كاليفورنيا(سوكال) إلى جدة. وقد دخلت سوكال إلى مسرح نفط الشرق الاوسط بواسطة مايجور هولمز نفسه، الرجل الذي حصل من ابن سعود على عقد للتنقيب عن النفط قبل عشر سنوات، لكنه ترك العقد يسقط بسبب عدم دفعه 2000 جنيه إيجاراً بعد السنتين الاوليين. تابع هولمز نشاطه في منطقة الخليج وحصل على عقد مماثل من البحرين. ثم عقدت سوكال اتفاقاً معه، بتمويل كندي بعدما جرى اكتشاف النفط بكميات تجارية في البحرين. في صيف 1932، اتخذت شركات النفط الأميريكية الخطوة الرئيسية التي ادت إلى السيطرة الاميريكية

اللاحقة على سوق النفط السعودي والى الصراع على اتفاقية الخط الاحمر". لقد نجم عن ذلك إلى الآن ان تعمل شركات النفط الاميركية بشكل تكتل وضمن الحدود التي كانت للسلطة العثمانية في شبه الجزيرة العربية(4).

في صيف سنة 1932، اتفق فيلبي، مع ممثل لسوكال، أن يعمل معها بصفة مستشار، زمناً دون كشف هذا الامر لشركات النفط البريطانية في الخليج. واهمها آنذاك bp، وشركة النفط الانجليزية _ الإيرانية(apoc).وفي الوقت الذي عاد فيه فيلبي إلى السعودية من رحلته المظفرة في صيف 1932، وفي الوقت الذي عاد فيه فيلبي إلى السعودية من رحلته المظفرة في صيف 1932، مع عطلة استجمام لبعض الوقت في طريق العودة، كانت سوكال توقع ايضاً عقد خدمات مع رجل مقرب آخر من ابن سعود هو المهندس الاميركي تويتشل. وبالاعتماد على توقعات تويتشل المتفائلة حول وجود النفط في الاحساء نظراً لتماثلها الجيولوجي مع البحرين، بدت الشركة الاميركية مستعدة للدخول في محادثات جدية، وأرسلت بناء لنصيحة فيلبي، فريق تفاوض يقوده اللويد ن. هاميلتون الذي وصل إلى جدة في 15 شباط 1933.

وكان فيلبي قد اقنع apoc انه يعتبر نفسه عميلاً تجارياً حراً في مسألة مفاوضات النفط مما حدا بـ apoc (الشريك الرئيسي في ipc) ان ترسل كبير مفاوضيها، ستيفان لونغرغ، إلى جدة. بدأ العمل على قدم وساق، لكن الخاتمة لم تأت إلا بعد ثلاثة اشهر حين وقع الاتفاق البترولي مع عبد الله سليمان ممثل ابن سعود.

كان الملك بحاجة ماسة إلى المال. فقد تناقص مصدر دخله الأساسي في الحج، بنسبة 80 % إذا قورن بالعام 1930. وكان هناك بالمقابل نفقات متزايدة، لا في ما خص إدارته وأسرته فسحب، كما رأينا، وانما كذلك لتمويل الحملات التي جرت في غرب البلاد ضد تمرد رفادة سنة 1932، ثم ضد تمرد منطقة عسير. وكان التمرد الأخير ممولاً بلا شك، من قبل امام اليمن يحيى، واستمر حتى سنة 1933، حين تحول إلى حرب مفتوحة مع اليمن سنة 1934.

كان مبدأ الدفع مسبقاً، كشرط للموافقة على العقود، هو العامل المهيمن في تفكير ابن سعود ويعتقد بعض المحللين ان الاميركيين قد ربحوا عقود النفط على حساب البريطانيين لهذا السبب دون سواه. الا أن ما يجب تسجيله، ايضاً، هو ان الجانب البريطاني كان ينقصه الجدية أو الالتزام في هذه المسألة، إذ إن شركات النفط البريطانية كانت في الحقيقة مشككة في احتمال العثور على نفط في البلاد. وقصة مدير إحدى شركات النفط البريطانية معروفة جيداً وذلك حين لم يتورع عن إعلان استعداده شخصياً لشرب كل البترول الموجود في العربية السعودية. والى ذلك، فان ابن سعود نفسه كان كما يبدو، اكثر استعداداً للتفاوض مع الشركات الاميركية، وليس البريطانية، على قاعدة انها

تمثل الدول الأبعد مسافة، والاقل ميلاً للتدخل المباشر، بخلاف ما هم عليه البريطانيون. ومن المدهش حقاً بوجود هذه الاحتمالات المتناقضة، ان تكون هناك وثائق توضح طريقة تفكير ابن سعود حيال هذه المسألة. فقد جعل الملك اندرو رايان المفوض البريطاني المقيم في صورة المحادثات الجارية، تباعاً، واستشاره فعلياً في اللحظات الاخيرة وقبل توقيعه الاتفاق. ويبدو ان رايان قد نصح الملك بتوقيع الاتفاق دون إبطاء، ظناً منه أن ليس هناك من بترول في الاساس(5). وفي آيار 1933، جمع الملك حوله مستشاريه للبحث في العرض الاميركي وكان معه يوسف ياسين وعبد الله سليمان وفؤاد حمزة وفيلبي وآخرون، وبعدما أنهى عبد الله سليمان قراءة تفاصيل الاتفاق، اعطى الملك موافقته بالقول"توكل على الله ووقع"(6) وهكذا انفتحت الطريق امام أحلام الثراء، وبعد طول تقشف وحرمان.

أما البدل المالي الذي دفع مقابل الاتفاق فكان متواضعاً للغاية: إيجاد سنوي بمبلغ 5000 جنيه، ومع قرض فوري بـ 30000 جنيه وآخر 20000 خلال 18 شهراً، وتدفع جميعها ذهباً، بينما تدفع الرسوم الاضافية المقدرة بـ 4 شلنات على الطن الواحد بالعملة الاجنبية التي يتفق عليها. وحصلت سوكال، في مقابل ذلك، على حق التنقيب والاستثمار في منطقة واسعة غير محددة بدقة، هي المنطقة الشرقية من المملكة. ولا تدخل في نص الاتفاق المنطقة الكويتية المحايدة. الا انها وردت في ملحق سري نص على دفع مبالغ اضافية في حال اكتشاف النفط فيها بكميات تجارية.

وفي كل الاحوال، اذا كانت ألـ 35000 جنيه ذهباً التي تسلمها عبدالله سليمان شخصياً، وعدها، في آب 1933 ، هي ذروة الخلاص لابن سعود، إذ كانت مداخيله الفعلية في تلك الفترة معدومة تقريباً. وبسبب هذا الواقع كان لديكسون، معتمد بريطانيا في الكويت، الكثير ليقوله حول ازمة ابن سعود المالية. ففي سنة 1933، كانت تتجمع باطراد لدى ديكسون معلومات، أو بالاحرى شائعات، عن قرب سقوط حكم ابن سعود. وحين يقرأ المراقب اليوم برقيات ديكسون(7)،لا يسعه غير التأمل كيف استطاع ديكسون تصديق ذلك كله، بحيث أنه ما من اخبارية أو شائعة الا أوصلها إلى لندن، مع ملاحظة أخيرة دائمة أن مصدر المعلومات غير مذكور لارتباطه بالبلد الذي مازال يسمى السعودية. ونقرأ في برقيات ديكسون كيف يجري شحن زعماء الإخوان المعتقلين، ليلاً إلى ابن جلوي في الهفوف ليقتلوا، وعن انتشار السفلس بين افراد القبائل، والفساد في القصر، ومحاولة ابن سعود طلب اموال من حاكم الكويت مقابل حماية الحجاج الكويتيين، وتفشي الاوبئة بين رجال القبائل التي جمعها ابن سعود وتركها بلا رعاية صحية،وعن نفي محمد، شقيق الملك، وسعود الكبير إلى مكة لقلة ثقته بهما والكثير الكثير غير ذلك. ولايجد المراقب في الواقع أي تأثيرات لمعظم هذه المزاعم.

أما صعوبة اوضاع ابن سعود في الفترة تلك، فلا حاجة للتوقف طويلاً عندها، وتكفي الاشارة إلى سلسلة الاجراءات التي اضطر الملك ووزير ماليته إلى اتخاذها كتأجيل دفع الديون، ومصادرة بضائع التجار، ومنع إخراج الذهب، والاقتطاع من التقديمات والهدايا إلى زعماء القبائل، ومضاعفة الضرائب على الواردات وخصوصاً من مرافئ الخليج التي حلت محل مرفأ الكويت كمنافذ للبلاد على الخليج. فالمقاطعة الاقتصادية التي بدأت سنة 1923 كانت ما تزال مستمرة، والتي يحتج عليها ديكسون بكلمات توحي وكأنه ممثل للكويت، وليس لحكومة صاحب الجلالة فيها.

وبين التطورات التي يعلق عليها ديكسون في تقاريره: ازدياد تورط ابن سعود في مشاكله وقضاياه، وبخاصة تلك المتعلقة بمنطقة الحدود مع اليمن. وأهمية تقارير ديكسون هي إضاءتها لتفاصيل هذه المسألة وعلى نحو أكثر وضوحاً مما ورد في معظم المراجع عن ابن سعود في حقبة الثلاثينات.

واستناداً إلى رواية ديكسون ومصادر أخرى، يتضح أن الاضطرابات الناتجة عن التمرد في المنطقة عسير سنة 1932، كانت أخطر بكثير من تلك الناتجة عن تمرد رفادة في السنة عينها.

كانت منطقة عسير، وعلى الدوام، مصدر قلق دائم لكل العهود التي تعاقبت عليها، لحكام اليمن وللاتراك، ولحسين بن علي، وللسعوديين، الآن، وكان نشأ في المنطقة شبه حكم ذاتي، في القرن التاسع عشر، كان يتعدل تدريجاً لمصلحة السيادة التركية، إلى ان تمكن حسين بن علي، اخيراً من التغلب على الادارسة ووضع يده، باسم السلطان، على المنطقة. وكدليل على مدى تعقيد الوضع، ونوع تطوره مستقبلاً، ويكفي القول: إن التدخل في أحداث المنطقة تلك قد اتسع ليشمل سنة 1911 حتى ايطاليا. فالإيطاليون الذين خبروا الأدارسة بفعل تجربتهم في طرابلس الغرب، حيث انتمى معظم الوطنين الذين قاتلوها إلى الحركة السنوسية عينها. ولأنهم كانوا في حرب مع تركيا سنة 1911، فقد قدم الايطاليون الدعم العسكري إلى عدو عدوهم، اي الى الادارسة، الا انهم لم يفلحوا في فرض هؤلاء على المنطقة التي استمرت تحت السيطرة التركية حتى تمرد حسين بن علي سنة 1916.

وفي فترة النزاع السعودي _ الهاشمي، كانت منطقة عسير هدفاً لحملات سعودية اشترك فيها كل من الاخوان والامير فيصل. وبعد وفاة محمد الادريسي، نشأ صراع على السلطة بين ابنه علي، خليفته، وشقيقه حسين، الذي كان يلقى عملياً دعم السعوديين بينما كان علي مدعوماً من قبل اليمن. ولان التعقيدات مع اليمن لم تكن لتكفي، فقد حاول لاجىء السعوديين إزاحة غريمه سنة 1932مما ورط ابن سعود في نزاع آخر استغرق عامين.

وبدءاً من كانون الأول 1932، خصوصاً، إندلع قتال عنيف في المنطقة، اشتركت فيه ثلاث قوى سعودية مفصلة: الاخوان بقيادة خالد بن لؤي من منطقة ترابا، وقوة قبلية بقيادة حاكم حائل بن

مساعد، وقوات ارسلت من الرياض بقيادة ابن سعود شخصياً، الذي سار معهم، كما يقول ديكسون، إلى منتصف الطريق فقط ثم ودعهم بخطاب رنان.

كان القتال صعباً، وكان للحظات، تصديقاً لمخبري ديكسون. فقد قتل خالد بن لؤي نفسه، وضربت الملاريا عدداً من المقاتلين في أبها. ورغم ذلك كان ابن سعود، من جديد، يحسن الافادة من الافضليات المتاحة له، وجديدها استخدام اللاسلكي. لقد علم ديكسون، من مخبر ترك الرياض قبل وقت قصير في 25 كانون الاول 1933، ان الملك يقضي وقتاً طويلاً يومياً في غرف مشغلي اللاسلكي(8)" كذلك كان للاسلحة المستوردة حديثاً دورها في المعركة، فقد استخدمت القوات السعودية البنادق البولولونية التي استوردت بنتيجة زيارة فيصل إلى اوربا سنة 1932.

وطوال سنة 132، توالت التقارير التي تشير إلى احتمالات الحرب بين السعودية واليمن: ولم يكن في ذلك ما يستدعي حماسة ديكسون الزائدة، اذ ان كتاب فيلبي" الجزيرة العربية" المنشور لثلاث سنوات خلت، قد تضمن تأكيداً على ان الحرب واقعة لا محالة بين البلدين في المستقبل(9). الا أن ابن سعود كان حريصاً على التصرف في هذه الفترة بهدوء لافت (10) وكأن أي شيء لا يجري. واستمر روتينه من دون تغيير في الخروج إلى الصيد، واخذ زوجات اخريات من القبائل.

ووقعت الحرب المنتظرة في شباط 1934 الا ان ابن سعود كان قد استوعب دروساً جديدة، فلم يستخدم الاخوان الا كقوة مناوشة فقط بعدما بانوا عنه لقلة التصميم والضعف، عندهم ، في إرادة القتال في ظروف لم يألفوها في عسير، بعيداً عن الديار من جهة، وبعيداً عن الطمع في الشهادة: إذ انهم يقاتلون الآن في خدمة ابن سعود فقط. وكان الملك حريصاً كذلك على ان تكون قيادة العمليات لابنيه سعود وفيصل، ورغم تعثر الطابور الذي يقوده سعود في أعالي المنطقة الجبلية من عسير، فإن القوة التي كان يقودها فيصل تمكنت من شق طريقها إلى الحديدة، وفي خلال شهرين اثنين كان النصر قد كتب للسعوديين.

واتخذ ابن سعود، في ما تلا من تطورات، موقفاً جنح فيه للسلم، على نحو جعل فيلبي يذرف الدموع(11). وينقل الزركلي صورة دموع فيلبي وهو يستمع إلى خبر الانسحاب السعودي من اليمن، لكن ابن سعود كان حازماً في قراره وواقعياً حين أجابه "انت مجنون من اين آتي بالرجال الذين يكفون لحكم اليمن؟ يحكم اليمن حاكمها فقط".

أرست اتفاقية الطائف التي قبلها ابن سعود بتاريخ 21 آيار 1934، الاساس لفترة طويلة من التفاهم بين البلدين فقد استعاد امام اليمن جزءاً كبيراً من الشريط الساحلي، بينما احتفظ السعوديون بسلطتهم على نجران، وأعالي منطقة عسير، وعلى مرفأ جيزان.

عندما بلغ فيصل وقواته مرفأ الحديدة، كانت قد خفت إلى مياه المنطقة سفن حربية لكل من بريطانيا وفرنسا وايطاليا، والتي لها كلها مصالح استعمارية في البحر الاحمر. وليس بالامر العرضي ان تبدأ ايطاليا في هذه الفترة بالذات بثها الاذاعي باللغة العربية من باري، وأن يتأسس ، بعيد ذلك بقليل، المجلس الثقافي البريطاني، الا ان البث الاذاعي البريطاني باللغة العربية، والذي سيصبح ابن سعود أحد مستمعيه المواظبين، لم يبدأ عملياً الا سنة 1938.

ولدينا، في هذه الفترة تماماً، تقرير آخر حول ابن سعود كتبه اختصاصي بريطاني في الشؤون العربية(12)، والذي سيظهر في غير مناسبة في هذا الفصل، وهو جيرالد دي غوري. وبسبب اتقانه العربية، كان في وسع دي غوري التحادث مع ابن سعود مباشرة، ويبدو انه قد ألف كذلك اسلوبا في الحديث وعلى نحو أخاذ.

"كان يتحدث أمامي كما لو انه ابراهيم او يعقوب، في ذلك النسب السامي القديم اللجوج. ويدفع بك طوفان حديثه بعيداً كما لو كنت بين ضفاف الفكر الغربي" وكزوار ابن سعود الآخرين، أنصت دي غوري بشغف إلى ابن سعود يسهب في التعبير عن مشاعره الدينية وعميق اتكاله على كلمه الله في القرآن:

"ليكن أكيداً لديك اني منطقي وعقلاني في كل الاشياء" لكل حالة حكمها وأسلوب التعاطي معها، باستثناء الحالة التي يمس بها ديني. والله انه هنا، في صدري، وبدونه اموت. لا شيء يأخذه مني، ورب السماوات، اقسم على ذلك". لم يتميز الملك، وفق دي غروي، بعاطفته الدينية الجياشة فحسب، وانما بأشياء اخرى كذلك، منها طريقته الخاصة في التعبير عن حنقه، وطريقته في توجهه لحاكم منطقة عنده بعدما ألح في الطلب: "انتم كالبعير، كالبعير، كلما كبرتم قل نفعكم". أو وهو ينهال على احد اعلى موظفي الضرائب، بعد تورطه في تهمة قضت بسجنه طويلاً."يا ابن الزانية!.". او لموظف آخر في وضع مشابه: "ايها الخنفوس الشارد....". كذلك دهش دي غوري لأسلوب الملك في ادارة الاحكام وطريقة استماعه إلى مستشاريه. فهو ينقل عن يوسف ياسين قوله "يسأل الملك الجميع رأيهم، ولكن، وحتى حين يتفق الجميع على رأي ما، فهو يفعل العكس ثم يثبت انه كان على حق.

ففي سنة 1934، بدأت تظهر على السطح الخلافات حول الحدود الشرقية للمملكة العربية السعودية، والتي لم تحل طيلة حياة ابن سعود. فبناء لطلب سوكال، استوضحت السفارة الاميركية في لندن وزارة الخارجية البريطانية حول الحدود التي تشملها اتفاقيتها مع ابن سعود، فردت هذه بان الحدود هي تلك التي وافقت عليها الدولة العثمانية، والتي خلفتها فيها الدولة السعودية. فقد جعلت بريطانيا مذكرة التفاهم الانجليزي _ التركي لسنة 1913، والخط الازرق الذي رسم الحدود، هما

الاساس في تعيين الحدود الشرقية للمملكة. وحين عمل بذلك حافظ وهبة، سفير ابن سعود في لندن، ابدى احتجاجاً شديداً بحجة ان التفاهم ذاك لم يوقع البتة. وكانت تلك، عملياً، الرصاصة الاولى في معركة استمرت طويلاً، والتي قادت عملياً إلى الصراع على البريمي، والتي كانت تتفاقم في أيام ابن سعود الاخيرة. رغم ان الخلاف العلني كان ينصب على خلافات الحدود مع قطر وابو ظبي.

وفي 20 حزيران 1934، اصدرت الحكومة السعودية احتجاجاً شديداً في رسالة بعث بها فؤاد حمزة. وبنتيجة الرسالة، دعي فؤاد حمزة إلى لندن لمناقشات لم تؤد إلى نتيجة، اذ لم يكن لدى حمزة عملياً تعليمات واضحة من ابن سعود فقد ترك ابن سعود كل الخيوط في يده إلى ان كانت الخطوة التالية في نيسان 1935 حين تسلم البريطانيون مذكرة تتضمن الموقف السعودي الرسمي(13). وبحسب المذكرة هذه،فان خط الحدود الشرقية للملكة، او ما بات يعرف بالخط الاحمر، يتضمن ملكية المناطق الاساسية شرق وغرب شبه الجزيرة القطرية، ثم تبينت الحدود مع ابي ظبي جنوب واحة لوى liwa تماماً. تحفظت بريطانيا، بوصفها قوة حماية ، على سلب محمييها بحسب رأيها اجزاء كبيرة من اراضيهم. فبدأت سلسلة زيارات ومفاوضات اشترك فيها ابن الملك، وذلك حتى نهاية سنة 1937.

ان تفاصيل هذا التبادل للزيارات والآراء والمواقف تبقى خارج سياق السيرة. إلا اننا نكتفي بمثال واحد منها يدل على أسلوب التفاوض الذي استخدمه يوسف ياسين باسم ابن سعود. فمسائل الحدود الحساسة، والتي ترتبط بالتأكيد باحتمالات وجود النفط، كانت تجري في العادة وفق التقليد وفق التقليد المستمر الذي يقوم على المساومة على هذه البقعة، او تلك القبيلة او تلك البئر، ويستنتج المسؤول البريطاني رداً على رسالة ابن سعود في آذار 1937 فيقول:

"اذا كانت الحكومة السعودية تزعم على الدوام ملكية بئر مرة، ثم البئر التي تليه، ثم البئر التي بعدها، فما من سبب يمنعنا من الاعتقاد هذه المزاعم في وسعها ان تصل إلى مدينة مسقط"(14).

وفي آيار 1935، وبينما كان ابن سعود يؤدي مناسك العمرة والطواف حول الكعبة بصحبة ابنه سعود وبقربه حرسه، هاجمه ثلاثة يمنيين بالسكاكين. لقد افلت الرجال الثلاثة من الطوق المضروب وكادوا يقتلون الملك لولا التدخل السريع والشجاع من ابنه والحرس. وقد دلت التحقيقات اللاحقة ان الرجال الثلاثة هم عناصر نظامية في الجيش اليمني، إلا انه لم يتخذ أي اجراء ضد اليمن. كان نظام أمن ابن سعود في الميزان الآن، الا ان الحيز الأمني الشخصي كان له دوره مع العلم أن الرجال الثلاثة كانوا محترفين، وقد اختاروا مناسبة وجوده في الكعبة لأداء مناسك الحج، وانتظروا وجود ثغرة في الاجراءات الامنية.

كان رد الملك على المحاولة، استئناف أدائه للشعائر، ثم ذهابه لتلقي التهاني بالعيد في قصر منا، وبين المهنئين كان ممثل لليمن، وقد امر الملك على وجه التخصيص بمنع أي ردة فعل ضد اليمنيين وحسب بعض الشهود. فان واحداً من الذين اتوا للتهنئة ابن سعود جعل يبكي وهو يستعيد تلك الاحداث امام الملك، فما كان من ابن سعود الا ان نهره قائلاً "كن رجلاً"(15).

بعد انتهاء الحج والاستراحة لبعض الوقت في الطائف، رجع ابن سعود إلى الرياض حيث استقبل في تشرين الثاني 1935 سير اندرو رايان. المفوض البريطاني، ومستشاره للعربية كونيل جيرالد دي غوري. لم يعد بالامر النادر استقبال ابن سعود للممثلين بريطانيين كتبوا عنه فيما بعد. لكن، ربما كانت المرة الاولى التي يستقبل فيها اثنين من هؤلاء في آن واحد.

كانت غاية الزيارة إعطاء ابن سعود رد الحكومة البريطانية حول اقتراحاته بترسيم الحدود الشرقية، ثم تقديم التهاني من الملك جورج الخامس مع هدية هي عبارة عن رداء ووشاح وقبعة الغراند كروس. لقي الدبلوماسيان البريطانيان ترحيباً ملكياً لافتاً. فقد وقف على خدمتهما عدد من ابناء ابن سعود وثلاثة من مستشاريه تحت اشراف ابن سعود شخصياً. واقيمت على شرفهما احتفالات منها احتفال الرازية razzia مما جعل دي غوري يستنتج "ان ابن سعود قد تمكن من تحقيق توحيد تام بين حياة القرن السابع وقوانينه وكل تقنيات القرن العشرين"(16).

وكان لدى غوري كذلك، الوقت اللازم لتقييم الطريقة التي يحيا بها ابن سعود في قصره بالرياض. فقد لاحظ أن صوت المقرئين او المرتلين لآيات القرآن كان يتناهى دون انقطاع تقريباً بين الصلاة والغداء بينما هم جلسوا القرفصاء تحت القناطر الحمراء، والهدير الدائم لنواعير المياه يديرها البعير دون توقف، ورأى الحمام يسرح في سماء الرياض فوق اشجار النخيل وتحت اشعة الشمس. كما لاحظ الطريقة التي يرافق بها الحرس الملكي زواره حول قصر الضيافة بينما سيوفهم في العشب الاخضر. ولم يفته ان يلاحظ كذلك، انه بينما لا يسمح حتى لامراء بحمل سيوفهم في المدن، كان سيف ابن سعود بقربه وهو يستقبل ممثل الملك جورج الخامس. وفي أثناء عبوره احد ممرات القصر اتيح لدى غوري ان يلمح أحد احفاد ابن سعود تميزه "حطة رأس مذهبه". ويصف دي غوري ابن سعود نفسه بشيء من الاعجاب:

"طوله يزيد على الستة أقدام،ولكن على انسحاب وامتلاء، جفن عينه اليسرى يتهدل فوق عين لا يرى بها الآن. أنفه جميل وبارز. لحيته حادة عند الذقن، صغيرة، وتنتهي بعناية على الجانبين ... ابتسامته لطيفة وتكشف عن اسنان حسنة الترتيب. يداه وقدماه ناعمتان وصغيرتان اذا قورن برجل ضخم. بشرته بيضاء، وإن احرقتها الشمس في ما مضى. يده اليمنى تشكو آثار جرح قديم(17)".

ولإجادته العربية كان دي غوري في وضع يسمح له بوصف الطريقة التي يتكلم بها ابن سعود:

"يتكلم الملك بقوة وسلاسة، ويزين حديثه بأمثال عربية قديمة، وآيات من القرآن وأقوال بدوية. عندما يتحدث في الشأن السياسي والدبلوماسي يسهب ويستفيض ويصف الاحداث والافكار بطريقة تبدو لسامعه في منتهى الوضوح، تتسلسل نقطة بعد اخرى حتى يبلغ الذروة، وهو في اثناء ذلك ينحني إلى الخلف أو يحرك كرسيه قليلاً او يبتسم في سحر لافت. أما وضوح رأيه ونباهته فأمران ظاهران في أي موضوع يتحدث، إلا ان حديثه يصبح أكثر حرارة حين يتعلق الامر بشأن من شؤون قلب الجزيرة العربية. لقد أتيحت لنا غير جلسة معه في اثناء اقامتنا. وهو يقول عن نفسه انه مثل النبي محمد "في حبه لثلاثة اشياء النساء، والطيب، والصلاة(18)".

وكان لرئيس دي غوري، سير اندرو رايان، فرصة فريدة لتكوين ملاحظاته وانبطاعاته عن الملك ووضعه. برفقته أتيحت له معاملة خاصة بوصفة أول دبلوماسي يعبر الجزيرة العربية قاصداً ابن سعود في زيارة عمل. وكان لرايان الكثير من المعطيات والمصادر ان ابتسامة الملك الجذابة والمشهورة هي اقرب إلى الضبط منها إلى العضوية(19).

ورغم أن رايان ليس غير واحد من الممثلين البريطانيين الذين عانوا من صعوبة لقاء الملك، الذي يكون في الغالب في الصيد أو في مكة، فان رايان ربما كان اكثرهم اختصاراً وبلاغة حين قال "كل الدول حاضرة في جدة الا السعوديون انفسهم". ويختتم ملاحظاته في نهاية زيارته بالقول ان ابن سعود يبدو راضياً تماماً مثل أي عاهل صنع نفسه بنفسه تقريباً(20)". ومع ذلك فقد كانت كثيرة مشاكل ابن سعود كما ان المناخ الدولي العام لسنة 1936، كان مناخاً مكفهراً، اكثر مما كان في السابق. لقد خفت حدة الأزمة المالية بعدما انتهت تدريجاً فترة الانكماش التي سادت العالم. غير ان قضايا الدخل والنفقات لم تجد حلاً "والدولة السعودية ما كانت تجتاز ازمة الا لتنتقل إلى غيرها"(21). فقد توقف دفع الرواتب حتى للشرطة، أما موظفو الحكومة، فكان عليهم انتظار واردات موسم الحج. وكان المشهد السياسي الدولي، لسنة 1936، مشهداً محبطاً لابن سعود، مما سمح لفيلبي ان يجد الملك في حالة يأس ندر ان شاهده فيها(22).

كان في وسع ابن سعود الآن ان يتابع التطورات الدولية عن قرب، لا بواسطة ممثليه الدبلوماسيين في الخارج وتقاريرهم فحسب، أو بواسطة المقتطفات الصحافية التي يعدها له مستشاروه ومترجموه فقط، وانما كذلك عبر الاستماع إلى البث الاذاعي الخارجي بالعربية، وبغير العربية، الذي كان يكتسب اهمية متزايدة.

كان أكثر ما يقلق ابن سعود ان الاحداث كانت تجري على أبواب المملكة، مما يفرض اهتماماً إضافياً بأمن المملكة.

ولعل الاكثر إحباطاً لابن سعود، في سنتي 1935 _ 1936، هو ان يرى بريطانيا تسمح لإيطاليا بتنفيذ اعتدائها على الحبشة. ويسجل فيلبي مدى خيبة ابن سعود في موقف بريطانيا ذاك: فقد كان يعتقد ان بريطانيا بأساطيلها لن تسمح لايطاليا أن تذهب بعيداً في ذلك(23).

كذلك، فقد بدأت مسألة فلسطين ومنذ سنة 1936، تستأثر باهتمام الملك، اكثر فأكثر، فالثورة العربية في فلسطين كانت قد اندلعت ذلك العام ولم يجر اخمادها الا سنة 1939. وقد مثلت المسألة الفلسطينية لابن سعود اشكالية لم تجد حلاً حتى وفاته، وبخاصة في مقابل اعتماد المملكة المتزايد في ثروتها على المدخول الناتج عن عمل شركات النفط الاميركية، غير ان تعقيدات المسألة قد غدت، وبدأً من سنة 1936، اكثر حضوراً وقوة. فبعيداً عن المرارة التي كان يشعر بها نتيجة قمع بريطانيا لثورة 1936، وبعيداً عن الوضع الذي تسبب به إعلان بلفور، فان ابن سعود كان يدرك حاجته لاستمرار الضمانات الامنية البريطانية، وكان عاجزاً، بالتالي، عن الاندفاع في تأييد الحركة الوطنية في فلسطين. وعليه، فقد كان لابن سعود، بالاشتراك مع حكام شرق الاردن والعراق واليمن، موقف يطالب الفلسطينيين بالاعتدال في تحركهم (24). وكان الامير عبد الله في شرق الاردن لضم فلسطين إلى إمارته. وفي موازاة ذلك الموقف العلني الذي كان يفرض نفسه، أعطى ابن سعود موافقته على ارسال شحنات من الاسلحة، سراً إلى الثوار الفلسطينيين. يمكن القول، في هذا الصدد، أن الجلاء الكامل لهذه النقطة لا يمكن أن يتحقق إذا تحقق، إلا بالعودة إلى الوثائق السرية للفترة لتلك، ولكن هناك ما يكفي من الاشارات، وفي غير